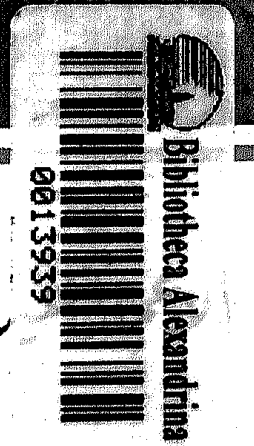


غادة السمان

صفارة إنذارٍ داخل رأسي



الكلمة ٩

منشورات غادة السمان

مصارحة

١ – هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهيمه ذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ – ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها ثانية (حرب ما) أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها – وهي قد تكون أو لا تكون كذلك – ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما أنه لا يمكن تبنّيه كلية .. وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارئ عربي من قرائي ملجأً يحمي حروفي من الإبادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ – ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة – إلا فيما ندر – ولست من هذه النادرة . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ – أعتقد أن العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد . هذا بالإضافة إلى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه – لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه – أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!) وهو أمر مستحيل خارج عن طاقة البشر .

٤ - اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحوير في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ - « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .
فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري - مهما كان مبدعاً - هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص - أي مختارات من عمالي - (ما عدا عمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على عمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن - كما أتصور - في كتابة القصة) .

ثم إن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، ويخيل إليّ أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ - ٩ - ٧٨

لا أهدي

لا أهدي هذا الكتاب الى أحد .
لا أهدى على اعتراف ذلك !
ليس فيه ما يطرب له الناس من اخبار . فيه الجرح
الذي قد يشحون بوجوههم عنه متجاهلين . وفيه
صوت صفارة الانذار القادمة من الاعمق ، والتي
قد يجادلون هجب صوتي خلف توتيتي الحوار اليومي الصغرى .
من منكم يرضى بأن أهديه بعض صفارات الانذار
التي أرتني على طول عشر سنوات ما بيده عاصم
١٩٦٤ - ١٩٧٤ ، التي تغطي رقعة هذا الكتاب
والتي جعلت ليل الخذر والرقب ، ووسارتي
هزيمة ريناميت ؟
وهل بينكم من يرغب حقاً بشاركتي عذاب
الوعيب بصفاراتنا الجرئانية ؟ وهل ... وهل ! ..

غالب
٨/٢/٧٠

صفارة إنذار داخل رأسي

كلما جلست هذه الأيام لأكتب ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الانذار...
 يعلو داخل دماغي ، يمزق أفكارى كلها ، ويملؤني بحس الخطر ، مثلما تشعر كائنات
 الطبيعة البريئة في الليل بأن شبك الصيادين تنتشر في الغابة حولها ، وان الشباك قد حيكت
 بجذق ودهاء ، وأن سكين الصياد لا ترحم ...

* * *

ليست صفارة الانذار هي ذلك الصوت المدوي الذي تطلقه الأبواق في أرجاء
 المدينة . هنالك أيضاً صفارات إنذار أشد شراسة وأكثر استفزازاً لحس الخطر... إنها
 تلك الصفارات اللامسموعة ، تلك التي تنطلق في الأعماق خافتة ولا يسمعا أحد
 خارجك ، لكنها قد تصمّ أذنيك . إنها تنطلق أمام ظواهر صغيرة هي بمثابة مؤشر على
 الخطر الدايم ... انها تلك الحاسة التي تطلق صفارة إنذار داخلية وتدفع بالحصان
 البري وغيره من كائنات الطبيعة إلى الوعي بالزلازل قبل وقوعه . وهي حاسة يملكها
 الانسان إذا سمح لها بأن (تكون) ، ويستطيع سماع صوتها إذا أنصت .

* * *

عملاق مربوط إلى طاولة التخدير

هكذا أراهم يخططون للشعب العربي اليوم ... وأرى أعداءه وبعض المتواطئين
 على أرضه وتاريخه وذاكرته يلتفون حوله في ثياب الاطباء باحثين عن أسرع السبل
 لتخديره ... وبين الحين والحين يطير اليهم « خبراء أجانب » أخصائيون في قضايا
 تخدير الشعوب ، حاملين معهم وصفات جديدة لغسل دماغنا المثقل بالقهر والغضب
 والثورة ...

احساس عام يثقل على الصدور يوماً بعد يوم ... ليس مبعثه خطوة واحدة معينة ،

وانما هو حصيلة تحركات كثيرة ... وتيارات خفية ... كأن صيادين بارعين يتقدمون نحونا ويسوروننا بشباكهم ، يتحركون في الظلام بحذق وبخطى مدروسة ... يتحركون في كل اتجاه وعلى كل صعيد، وفي نفوسنا يتحول الغضب اليومي المحدد إلى انطباع شامل بان الجح حولنا مثلث بالتواطؤ ، مكهرب بخديعة ذكية مرسومة بدقة ، حتى ليكاد الفرد العربي يلتقطها بغيريته ، ويعي الخطر في الجح عبر وجدانه قبل دماغه ... فالعدوان على الشعب العربي ليس فقط عدواناً عسكرياً مصدره «اسرائيل» ... العدوان الأخطر هو عدوان المتواطئين ، وبينهم من هو غافل عن حقيقة ما يفعل وعن استغلال الخطة الامبريالية الصهيونية له بطرق غير مباشرة ، وتوظيفه (حتى دون أن يقبض الثمن) لضرب القضية الوطنية ، أي لضرب نفسه وأساسات بيته وطعام أولاده ...

لم يكن العدو قط أشد شراسة مما هو اليوم ، والقضية الفلسطينية تمر بأخطر جولات محاولة تصفيتها . وكلما جلست لأكتب ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الانذار ، ويملؤني بحس الخطر .

أجل ! كلما جلست لأكتب هذه الايام ، ينطلق داخل رأسي صوت صفارة الخطر والانذار ... وأحس أن أصابعي مكهربة وحلقي جاف بالقهر والترقب وصدري مثلث بتشاؤم غامض وكلتي مسكونة بتوتر كائن بريء في الغاب يترصد به صيادون حاذقون يحركون شباكهم بحذق ...

بأي ثمن ، بأية وسيلة ، بعنف وغضب ولو يجنون ، علينا أن نقاوم كل محاولة لـ « تصفيتنا » أياً اتخذت هذه التصفية من أسماء مهذبة ... علينا الا ننجل من اتباع الاساليب كلها للدفاع عن حياتنا وذاكرتنا وتاريخنا وأرضنا ...

نصب للحشاش المجهول !

لا ينقضي يوم إلا ونقرأ عن فنانيين ومثقفين عرب قُدّموا إلى المحاكمة بتهمة تعاطي الحشيش أو أية مخدرات اخرى .

وبيروت تتحدث اليوم عن الاستاذ الجامعي الذي ألقى القبض عليه مؤخراً وفئة من الطلاب والمثقفين لأنهم كانوا يتعاطون مخدر الحشيش . وسوف يُقدمون إلى المحاكمة .

وستتخذ السلطات الجامعية اجراءات لمعاقبتهم ، وستكتب الصحف عنهم في صفحات الجرائم ، وسترثر (التانات) وعجائز المجتمع ويستفطن الخطب الجلل!! .

غريب أمرنا !

لماذا يقدمونهم إلى المحاكمة ؟

ولماذا يعاقبهم القانون ؟

أليس من الاصح محاكمة كل فرد عربي لا يتعاطى المخدرات ، وذلك بتهمة انعدام الاحساس ؟ ! ... بتهمة انعدام الحس الوطني ، وانعدام الشعور بالمسؤولية ، وبتهمة اللامبالاة والبلادة القومية ، وعلى الاقل بتهمة الاسترخاء ! .

فكل ما يدور حولنا على الصعيد العربي العام وعلى الصعيد اللبناني المحلي يدفع بأي عاقل أو حسّاس دفعا للهرب إلى رحمة التخدير... أي تخدير ... ما دامت آلاف القيود السرية والعلنية تحرمك من حرية الحركة من اجل التبديل .

أن تفتح نافذتك في الصباح لترى رجال الشرطة يطاردون الطلاب وينهالون عليهم بالهراوات ويشدونهم من شعورهم كما تُشد البغال ، ويخيل اليك ان الشاب الذي كان وجهه يتزف هو ابنك ولكنك لم تتأكد لان ملامحه كانت مغطاة بالدم .

أن تعي ولو لثوانٍ جدية التهديد الصهيوني في عالمنا العربي ...

أن ترى « الكرنفال » المستيري الذي يرقص في صحبه المسؤولون بينما الوطن

يرتجف لزوال الحرب ...

أن تستمع إلى مزيد من الحروب الخطابية في خطابات المسؤولين الراقصين في الكرنفال بينما مستنقع الهزيمة ذو الرمال المتحركة يتلع الجميع ببطء ولكن باستمرار... أن يختص مسؤولونا بصيد الحيوانات خارج البلاد ، وبصيد البشر من العمال والمزارعين داخل البلاد ...

أن ترى صورة المزارع الذي اصطاده رجال الامن وهو يسقط صريعاً ، وأن ترى صور أولاده اليتامى وأرملته إلى جانب صور أولاد المسؤول – الذي أمر بإطلاق النار – وهم يتزلقون على الثلج ويمارسون « السكي » في (سويسرا الشرق الاوسط) التي تحترق ...

أن ترى صور سيدات المجتمع في الحفلات يلتهمن أكداس الطعام والرجال ، ويضحكن للكاميرا ، ويشكين التخمسة ويتحدثن للصحف عن الريجيم و (الاخلاص الزوجي) ، وترى صورهن وانت تبحث في الاعلانات المبوبة عن عمل لك ، ثم تجد نفسك مضطراً للهجرة عن الوطن من اجل اللقمة ...

ان تكون راكباً سيارتك الحقيبة وأولادك وفجأة تنطلق صفارة انذار ويهجم عليك رجال السير يدفعونك عن الطريق مثل كلب شرد في موكب يوليوس قيصر ، وتكتشف أن السبب ليس مرور سيارته اسعاف محملة بجريح مشرف على الخطر وانما مرور سيارة سوداء مسدلة الستائر تحمل حاكماً ما من حكمانا الذين تزداد الهوة بيننا وبينهم يوماً بعد يوم .

أن تحاول الوصول إلى حقلك عن طريق القضاء فتضيع بين الشكليات والروتين وتخسر من المال في الحصول على حكم لصالحك أكثر من المال الذي رفعت الدعوى أصلاً لتسرده ...

أن ينكب بك الدهر فتحاول اخراج جواز السفر ، أو ميكانيك لسيارتك ، أو يصلك طرد بريدي ، أو تمرض فتدخل أحد المستشفيات أي ان تضطر للاحتكاك بأي من المؤسسات الرسمية أو غير الرسمية فتواجه في كل لحظة مدى الاحتقار لانسانية الانسان في بلادنا ... ان لا تملك ثمن الدواء لطفلك المريض فيموت بين ذراعيك في ردهة المستشفى بينما يسافر المرفهون للاستشفاء ...

أن يُقبض عليك بتهمة ما خطأً ، ويطلق سراحك بعد أن تعذب وتهان وتضرب ، وتخرج من (النظارة) بيد محطمة بينما تمسك في اليد الاخرى بجريدة فيها مقال لمسؤول

سعيد يتغنّى بحريات المواطن اللبناني ...
أن يأتيك محصل الضرائب ويناكدك ويتفنن في انتزاع كل قرش من ربحك وأن
تدفع صاغراً وأنت تعرف ان هذا المال سيذهب هدراً إلى جيب فلان أو إعلان المسافر
إلى أوربا لتوضيب صفقة ما يبيعه فيها .
أن ترتكب جريمة التفكير بهذه الاوضاع كلها ، وأن تمنع اجراماً فتفكر في
كيفية تبديل الاوضاع عن سابق تصور وتصميم ...
أن تنتمي إلى حزب من اجل التبديل يعني انك « مغرّب » ... ويعني أيضاً ملاحقتك
وربما (اصطيادك) في احدى المظاهرات ...
ماذا تبقى لأي انسان بالغ عاقل راشد وممنوع من محاولة تبديل أي شيء مما حوله
لأن حكّامه (دائماً على حق) ، ماذا أمامه اذا كان واعياً وحساساً وبالتالي معذباً سوى
أن يهرب إلى عالم الجنون ... أو إلى التخدير ..؟
في بلد كبلدنا ، يجب اعتبار عدم التحشيش خيانة عظمى لأن الصحو سيقود
الجميع إلى الثورة ... يجب منح الحشاشين أوسمة لأن ضميرهم الانساني والوطني
حي بدليل هربهم إلى التحشيش ... يجب اصدار قانون يعتبر كل من لا يتناول المخدر
خائناً ... ويجب اعتبار الحشاشين أبطالنا القوميين ، ويجب اقامة « نصب للحشاش
المجهول » ...
ومنح الاوسمة والنياشين للحشاشين تقديراً لحسهم الوطني الحي .
أليس الحشاش العربي المعاصر هو « المواطن الفاضل » في « الجمهورية غير
الفاضلة » الذي تمنعه الدولة من ممارسة واجباته وحقوقه وتفرض عليه « التحشيش
الاجباري » حين ترغمه على قبول منطق القطيع المستسلم وتجره على عدم الاحتجاج
أو الثورة أو التظاهر ؟
وهل يمكن لمواطن ألا يتظاهر اليوم أو يثور أو يحتجّ الا اذا كان مخدراً أو
حشاشاً ؟
ويا حشاشي العالم اتحدوا ...

« سويسرا الشرق » أم « فلسطين الثانية » ؟

بيروت اليوم ، يا اصدقائي ، ترتدي ملابس الحداد ... تتبدى معتمة حزينة . دم
أسود يجري في شرايينها ، فشوارعها مظفأة الانوار ...
لماذا ؟

هنالك أزمة كهرباء سوف تنفجر مع الخريف حين يعود الناس إليها من الجبال .
لاسباب فنية تكنولوجية ... إلى آخر هذه الاصطلاحات العلمية التي لا نستعملها في
بلادنا لإقناعاً لحقيقة واحدة هي « الإهمال » !

المهم ان السلطات « الساهرة » على « الاشعاع » اللبناني تبدو في غاية الرضى عن
ذكائها في مواجهة الأزمة : ستطفأ انوار المخازن كلها بعد السادسة مساء . ستطفأ
أنوار الشوارع ما عدا شوارع بيوت النافذين ، آلات المعامل ستتحرك في ساعات
محدودة . الرجاء من الشعب الاقتصاد في صرف الطاقة الكهربائية ... لا تبريد مركزياً
للموظفين الصغار المساكين الذين يذوبون حراً ! ..

كل ذلك جميل . ولكن المسؤولين لم يتطرقوا إلى موضوع اساسي في البلدان
المتحضرة ، أو التي تمتلك سلطاتها حساً أدنى بالمسؤولية : لماذا يحدث ذلك ؟ ومن هو
أو هم المسؤولون عن فح التعميم الذي سيلف بيروت ؟ لماذا لا يُقدمون إلى المحاكمة
العلمية ؟ الجميع يتحدثون عن هذه الفضيحة بلهجة الأمر الواقع كما لو كانت قضاءً
وقدرآ ، مثل الزلزال والصاعقة والحب ! .. والمفروض ان الطاقة الكهربائية علم لا
نزوة ، ثم انه حتى للخسوف والكسوف حسابات وتوقعات إلا كسوف بيروت
وكهرباءها ... (ولكن ذلك كله خارج الموضوع الذي أود أن أكتبه) !!

أقول : تجولت الليلة في بيروت ، وكان كل ما فيها مظلم كجرح عميق ، إلا
ميدان السباق . فوجئت بالأنوار ملتبهة كما لو كنا في رابعة النهار ، لأجل من ؟ سباق
أحصنة ؟ حفل ترعاه الطبقة المخملية النافذة ؟ ! تابعت السير إلى الكورنيش ، حيث
يخرج الشعب الفقير بأطفاله للترهة على أرصفتها مجاناً هرباً من همومه وبيته المغزول

بخيوط عناكب الحيات والأحزان ، محاولاً رغم ظروفه الموضوعية القاسية كلها ،
الدخول في « سباق الحضارة » ، رغم انه لا يلقي العناية التي تلقاها (أحصنة السباق) !
بحرقة وجدني أتساءل : لماذا لا تطفأ « بروجكتورات » حلبة السباق لتضاء بدلاً
منها مصابيح الكورنيش للشعب المسحوق الذي يدرس بعض ابنائه على نورها أحياناً ؟
لماذا لا تقام سهرات مجتمع ثريات الكريستال على أضواء الشموع ، كما في العصور
الوسطى ، ما دامت هذه الطبقة بمارساتها وموقعها وعقايتها تنتمي أصلاً إلى العصور
الوسطى ؟ ! لماذا لا تطفأ أضواء كازينو القمار في جونه لتضاء مصابيح بيوت البسطاء ،
ملح الأرض ، أبناء الشعب الذين يعتاش أهلهم من اعمال اضافية قد تتوقف بسبب
تقنين الطاقة في المعامل ؟ لماذا يتحمل نتائج الخسارة أفراد الشعب الفقير بدلاً من طبقة
المستثمرين ، التي عقليتها هي أصلاً سبب الأزمة وكل أزمة ؟ !

(ولكن ذلك كله خارج الموضوع الذي أود أن اكتبه .) ...

ما أود قوله هو ، ببساطة ، اني اصفق لتعظيم بيروت ! .. أرحب بجلعها لقناعها
المضيء الملون لتبدي على حقيقتها مدينة مهددة بالخطر ... وقد يكون في تعظيمها -
ولو بغير الازرق - تذكير لأهل هذه الرقعة من الوطن العربي بأننا في حالة حرب .
فتعظيم المدن يرادف في الأذهان كلمة حرب . وقد ينعش منظر الظلام الموجه ذاكرة
الغارقين في سحب الطمأنينة ، الواهين ان لبنان هو «سويسرا الشرق» ، لا المرشح
الأول ليكون « فلسطين الثانية » ...

فلتطفأ أنوار بيروت !

فلتخلع هذه المدينة أفنعتهما ، ولتستسلم شوارع الحزن فيها لرعب الحقيقة !
وليترف الجميع بأن شارع الحمراء ليس « الكارتيه لاتان » أي الحي اللاتيني الباريسي
واننا لسنا في سويسرا ، والحياد هنا غير ممكن ، فنحن امتداد لتاريخ هذه الارض
بصحرائها ورمالها وهزائمها وأمجادها ومصيرها ...

وإذا أصرّ البعض في سهراتهم على الحديث باللغة الفرنسية أو الكتابة بالعامية
اللبنانية ، فان ذلك لن ينجيهم من قدر الأمة العربية الذي هو قدرنا جميعاً . ولعل
شوارع بيروت المعتمة تذكركم بالمصير المعتم الذي ينتظرنا جميعاً اذا لم نسمح الصدا
عن بوصلتنا وأسلحتنا ، وننفذ التراب عن جذورنا ، ونواجه واقعنا كما هو .

من يدري ؟ ! ربما أضاءت شوارع بيروت المعتمة مصابيح ذاكرة الذين ينسون
باستمرار اننا في حالة حرب وحالة خطر .

١٩٧٣ / ٩ / ٣

وجوههم ستطأها أظافر الشعب وأنيابه !

فلنحرق أقنعتنا !

فلنمزق عن شفاهنا ابتسامة المجاملة ، ولنخلع عن أهدابنا نظرة التردد الخائف
شبه المهذب . ولنقل ما نؤمن به ، ولو استحالت الحنجرة محرقة ، والحرف سكتيناً ...

فلنحرق أقنعتنا !

فوطني المثلث بنجمة المجاملات الخطائية ، المعبذب بمحاولات تخديره ، هو في
حاجة إلى الكلمة بلا موارد ، مهما قست !

فلنحرق أقنعتنا !

ولنقف في ريح التاريخ غابة من الأشجار العارية ، بلا زينة ولا أضواء عيد ...
ولنقل ما نؤمن به ... لتتحدث عن شؤوننا الكبيرة والصغيرة ببراءة عري الطفل لحظة
ولادته ، وصدق صرخته الأولى .

* * *

فلنحرق أقنعتنا !

ولتتحدث عن شؤوننا الكبيرة والصغيرة ... شؤون صغيرة ، لكنها أحياناً تلخص
مأساتنا بأكملها .

لنقل لحكامنا ، مثلاً ، اننا تعبنا في لبنان من مشاهدة صورهم وهم يتأبطون
الصحون ويقفون أمام موائد الحفلات كل ليلة كل ليلة بين أكداس اللحوم على
الموائد وعلى اجساد نساء « مجتمع الحفلات » ، كما لو كانوا في بلاط لويس
الرابع عشر !

تعبنا من مشاهدة صور مسؤولينا يعيشون حياة « الدولشي فيتا » ، ينتقلون من
حفل إلى آخر ، من وليمة إلى أخرى ، يرقصون ، يسبحون ، ينكتون ، يهرجون ،
يصطادون ، يغازلون (بفتح الزين وكسرهما ايضاً) ، ينظمون « القراديات » ،

ويتساجلون بالشعر ، يتزلقون في مياه « السان جورج » أو فوق ثلوج الارز ، ويعطون النصائح الطيبة ، ويعرضون آخر الازياء الرجالية ، ويثرثرون عن عزوبيتهم وقصص حبهم أو حكايا زواجهم وطلاقهم وعن رأيهم في بريجيت باردو والزواج المدني وأحذية « بالي » والتهاب اللوزتين والسياحة في الباهاماس والصيد في ايران ، ويأكلون ويأكلون (الجبن وغير الجبن) ... ويتقنون القيام بكل شيء إلا بواجباتهم التي من المفروض ان الشعب جاء بهم أصلاً للقيام بها .

* * *

تعبنا تعبنا ، وتعبتنا حتى أفنعتنا .

تعبنا من صورهم قرب قوالب الحلوى (الجاتوه) التي سممت في جنوب لبنان ١٤ طفلاً فقيراً ، لانهم التهموا حلوى وجدوها مرمية في الزقاق ، ومات اثنان منهم ربما في اللحظة نفسها التي التمع فيها « فلاش » التصوير ليلتقط صورة كروش المسؤولين ونجوم الحفلات امام قالب جاتوه هائل الضخامة .

ومسؤولونا جميعاً يصرون على انهم من نسل دوريان غراي ، لا تعرف الشيخوخة اليهم سيلاً ... كلهم مثل « فاوست » الأسطورة ، شباب دائم ، ولذا فهم لن يسمحوا لنا قط بالتساؤل : اذا كنتم تسهرون ليلاً وتصطادون نهاراً و « تهرقون » مساءً ، فمتى تعملون ؟ ليس بين مسؤولينا من هو تحت الستين (فلنجاهملهم ولنقل تحت الخمسين) ، إذن لا مفر لأي طبيب مبتدىء من ان يقرر انهم في حاجة إلى ساعات من الراحة بعد كل سهرة وسكرة !

متى يعملون ؟

متى يدرسون القضايا التي يفرق مركبنا في بلحتها ؟ هل يسمع لهم وقتهم بالاطلاع على التطور التكنولوجي المرعب والسريع لعالمنا المعاصر ؟

* * *

أنا أو من بضرورة الراحة من اجل استمرار العمل .

وأنا ضد التزمّت المفتعل ، وقد سبق لي ان حاربت ضد الصورة التقليدية للثوري ، التي تجرّده من انسانيته حين تصوّره إنساناً لا يضحك ولا يجب ولا يرتاد الملاهي ولا يسهر ولا يخفق قلبه لأنثى ... وأؤمن بأن من لا يعرف كيف يضحك ويجب لا يعرف كيف يعمل أو يجارب ... وأؤمن بأهمية الاجازة الاسبوعية وضرورتها لكل انسان ، ولكنني لا استطيع ان أفهم كيف يصير الاسبوع كله إجازة لدى مسؤولينا ، ما عدا

« ويك إند » عمل ! المفروض ان يعمل الانسان خمسة أيام - كحد أدنى - ويستريح في اليوم السادس والسابع . ولكن ماذا يحدث حين يستريح الانسان كل أيام الاسبوع؟ وماذا يحدث حين يكون هذا الانسان رجلاً مسؤولاً رسمياً في دولة هي في حالة حرب - شاءت أم أبت - وقوات «اسرائيل» تحتل بعضاً من أراضيها الجنوية احتلالاً رمزياً وعملياً . ويحتل التخلف والاهمال بقية اراضيها ؟ ! .

مسؤولونا (السياح) في وطنهم ، الغرباء عن عالمنا ومآسينا نحن ابناء الشعب ، لا يعملون شيئاً . حتى حينما « يعملون » فالدور الوحيد الذي يمارسونه باستمرار هو الدور العشائري لعرب المآتم والافراح والتكريم . لذا فالمشروع الوحيد الذي يمكن أن يبحثوه - عن خبرة - هو أمر الحفلات ... لذا فجميع مسؤولينا مؤهلون للتدريس في « المدرسة الفندقية » ، ولتقديم الاستشارات في لوازم الافراح والليالي الملاح ، وهذه خبرتهم الوحيدة ، ومع ذلك يدهشني انه ليس بينهم من قرر التدريس في « المدرسة الفندقية » ليفيد شعبه من خبرته اليتيمة !

* * *

فلنحرق أقنعتنا !

ولنقلها عبر حناجرنا المزروعة بأشواك الحيات وصبير الصبر ...
مسؤولونا من الهيبيز ! .. أجل من الهيبيين النادرين في العالم ، الذين تجاوزوا سن الشباب ولكنهم لم يبلغوا سن الرشد .

مسؤولونا من الهيبيز ، لأنهم من بعض مجتمع الحفلات ، من بعض مجتمع طبقة الـ 4 في المئة الأثرياء عبر سرقاتهم « القانونية » و « الدستورية » ، العائشين على هامش واقعنا التاريخي والموضوعي ... مسؤولونا من الهيبيز ، لا لأن بعضهم يتعاطى المخدرات وتجارتها وزراعتها ولكن لأن التعريف الاول للهيبي هو انه الفرد الذي انفصل عن واقع مجتمعه وهرب منه ومن حقائقه إلى عالم يعيش فيه كما يشاء ، دونما حس بالمسؤولية أو بجدوره في أرضه وشعبه .

الا ينطبق هذا الوصف على مسؤولينا جميعاً - إلا فيما ندر - ؟ ..

* * *

اقول لكم : أشتهي أن أسمع ولو مرة بأن أحد مسؤولينا مرض بسبب أزمة ما (غير التخممة) ... أشتهي أن يصاب أحد مسؤولينا بانهيار عصبي مثلاً إثر كارثة من كوارثنا الوطنية ، (للتذكير ، اليكم هذه الامثلة : فضيحة هبوط اسرائيل في

مطارنا - مجزرة فردان - مأساة الجنوب المستمرة - فضيحة الكهرباء - الماء - السرقات رغم النوم والابواب كلها غير مفتوحة - المستشفيات الموصدة في وجه الفقراء ، أي ٩٦ بالمئة من الشعب - فضائح التعليم - الاحتكار - الغلاء - الغلاء - الغلاء (....)

إن الصحة الجيدة لمسؤولينا ليست دليل عافية وطنية ! صرنا نحلم بمسؤول نزيه ، يصاب بالحنون أو ينتحر ، مثلاً ، لتقيم له تمثالاً وطنياً ، فهو وإن عجز عن تقديم خدمة فعالة لهذا الوطن ، أو عملاً إيجابياً واحداً ، فانه على الاقل استوعب ، ولو لثانية ، حقيقة مأزق مركب الوطن الذي حين يغرق سيغرق بالجميع ، ولن تكون هنالك قوارب نجاة لمجتمع الحفلات وأهل الـ ٤ في المئة بمن فيهم مسؤولونا .

* * *

مسؤولونا يجهلون كل شيء عنا ، يسمعون بأزمة الخبز ولكنهم لا يحسّون بها ولا يعونها . والحلوى المكدسة على موائدهم تزداد قوالبها ارتفاعاً بالأمتار كلما ارتفعت الاسعار . انهم الداء فكيف ننتظر منهم دواء !؟ ثم انهم وصحبهم نجوم الحفلات يحافظون على قواعد « الريميم » ويأكلون الجاتوه لا الخبز ... ومصير « أكلة الجاتوه » معروف يذكرك فوراً بمفردات مثل : مقصلة ، ثورة ... إلى آخره .

وريشما يحدث ذلك ،

اقترح ما يلي : إنشاء وزارة جديدة هي وزارة الحفلات ، وإلحاق وحدة طبية بالوزير المختص لمعالجته من التخمة والسكري وارتفاع ضغط الدم ، ويمكن للوزير تطبيق قواعد اللذة الرومانية والطقوس الابيقورية بحيث يتنقل الوزير من حفل إلى حفل يأكل ثم يتقيأ كي يأكل من جديد على طريقة الأباطرة الرومان ... وله في نيرون مثال ونبراس .

وستكون مهمة « وزير الحفلات » حضور الولاثم كلها ورحلات الترفيه بدلا من بتمية الوزراء بحيث يتوفر لهم بعض الوقت للعمل اذا كانوا ينوون حقاً ان يعملوا . و « وزارة الحفلات » التي أقترح استحداثها فوراً في لبنان ستكون أكثر الوزارات فعاليةً وأشدّها انشغالاً ... ثم انها خدمة « وطنية » هائلة : سيكون لدينا « وزير حفلات » بدلا من « وزارة حفلات » و « هيبى » واحد في الحكم بدلا من « حكم الهيبين » !

وسلام على جمهورية الحلم التي حكامها هيبون تجاوزوا الشباب ولم يبلغوا سن
الرشد ! اقلبوا معي هذه الصفحات وسواها ، وتفرّجوا معي على صور وجوههم
المستريحة وكروشهم المترهلة ، حيث لا مفر من ان تطلّها ذات يوم اظافر الشعب
وانيا به !

كرنفال بيروت : تجدد أم تفاهة ؟ حيوية أم لامبالاة ؟

كرنفال في شارع الحمراء في ساعات السماح بالتجول ... الأرضفة مليئة بالفتيات اللواتي نسين (أو تناسين) ارتداء معظم ثيابهن ، والعايرون يستعرضون أجسادهن التي احرقتها أشعة الشمس . يبدو انهن انتهزن فرصة القتال لقضاء عطلة ممتعة على شاطئ البحر ... والشبان يفورون في المقاهي ، والازدحام على أشده في المقهى الذي تحطم زجاجه قبلها بيوم إثر قنبلة ...

موسيقى الضحك ، الحركة ، الاجساد المبللة بعطر الشمس وعرق الشهية للحياة ..
الثرة ... أتأمل ذلك كله بذهول حقيقي .
اتساءل : هل النسيان ممكن ؟

ففي البرادات ما تزال جثث القتلى من الطرفين لما تدفن بعد ... وما تزال الوجوه المشوهة والأجساد المقطعة الأوصال مجهولة الهوية لما يتعرف عليها صاحبها ، (وربما كانوا الآن يتسكعون في شارع الحمراء) .. ورائحة البارود لما تنحسر عن الابنية بعد ...

رغم كل شيء ، عاد الكرنفال اليومي البيروتي كأن شيئاً لم يكن ..
ما تفسير هذه المظاهر العجيبة ؟ ... ترانا نرى (الحيوية) أم (اللامبالاة) ؟
مظاهر (للمرونة) أم (العدمية) ؟ هل هي القدرة على (التجدد) أم على (التفاهة) ؟
هل هي ظاهرة بشرية فريدة من ظواهر المقدرة على ابتداء (الحياة) أم هي مجرد ظاهرة (هرب) إلى أحضان التخدير اليومي ؟
لا أدري ماذا أسمي هذه الظاهرة. ماذا نسمي رجلاً يرقص (الروك اندرول) بحيوية وفي عنقه خنجر مغمد ؟

* * *

كاهن اسرائيلي تقرر فصله من معبد تل أبيب الكبير لامتناعه عن انشاد صلاة

«مجدوا الرب هلل» اثناء الصلاة التي اقيمت بمناسبة قيام «اسرائيل» . قال المنشد المفصول
(ان المناسبة لم تكن تسمح بترديد هذه الصلاة) ...

لقد اخترع الانسان وسائل الكرونية كثيرة للكشف عن الكذب . هنالك آلات
لكشف الكذب باحصاء دقات قلب الكاذب أو ضغطه أو كهارب دماغية خاصة
ترتفع ذبذباتها اثناء الكذب ..

ولكن أحداً لم يخترع أي كومبيوتر يستطيع كشف كذب الانسان على داته ...
فالكاهن الاسرائيلي عاش لحظة المواجهة مع الذات . فقط حين طُلب اليه أن
يتلو صلاة تمجد إنشاء دولة كل ما فيها هو ضد كل القيم السامية التي هي من بعض
صفات الإله ...

وعجز عن الانشاد ... ونبت الشوك في حنجرتة ..
يبدو ان (الايمان) يظل وحده ذلك الاختراع العتيق المذهل الذي يكشف للانسان
مدى كذبه على نفسه عبر عريه أمام خالفه .

ولكننا لا نستطيع الاعتماد على (ايمان) الاسرائيليين لزوال عدوان «اسرائيل» ! ...
ولا على (إيماننا) بحقنا ..
يبدو انه لا مفر من حلول اخرى ! ...

لا استراحة لمحارب في أرضنا !

حين وقع الانفجار كنت أكتب « استراحة المحارب »^(*) ، رميت بقلمي ، وركضت أبحث عن طفلي الصغير في الحديقة ، وشاهدت القطة التي ولدت منذ أيام ترمي فوق صغارها وتغطيهم بجسدها وترتجف .
انفجار ثان . وثالث . ورابع ...

لا نار . لا دخان . لا شيء سوى الصوت المدوي كالرعد . ولكن الشمس كانت تضيء ولم يكن الرعد هو الذي يصرخ ...

صباح اليوم التالي قرأت في إحدى الصحف عن الانفجارات : كانت طائرات اسرائيلية قد اخترقت جدار الصوت ... وسببت هذه الاصوات المدوية كالرعد . أتساءل : الطائرات الاسرائيلية التي اخترقت جدار الصوت ، كيف لم تحترق جدار خدرنا الوطني ، جدار لامبالاتنا بما يدور حولنا من أمور اساسية خطيرة ، وانشغالنا عنها بصغائر الامور ؟ ..

صحيح ان هذه الطائرات الاسرائيلية لم تسبب هذه المرة أي أذى إلا الصوت المزعج ، ولكن أليس هذا الصوت وحده كافياً ليكون صفارة إنذار تدوي في أعماقنا المبطنة بألف جدار نسيان لحقيقة وضعنا ؟ ... صفارة إنذار تدوي في حياتنا جميعاً . وفي ايامنا المبعثرة التي لا يجمعها هدف واضح هو على الاقل الدفاع عن وجودنا وأطفالنا - على الاقل كالقطة في الحديقة التي هبت غريزياً تحمي صغارها ؟ ...

فإلى جانب هذا الخبر : قرأت خبراً عن رصاص طائش قتل طفلة في لحظة الانفجارات الاسرائيلية إياها نفسها ... دار شجار بين اثنين لأمر تافه ، وتبادلا اطلاق الرصاص وقُتل - كالعادة - عابرة سبيل .. أتساءل : الا تكفي الانفجارات ليكفأ عن شجارهما التافه وليلتفتنا إلى العدو الحقيقي ، والهدف الوحيد الذي يستحق

(*) استراحة المحارب : عنوان صفحة في مجلة كنت من كتابها يومئذ .

رصاصنا ؟ . اسأعل : حين تغرق الباخرة بكل من عليها ، هل يمكن لاثنين أن يتشاجرا اثناء غرقها بسبب دَيْن لأحدهما على الآخر ، أو لأي سبب آخر تافه ، ما دامت الباخرة تغرق عادة بكل من عليها ؟ ..

ورغم باخرة الوطن التي تغطس شيئاً فشيئاً في بحار النسيان كما غطست باخرة الهنود الحمر في صحاريهم إلى الابد ، فنحن ما نزال ركبّاب الباخرة اللاهين عن الخطر الأكبر باهتمامات تافهة ، نتحدث عن هندسة الحدائق وصيد الفراشات وتحنيطها . ومدارس عرض الازياء وفتيات الاعلان ولعب « الفليبرز » وعجائز الجمعيات الخيرية وثرثرات الصبغيات وثرثاري الاحتراف السياسي ومعدّات التزلج على الماء وفوائد الصيد ومداواة الصلع والاتيكا والباربكيو والجاليه والسيفر و .. و ..

أم ترانا نهرب إلى ذلك كله كي نلتهي ونتخدر وننسى الباخرة التي تغرق بنا والأرض التي تهرب من تحت أقدامنا مثل الرمال المتحركة ؟ ...

اليأس ؟ ولم اليأس ؟ لماذا نتأرجح أبدأ بين عقدة العظمة وعقدة اليأس ؟ بين الصراخ بتعال (نحن مئة وخمسون مليوناً وهم ثلاثة ملايين ، ما همنا ؟) وبين النواح بأسى : الدول الكبرى تساندهم . لا نملك شيئاً أمام طاقاتهم .. لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا... لماذا لا نفكر بالاختراع الانساني الأقدم من اختراع النار المسمى بـ: العمل ؟ ... في الصحيفة نفسها رأيت في صفحة الجرائم صورة فتاة جميلة وإعلان عن اختفائها ورجاء البحث عنها .. (فتاة ضائعة ترتدي ... خرجت ولم تعد، من شاهدها أو يعرف شيئاً عنها الرجاء الاتصال بالرقم ...) .

ذات يوم سنقرأ الاعلان التالي : « وطن ضائع . خرج في ٥ حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ولم يعد . الاوصاف : بدأنا ننساها .. الرجاء ممن يعرف شيئاً عنه عدم الاتصال بأحد لاننا قررنا نسيان القضية » ..

حين وقع الانفجار كنت أكتب « استراحة المحارب » . آه لا «استراحة لمحارب» في أرضنا .

• • •

رجل قتل زوجته .

ساقوه إلى السجن ، واعترف بجريمته ولما سأله القاضي : لماذا قتلتها ؟ أجاب ببساطة : لقد سئمت عبثها .

والجدير بالذكر ان الرجل القاتل في التسعين من عمره وزوجته المغدورة في

السابعة والثمانين ! ...

أعجبت بهذا الرجل القاتل . صحيح ان الجريمة تسرّبت إلى نفسه ، ولكن من الواضح انه وهو في التسعين ما يزال قادراً على الغضب والرفض إلى حد القتل ... وأن اليأس لم يتسرب إلى نفسه ، وانه ما يزال يحس بان هنالك ما يستحق ان يقتل من اجله ! ما أكثر الذين يموتون وهم في الثلاثين من عمرهم ..
وما اتعس الشعوب التي مات فيها الأمل والرغبة في التغيير والقدرة على التبديل والشهية إلى الحياة حتى القتل ! ..

لا لإبرة المورفين !

إليكم هذا النموذج اللبناني عن الوجد العربي .

في لبنان عدد كبير من سائقي سيارات (السرفيس) الذين يتقاضون تعريفة قدرها ٢٥ قرشاً لبنانياً عن نقل كل راكب . في الاسابيع الاخيرة بادر بعضهم إلى رفع التعريفة إلى ٥٠ قرشاً .

وبادرت السلطات « الساهرة » على حماية المواطنين من الغلاء إلى الضرب بشدة ، وسيّرت دوريات نظّمت محاضر بعشرة مخالفين ، وهي تعرّض مرتكبيها لغرامات تراوح بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠ ليرة وللسجن من ١٥ يوماً إلى شهر . وتتضاعف العقوبة عند التكرار ، ومن المفروض أن نصفق ونهتف عاش العدل ! ..
ولكن لا ...

أعتقد أنه قرار خاطيء . أعتقد أن العكس كان صحيحاً . أي أن المنطق السليم يقضي معاقبة السائق الذي لا يرفع التعريفة لا الذي رفعها ... أقول ذلك بملء صوتي لا التصاقاً مني بقاعدة « خالف تعرف » ولكن للأسباب التالية : من المعروف ان موجة من وباء الغلاء انتشرت في لبنان كما في العالم أجمع . الأسعار كلها ارتفعت : البنزين والخبز والسكر والارز وأقساط المدارس والملابس والأدوية وكل الحاجات الضرورية . وكان من نتائج الغلاء طبعاً زيادة بؤس الأكثرية الفقيرة (إن لم أقل زيادة ثراء المحتكرين والمتواطئين معهم من المسؤولين) ...

وسائق التاكسي (السرفيس) - الذي من البديهي انه لا ينتمي إلى طبقة انلامبالين بالغلاء - هو إذن في حاجة إلى مزيد من الدخل ليقوى على مواجهة الحياة المعاصرة الصعبة القاسية ، ويتمكن من إعالة أسرته وأطفاله الذين هم طبعاً في حاجة إلى الغذاء والدواء واقساط المدارس ، وكلها ارتفعت أسعارها ...

وبالتالي ، فالسائق الذي يستطيع مواجهة الغلاء دون ان يرفع تعريفته هو صاحب

دخل غير مشروع (ناتج عن السرقة ، المخدرات ، الخوّة ... إلى آخره) يمكنه من مواجهة متطلبات الحياة المستحيلة والغلاء الفاحش ...

السائق الشريف مضطر إلى رفع أسعاره وإلا فكيف تريدون منه أن يعيش ؟ انكم تدفعون به دفعاً إلى السرقة وإلى البحث عن الرزق خارج القانون الذي لم ينصفه . وإني لأعجب إذا لم يفعل .

أقول لكم : عاقبوا السائق الذي لم يرفع التعرفة لا الذي رفعها ، فهو إما سارق صغير ، وهذا ضد القانون الذي يتولى أمر أمثاله عاجزاً عن مطاردة السارقين الكبار ، أو أنه من طليعة الثورة التي ستفجر لا مفر ذات يوم من أجل اللقمة والعدالة الاجتماعية ، (والثورة أمر تعاقب عليه القوانين الحالية بشدة أكثر !) ..

إن مطاردة السائقين لا تحل مشكلة الغلاء وإنما تجسّد بعض أسبابها الحقيقية ... تجسّد ذلك المرض اللبناني العربي الذي يعاني منه الشعب العربي في أكثر أقطاره ، ويتمثل في ما يلي :

- ١ - الهرب من مواجهة المشكلة ككل إلى معالجة بعض ظواهرها الجانبية .
 - ٢ - استخدام أسلوب ابر المورفين في تسكين بعض أعراض الداء القاتل .
 - ٣ - اعتماد أسلوب « أسدٌ عليّ » وفي الحروب نعامة » ، فتُثبت الدولة هيبتها باستمرار بالتسلط على الطبقات الكادحة الفقيرة واستعمالها كبش فداء تتلهى بذبحه ، هرباً من مواجهة السارقين الكبار أصحاب الفضائح الكبيرة التي تنفجر من آن إلى آخر ويكون أول المسارعين إلى التستر عليها هم أصحاب الشأن من « الكبار » .
- أقول لكم : لا تعاقبوا أولئك السائقين العشرة الذين رفعوا تعريفتهم ، وإنما أقيموا نصباً لهم وأسموه التزاهة وانعموا عليهم بالأوسمة والنياشين كي يحمل الوسام مرة من يستحقه حقاً .

* * *

ترى أيهما أكثر تعبيراً عن واقعنا العربي ، مهرجان الأزهار في بكفيا الذي قطع الطرقات بعربات الزهور ، أم « مهرجان » القرى العطشى في منطقة كسروان التي قطع أهلها الطرقات بالدواليب المحروقة وجذوع الأشجار احتجاجاً على العطش ؟

هل اسمك اليوم في عمود الوفيات ؟!

تستيقظ كل صباح ، وتبحث في جريدتك عن أسمك في عمود الوفيات ،
وتفرح حين لا تجده ... ثم تفتش عن اسمك أو صورتك في صفحة الجرائم وحوادث
السيارات ، وتتنهد براحة لأنه ليس هناك أيضاً ... وتقول : إذن نجوت البارحة ! ...
إذا كنت من سكان بيروت ، ستفعل ذلك مثلي وتصلني كل صباح شكراً للصدفة
لأنها منحتك يوماً إضافياً تعيشه ... ولأنك ما زلت تحيا رغم انك تقطن في بيروت
١٩٧٤ .. تصلي شكراً لأنه لم تقتلك رصاصة طائشة . لم تدهسك سيارة . لم تمت
عطشاً .. لم يختطفك أحد . لم يذبحك أحد . لم يسقط عليك بناء مغشوش . لم يصعقك
سلك كهربائي مقطوع مهمل . لم تقتل خطأ حين نشب قتال بين المافيا المحلية في
المطعم وأنت تتناول عشاءك .. لم تتسمم بالخبز المعجون بالصراصير . لم تحرقك نيران
القصف الاسرائيلي اليومي على الجنوب . لم تلتهمك كلاب حواجز الشرطة أثناء
التفتيش . لم تصب بانفيار عصبي لأنك قرأت عبث رجال السياسة المهترئين وتظارفهم
السمح وتصريحاتهم ... ولم تُسرق سيارتك وأنت بداخلها ... ولم .. ولم .. ولم يصعبك
شيء بعد مما يصيب عشرات المواطنين المعذبين في بيروت .. ولم تنتحر بعد ! ..
وستصلي مثلي شكراً للمصادفة ، لأنها منحتك يوماً إضافياً جديداً تتعذب فيه ! ..

* * *

قرأت اليوم خبراً عجبياً عن ناطور بناية وجد ميتاً وأثبت الطبيب الشرعي انه مات
بالسكتة القلبية ...

ودهشت .. أما زال في بيروت من يموت ميتة طبيعية ؟ ...

* * *

وحين نحس أنك تعوم فوق بحر من القرف ، والمدينة تربض فوق صدرك بكل
بشاعتها ومهازلها ، كجسد كفتت عن حبه ، تحس بالحاجة الى الهرب .. الى أين ؟

ماذا غير البحر ، البحر العتيق الشاسع ، البحر – الأب ، بحر البراءة والدهشة ،
بحر الشمس والنقاء المنسي ... بحر الأسرار والكنوز والقارات المدفونة والأساطير ؟ ..
وتذهب في قارب مع بعض أصدقائك ...

* * *

توقف بنا القارب فجأة في عرض البحر ... وداخل مروحة المحرك ، كانت
القاذورات متشبثة به تعيق دورانه ... قاذورات من كل صنف يخطر بالبال أو لا
يخطر .. مجموعة (عالمية) من القاذورات لا ريب في أن سفن المرفأ قد جادت بها
على شواطئنا ، فبينها معلبات لا تباع في أسواقنا ... هذا بالإضافة الى قاذوراتنا
المحلية التي نهدبها للبحر مع كل فجر ... كان المركب يشق دربه عبثاً في مستنقع من
البقايا المقرفة والشمس عبثاً تشق دربها الى قلوبنا ، وتعلقت نظراتي ببقايا امعاء خروف
عائمة .. (أم تراها امعاء لإنسان قرأت اسمه هذا الصباح في خانة المفقودين ؟) ..

ولكن ، لماذا تدهشني قذارة الشاطيء ؟ أليس امتداداً للساحل ، وها هو يحمل على
صفحته الشفافة صورة عن حياتنا في الداخل ، وها هي الصورة تنتشر بين الأمواج بكل
عريها وقذارتها كأنها سطور ليوميات إهمالنا ؟ .. وعبثاً حاولنا اختراق سور
قاذورات بيروت لنصل الى عرض البحر . تعطلت المروحة ثلاث مرات ، وتعبنا ..

* * *

قال صديقي : أغطسي تحت الماء ...

وهربت الى الأعماق وفوق ظهري مؤوتني من الأوكسيجين ... كان القاع
ساكناً إلا من ضجيج تنفسي والفقاعات الراكضة الى الأعلى .. وسمكة تتأملني بدهشة
بعينها الكبيرتين ... تتأملني بما يشبه الهزء والغضب ولعلها تتساءل : ما هذا الحيوان
البحري العجيب . ما أبشعه . وما أسخف تنفسه ! .. ما الذي قذف به الى هنا ؟
وتمنيت أن أروي للأسماك ما يدور وأطلب اللجوء الى عالمها ... لكنني شعرت
بعيونها تطردني من القاع ... ولن تقنعها نظرية « جول فيرن » عن البحر ، وأن عودة
الإنسان الى البحر هي أمله الوحيد في النجاة ... لا مكان لنا هنا . لا مفر من مواجهة
المستنقع كل صباح ، كل صباح ! ..

* * *

ولا مفر من الغضب حين نقرأ ذلك الخبر المتكرر عن شاب نجا من القصف
الاسرائيلي ولكنه كاد يقضي نحبه نتيجة الإهمال اللبناني الطبي ...

شاب تنمزق امعاؤه ... يحملونه الى المستشفيات الرسمية ليعامله الأطباء بغطرسة
ولامبالاة قد توديان بحياته : ثم تصدر إدارة المستشفى أو الطبيب المختص تكديباً
للمريض إذا شكاً ، ويتم اعتماد التكذيب لأن صاحب الشكوى فقير وبالتالي مهمل
وليس هنالك من يدافع عن حقوقه .. عن أبسط حقوقه التي تقرها جمعيات الرفق
بالحيوان : حق الحياة ...

أنها ليست حادثة إفرادية ... انها ظاهرة عامة ... ظاهرة استخفاف أكثر الأطباء
بحياة الفقراء وعامة الشعب ... لأنهم لا يتذكرون قسم ابقراط إلا أمام دفاتر الشيكات ...
المطلوب إعدام كل طبيب يترك إنساناً يحتضر أمامه ولا يعالجه لمجرد أن جيوبه
فارغة إلا من القهر والدم !

في العنف الدموي نفوق !

عنف وجريمة .

دم دم دم يسبح حولنا ...

دم يسبح على صفحات صحفنا ، دم يسيل من أحاديثنا المتبادلة ، دم في الأزقة
المعتمة ، دم . خنجر مسموم يحس كل منا أنه يتربص في الظلام لرقبته ...
يوماً بعد يوم

لم نعد نقرأ إلا عن حوادث العنف .. قتل ، اختطاف ، سرقة ، دم ، دم ...
لو تجاوزنا التفاصيل ، الأسماء ، الظروف ، لوجدنا دلالة ما يدور خطيرة ..
الجريمة هي أن يعتقد الإنسان أن رصاصة ما هي الحل الأمثل لأية مشكلة . إنها سقوط
إنساني : والعنف الدموي ، الذي بدأنا نجد أنفسنا غارقين فيه ، معناه أن جيلنا بدأ
يتعلم استعمال يديه أكثر من استعمال رأسه ...

إنها عودة الى العصر الحجري في الأرض التي لما أثبتت الأديان والفلسفات
حررت الانسان من منطق العضلات الحيواني وكرمه برفعه الى عالم الفكر
السامي ..

لماذا ؟ .. لماذا هذا العنف الجنسي والسياسي والاجتماعي ! لماذا بدأ جيلنا
يستعمل يديه حيث يجب أن يستعمل رأسه ! .

لأننا أغرقناه في العنف .. في الدم .. وفي الجهل والسطحية ؟
الدم يسبح من برامج تلفزيوناتنا (وقد تنبّه المسؤولون الى ذلك ربما بعد فوات
الأوان) ... عنف ودم .

لأن « جيمس بوند » صار مثلنا الأعلى وهو استيراد تافه في عالمنا العربي ...
في عالمهم الغربي حيث الإنسان مجرد رقم مجهول تافه ، جيمس بوند تجسيد
لفكرة « السوبرمان » ...

أما في عالمنا العربي ، فـجيمس بوند رمز لايجاد حلول تتجاوز الحلول المشروعة
الجماعية الإنسانية ..

لو عدنا الى حقيقتنا ، لاكتشفنا أن عالمنا العربي بتفديسه للقيم ، قد تجاوز عصر
جيمس بوند بمراحل ومنذ زمن طويل .. ربما كان السندباد «جيمس بوند» العرب ..
لكنه كان – إنسانياً – على مستوى أرفع ، فقد كان له في طموحه الصادق للمعرفة ،
لا في اسلحته الآلية البهلوانية ، سر قوته وعظمته ..

أن نستورد الطائرات منهم ، والصواريخ ، أمر لم يعد هنالك مفر منه ..
أما أن نستورد منهم حصيلة جوعهم المريض الى التفرد ، فأمر يتجاوزناه منذ
عصور ..

لماذا ، لماذا في غمرة ركضنا الأعمى وراء كل غربي مستورد. نستورد أمراضهم
ونستورد لقاحاتهم لأمراض لم نصب بها قبل أن يقوموا بتسميم جسدنا السليم بجراثيمها ؟
في التلفزيون ، في برامج إذاعاتنا ومسرحياتها البوليسية (المثيرة) ، في الأفلام .
في أسطوانات النحيب والأين ، في الروايات (الميلودرامية) بذور لعقلية لا تلائم
المزاج العربي الذي كان شهماً والأخلاق العربية التي لم نعد نجد أمثلة لها إلا في الكتب
الصفراء ..

العربي لم يكن قط مجرماً ...
العربي كان شهماً حتى في جرائمه وسقطاته ..
كان في أشعاره بناجي حتى ذئاب الصحاري التي ربما – قبل ليلة – التهمت
أطفاله ..

العربي كان دوماً حار العاطفة ، لكنه لم يكن مجرم العاطفة مسعورها ..
اليوم ، جيلنا هجين . فتح عينيه على تفاهات الحضارة الغربية لما عجز عن
مجاراة انتصاراتها ...

شيء واحد كان يمكن لعالمنا العربي ، المقصر علمياً . أن يمنحه للغرب الجائع
روحانياً ..

شيء واحد اسمه : القيم ...
وها نحن اليوم نتخلى عن الشيء الوحيد الذي تبقى لنا .
وها هو جيل الإنسان الآلي (الروبوتز) يتسلل الى ذلك الرأس الذي كان مدينة
منطق ونقاش وتسامح ، ليحيله الى قرية من قرى الغرب النائية في احد أفلام

الكاوبوي ...

عشرات الأحداث في شهر واحد .. دم .. دم .. دم ...
ومع ذلك ما تزال التلفزيونات تعرض تفاهاتها ببلاهة .. وما تزال أفلام العنف
والقتل تجد طريقها الى شاشاتنا واستديوهاتنا ...
وما زلنا نربي في أطفالنا وشبابنا أجسادهم ، ونمعن يوماً بعد يوم في تشويه بقايا
رواسب الأخلاق العربية النبيلة في رؤوسهم ...
نسخر وسائل دعاياتنا كلها لنعلم سيقانهم كيف تتلوى في حلبات الرقص ،
وكيف تتسلل الى دهاليز الجريمة . أما رؤوسهم ، فلم تعد العاقلة المدبرة ، وإنما
استحالت الى مجرد أدوات مدبرة متضامنة مع حيوانية الأصابع التي تفرض منطق
الرصاص ...

شيء مفجع حقاً ، أن أجسادنا صارت تحمل رؤوسنا في مآثم رؤوسنا ...
شيء مفجع حقاً أن كانت لخيام أجدادنا جنود أعمق انغراساً في أرض
الطمأنينة من ناطحات سحابنا التي تعوم على الرمال ...
شيء مفجع حقاً ، أن أطفالنا سوف يشهدون الليلة ، وكل ليلة ، على الشاشات
وعلى الصفحات ، رجالاً يموتون كالذباب ...
تري ، كم طفلاً من بينهم سيكون قاتلاً بعد أعوام ؟ ! ...

الأطفال ، والقتل !

روت لي المعلمة ، وفي عينيها دعر قلق ..

قالت ،

(طفل) صغير ، تشاجر مع (طفل) آخر في المدرسة ، فشهز عليه سكيناً كان قد سرقها من المطبخ ... ورد عليه الآخر بالمثل ! ...

قالت ،

لأنها بحكم انتمائها الى (الجيل القديم) الذي ما يزال يقرن الطفولة بالبراءة ، كادت تصاب بالاغماء .. وعجزت عن مشاركة بقية أطفال الصف حماسهم أو لامبالاتهم بما يدور ...

قالت ،

الأطفال لم يعودوا أطفالاً ... لم يعد في عيونهم ذلك البريق المشوب بالعاطفة ، ولم يعد في حركاتهم وفي لهوهم ذلك الخبث الساذج الطيب ، والمكر المحبب النقي ...

قالت ،

أطفالنا فقدوا الطفولة ، ولم يبق لهم منها سوى احجامهم الصغيرة ... لقد تحولوا الى مجموعة من الأقزام العصريين ، تسود تصرفاتهم ، الآلية ، والقسوة ، والأنانية المستهترّة ... لأنهم فقدوا كل تحسس مورث بالقيم الخلقية الجمالية ... لأنهم يشبون على ذلك ، يكبرون يوماً بعد يوم ، بينما يصغر الإنسان في أعماقهم حتى يكاد يضمحل ...

قالت ،

إن متعة تدريس الأطفال انتهت .

صارت اليوم تشعر أنها موظفة في بنك تتعامل مع الأرقام . تتحاور مع الآلات الحاسبة .

انها ترى فيهم رموزاً مرعبة بلجيل هجين ، سيشب بعد أعوام قليلة ليحمل تراثاً لا يفهمه ولا يقدره ، وليمارس حياة تنحرف نهائياً باصالة الفرد العربي القديمة التي أهلتها ذات يوم لسيادة العالم ..

أتساءل ،

في موجة التطور السريع التي تخوضها بلادنا العربية لمواجهة المدنية الآلية العصرية ، وما ينتج عن هذه الموجة من مضاعفات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، ماذا أعددتنا للطفل سوى إهماله ؟ ...

ماذا أعددتنا ليرث الجيل الطالع شخصية الفرد العربي وما كانت تنطوي عليه من أخلاقية مكثفة معينة تميزها عن الفرد الغربي الممزق ؟ ..

ماذا أعددتنا ليكون التطور إغناءً لشخصيته ، لا إفقاراً لهيكلها الأساسي ؟ هل يكفي أن نحشو البرامج المدرسية بالمعلومات التاريخية والجغرافية ، ونقصرها داخل رأسه على أمل أن يجعل ذلك منه استمراراً لروحانية الشرق العتيقة المقدسة ؟ .. طفلنا ، ماذا نعلمه في شاشة الشارع والدار والتلفزيون والصحف ؟ ماذا سوى حصيلة مئات من أعوام التخلف والصدأ والاهتراء العاطفي والفكري ؟ ...

عالمنا الاجتماعي المتميع القيم ، المهزوز الاسس ، ماذا يملك لأولئك الأطفال سوى جو من القوضى والغوغائية والصراع والقلق وسوء الفهم وسوء التفاهم ؟ ... وإذا استوردنا له من الخارج ، فإن جهلنا بلب الحضارة الغربية يتحكم في اختيارنا ، ونعود اليه بهدايا (السوبرمان) وأفكار (بيتلززية جيمسبونديية) العنف .

وهكذا يشهد الطفل (أمل المستقبل) اطلالته الأولى على وطنه في هذا الجو المفتعل المريض الغائم ، وهكذا يتم تهجينه واغتتيال بذور الأخلاقية العربية التي يفترض أن نعتى بتنميتها في دمه وفكره ...

قالت ،

طفلنا صار مادياً قاسياً ، ملكاته الجمالية مشلولة ...

أتساءل ،

ما دام من يزرع الريح يحصد العاصفة ، ماذا زرعتنا في رؤوسهم الصغيرة ؟ ... ولماذا يدهشنا أن ينبت في أحشاء وطننا جيل من حاملي الأمواس والسكاكين ؟ ! ...

الزلازل قادم إلينا !

موجة الأضرابات التي بدأت منذ أكثر من شهر في لبنان ما تزال تروح وتجيء .
اليوم ، الاثنين ، هو الموعد الذي حددته النقابات لمتابعة اضرابها ، إلا إذا ...
أهل الاقتصاد والصحافة والسياسة لم يفتنهم المدلول الخطير لهذه الموجة التي ما هي
إلا امتداد للاضطرابات التي تعاني منها أكثر البلاد العربية في بحثها عن استقرار
نهائي ونظام يحقق أهدافها وينسجم مع مقوماتها التاريخية والنفسية ...
وهكذا عالجوا الاضرابات بـ (الاسعافات الأولية) من مخدرات ومهدئات وأدوية
(موضعية) لا تحسم الداء نهائياً وإنما تحد من انتشاره مؤقتاً ..
وتطوع أطباء الاشتراكية والرأسمالية ، فوصفوا لجسم لبنان أدويتهم وعلاجاتهم
المقترحة ، كما يحدث في أي بلد عربي آخر ...
وغرقنا في دوامة من العبارات المهمة : الأجور ، الضرائب ، الغلاء ، السياحة ،
الضمان ...
وكانت آثار هذه الدوامة واضحة على صفحات الصحف ... ورغم ذلك ...
رغم زحام هذه الكلمات (المهمة) المتعاركة فوق عيني مع هدير صرخات الآلاف من
« محمد جورج » (المواطن اللبناني المسلم والمسيحي ولترمز له باسم محمد جورج) ،
هذه الصرخات رغم عمقها وأهميتها ، فإن حكاية في أحد تحقيقات الصحف نفسها
حملت إلي ما هو أخطر من هذا كله ، وأكثر أهمية ...
الحكاية : أن مظاهرة قامت في السويد ، وبما أن الناس هناك يمشون في المظاهرات
على رؤوس أصابعهم ، فقد كان حادث إحراق علم ، عملاً يستحق تدخل
الشرطة ... وكانت صورة شرطي أمسك بمواطن من أذنه وفركها ، عملاً يستحق
ثورة الصحافة والرأي العام على امتهان كرامة الإنسان ...
كرامة الإنسان ... هي بالضبط العبارة الأساسية التي يجب أن ينطلق منها أي

حل وكل حل وفي مجالات حياتنا جميعاً ... في اضراباتنا الفردية السرية والعلنية
الجماعية ... وفي علاقة الدولة مع الفرد والفرد مع ذاته وفي عطاء الدولة للأفراد .
أي حل لا يضمن لـ « محمد جورج » ضمان الكرامة قبل (ضمان الخبز) هو أيضاً
من نوع (الاسعافات الأولية) ... وأي حل لا ينطلق من حق « محمد جورج » بالحياة
الكريمة وبالتالي بتحسين وضعه المادي هو حل مفتعل وناقص .

أرضنا العربية هي منبت الديانات لأن الديانات بدأت دوماً ثورات للكرامة
الإنسانية المهدورة ... ثورات من أجل الكرامة أولاً ، ومن أجل الخبز مع الكرامة
ثانياً ... وكل ما في تاريخنا وجيولوجيتنا النفسية يقودنا الى هذه النبوءة : (أي وضع
اجتماعي أو اقتصادي يخلو من هذا الشرط الأساسي هو عرضة للزوال والتدمير) ...
وعلى ذكر الزلزال ...

فقد وقف نائب تركي قبل أشهر ثلاثة من الزلزال الأخير هناك ، وتنبأ بوقوع
الزلزال لأسباب جيولوجية ، وطالب بنقل أهل مدينة « فارنو » وإخلائها ... ولم
ينصت اليه أحد ...

وبعد أن وقع الزلزال ، وتم مصرع ٣٠٠٠ شخص ، أطلقوا على النائب لقب
« المنجم » ... أخشى ، لا أريد أن أمنح اللقب نفسه وليمنحونا كرامتنا ، فالكرامة
قمح العربي .

صاحب أجمل بصمة إصبع !

موظف الجمارك في لندن ، سأل أوسكار وايلد العائد إلى وطنه : هل لديك ممنوعات ؟

رد الكاتب الساخر : نعم ، ذكائي .

واليوم كانت الشرطة تطارد في شوارع بيروت كل من يحمل كتاباً (*) كأن الكتاب هو دمغة الاجرام العصرية التي كانت توشم بالحديد المحمي فوق أجساد المجرمين والزانيات والقراصنة في العصور الوسطى .

نعم ! أحد زملاء دراستي في لندن كان يزور لبنان سائحاً بعد أن كذبت عليه طيلة أعوام عن بيروت مدينة (الاشعاع والحرية) . تصادف أن ذهب المسكين الى مكتبة في شارع الحمراء ليشتري كتاباً بوليسياً يتسلى به قبل النوم ، ولم يكده يغادر المكتبة والكتاب في يده حتى فوجيء برجال البوليس يهاجمونه ويطاردهونه ... ولو لم يكن بطل جامعة لندن السابق في الركض لكان اليوم نزيل أحد المستشفيات ! إن عداء النظام ، أي نظام ، للكتاب هو أمر خطر على النظام أولاً .

لقد أثبت التاريخ أن الثورات التي يقوم بها حملة الخناجر هي التي يفجرها أولاً حملة الأقلام ... فالقلم يستحيل خنجرأ حين يُقمع . والكتاب يصير قنبلة يدوية .

الثورة الروسية صنعها أولاً غوغول وديستوفسكي وتورجنيف وتولستوي وماركس . كل ثورات الشعوب صنعها الفكر المكبوت ، وفجرتها أنظمة خنقت الفكر بدلاً من أن تستلهمه ... واضطهدت حملة القلم وحاولت إطفاء نيرانهم بدلاً من أن تستضيء بعطائهم ... فالفكر بوصلة الحاكم التزيه . والكتاب سلاح الحاكم الواعي ، لا

(*) حدث ذلك إثر تظاهرة الطلاب !

الهرارة ... فالهرارة سلاح رجل الغاب . ولم يعد ممكناً لحاكم في القرن العشرين أن يعود بنا إلى العصر الحجري ...
هذه كلها بدييات .

أي تلميذ في المدرسة الابتدائية يستطيع أن يروي عشرات الأمثلة التاريخية عن هزيمة كل حاكم يرغم شعبه ومفكره على ارتداء « حزام العفة الفكري » ... وصاعقة الفكر تحرق سيف الحاكم الخشبي .

أجل . هذه كلها بدييات ، كان يحفظها عن ظهر قلب كل أطفال بلادنا ، ولكنهم للأسف ، ينسونها حينما يكبرون ويصيرون حكاماً ... وقديماً قيل : افتتح مدرسة تغلق سجناً . ولكن يبدو أن أكثر حكامنا العرب قرروا إغلاق كل مدارسنا كي يستحيل عالمنا العربي إلى سجن واحد كبير ... وإذا ظلت الأمور على ما هي ، سيأتي يوم تُفتش فيه البيوت ويقتاد إلى السجن كل من يملك مكتبة بتهمة حيازة أسلحة ممنوعة .. وستجري امتحانات الذكاء (I. Q.) ، وكل من يفوق ذكاؤه المتوسط ، يُتهم بالشروع في التواطؤ ضد الحكم ...

أما من يُضبط متلبساً بالتفكير ، فيساق إلى المحكمة بتهمة الخيانة العظمى . وستمنح الجوائز الثقافية للأميين ، وسيحرق الكتاب في الساحات العامة كالمخدرات ... وسيمنع الناس من « التوقيع » على الشيكات وغيرها ويستعاض عن ذلك « بالبصمات » لأن « التوقيع » قد يثير لدى الناس « النوستالجيا الثقافية » ويذكّرهم باستعمالات الأبجدية الأخرى .. وسيُرشح العرب لجائزة « نوبل » صاحب « أجمل بصمة » ! ..

صرخة تحذير في وطن التخدير!

تعبنا من هذه الصورة التي تطلعتنا كل أسبوع تقريباً ...
صورة طلاب يركضون في تظاهرة ، رجال الشرطة ينهالون عليهم بأعقاب
البنادق ... يشدون شعورهم ويحشرونهم في سيارات الاعتقال كالخراف المساقة الى
الذبح المعنوي .

كلما شاهدتها ، تمطر الدموع في حلقي بصمت غاضب مشمتر .
لماذا تثور السلطات هكذا أمام تظاهرات الطلاب أياً كانت أسبابها ؟
ولماذا تتصرف كأنها تخاف من أن يوقظ الطلاب عقدة الذنب لديها ، أو يوقظوا
الشعب النائم (أو المتناوم على مضض) من حولها ؟ ..

أليست تظاهرات الطلاب هي وحدها دليل عافية الجيل الطالع ؟ ...
و حين تمضي بنا الأحداث في مستتق راكد من الفضائح والسمسرات والإهمال
لحاجات الشعب الأساسية والمتطلبات القومية للأمة والتطلعات المصيرية للمثقفين ، أية
كارثة قومية تحيق بنا إذا لم يتظاهر أحد ، ولم يرف جفن ، ولم تتركم الفضائح أنف .
ولم تصرخ حنجرة فتية : لا ! ..

ومع ذلك ، وبدلاً من أن توزع الحكومة الأوسمة على المتظاهرين لأنهم وحدهم
بصيص الأمل في ليلنا الطويل ، نجدها تتفنن في قمعهم .

أعرف أن ذلك لا يحدث في بلادنا فقط ، وانه لا يقع في عصرنا فقط . كما أعرف
أن الشبان كانوا دوماً صرخة التحذير في وطن التخدير وذلك بحكم كونهم ممثلين لإرادة
التبديل والتغيير ... وانهم جوبهوا دوماً بحكام يتفننون في اختراع أسلحة مكافحتهم ..
وحتى المفكرون العباقرة أعمتهم الهوة بين الجيلين ووقفوا ضد الجيل الصاعد .
اقرأوا معي هذه العبارة التي كتبها أحدهم : « شبان اليوم يعشقون الرفاهية . أخلاقهم
فاسدة وسلوكهم سيء . أنهم يحتمرون السلطات ، ولا يكون الاحترام للجيل السابق .

أنهم يعاكسون آباءهم ويرهقون اساتذتهم ... » ..
هذه السطور لم يخطها حاكم لبناني معاصر وإنما كتبت منذ العام ٣٢٩ قبل
المسيح ! .. وكاتبها هو سقراط نفسه ! .. وخكاية اضطهاد الشبان اليوم ما تزال بعد
٢٠٠٠ سنة صورة معاصرة لما كانت عليه منذ عصور ... وإذا كان سقراط نفسه قد
قال في جيل الشبان ما يقال اليوم عن شباننا ، فهل نطمح في تفهم عاجل للشبان
ولدورهم الموقظ لحواس الحكم المتبلدة ؟ .. أم علينا أن نتنظر أيضاً ٢٠٠٠ سنة
أخرى ؟

إذاعة لبنان مغربة

لا مفاجأة .

عدوان اسرائيلي .

كان ذلك منذ اسبوع ، وقد يتكرر بعد اسبوع ..

ما الفرق ؟

المهم أنه وقع ويقع وسيقع .

هاجمت طائراتهم الحربية طائرة ركاب مدنية ليبية ، اسقطوها ، وذهب ضحيتها عشرات المواطنين العرب الأبرياء ...

وفي شمال لبنان هاجموا مخيمي البداوي ونهر البارد وخلفوا وراءهم كالعادة جنث الأطفال والرجال والنساء المحروقة ، وأنقاض البيوت المملوطة بالدم ...

لا مفاجأة .

فضيحة التخلي عن الدفاع عن الأرض اللبنانية مستمرة كما لو كانت دعوة لاحتلال جنوب لبنان ... وكما حدث يوم الاعتداء على مطار بيروت في ٢٨ كانون أول (ديسمبر) ١٩٦٨ ، وكما يحدث في كل عدوان اسرائيلي يحدث اليوم ... كالعادة ، لم تقم السلطات اللبنانية بأي عمل دفاعي طوال مدة الاعتداء .

لا مفاجأة .

كالعادة ، مع اليوم التالي طلعت أصوات السياسيين محتجة ، ولكن الذين قتلوا قد قتلوا ، والسيادة اللبنانية انتهكت ، والعار هو العار ، وكلها أيام ، ويعود كل الى مصالحه الخاصة ناسياً الحكاية ...

ولكن ، بعيداً عن الدبلوماسية ، فلنقل بصراحة القلب العاري أن مصرع الضحايا يدمي نفوسنا . والأكثر إيلاماً هو أن إذاعة لبنان من بيروت تابعت بث برامجها كأن شيئاً لم يكن ، في حين أن إذاعة (مونت كارلو) نفسها ، أوقفت

بث برامجها الغنائية والترفيهية ، وأعلنت الحداد على ضحايا العدوان في لبنان ،
والحداد على ضحايا الطائرة الليبية ! ! .

أجل !

راديو مونت كارلو يعلن الحداد .

وراديو لبنان يرقص الدبكة ويتغنى بمجد لبنان والتبولة ...

صحيح أن إذاعة لندن استمرت أيام الحرب العالمية في بث برامجها العادية
تقريباً - وذلك من أجل رفع الروح المعنوية للشعب - ولكن الأهم من ذلك كله
أن جيش انكلترا كان يخوض الحرب فعلاً .. ويدافع عن أراضيها فعلاً ...

أما نحن ، فلا نحارب ، ونتستر أيضاً على فضيحة هزأنا ، وتجاهل القتلى الذين
يسقطون فوق أراضينا ، والذين يمثلون طليعة النضال العربي وأمل هذه المنطقة
المتخلفة في أن تستيقظ من سباتها التاريخي ...

فالشهداء يتساقطون على أرضنا ،

والحداد في مونت كارلو ...

الميت عندنا ،

والتعزية في مونت كارلو ...

وإذاعة لبنان مستمرة في رفع الروح المعنوية للشعب ، مستعيضة بذلك عن الحرب !
متى يقطن لبنان في لبنان ؟ ...

ومتى تصير الأراضي اللبنانية جزءاً من لبنان ؟ ..

ومتى تعبر الإذاعة اللبنانية عن البشر الذين من المفروض أنها تنطق باسمهم ؟ ...

لمسة حنان (*)

لمسة حنان ؟

وكيف أمنح هذا الأسبوع « لمسة حنان » ، و « لمسة البارود » تتهدد وجودنا ؟
بالأمس ، زرعو الموت في جذور مطبعتنا . أرادوا ذبح حناجرنا ، واغتيال
أصواتنا قبلها . كنا نأتي الى مكاتبنا بالمجلة كما نذهب الى الصلاة ، عزلاً وبلا
سلاح – إلا سلاح الكلمة – .

واليوم ، حولوا دارنا المسالمة الى ثكنة للدفاع عن الذات ...

لمسة حنان ؟

كيف ؟

ها أنا جالسة الى مكتبي الذي كان من المفروض أن يتطير بي في الجو مع اشلاء

بقية زملائي ..

لمسة حنان ؟

كيف ؟

(ربما في هذه اللحظة تقبع في درجي متفجرة . ينخيل إليّ اني أسمع تكات
ساعتها الموقوتة . لماذا قدر الكاتب في بلادي أن يسمع باستمرار تكات قنابل التهديد
داخل طاولته ؟ ومع ذلك هل نملك إلا أن نستمر ؟) ...

ولكن ، هل يستطيع الارهاب الغاء الأساس الحضاري الأول : الحوار عبر
اللغة ؟ ...

وهل صارت لغة البارود هي لغة الحوار الوحيدة الممكنة بين العرب ؟ .. (واللغة
الوحيدة التي لا نستعملها مع اسرائيل ؟) وصار الحوار المهذب حكراً على تعامل
البعض مع اسرائيل ! ؟ ...

(*) كان اسم (العمود الأسبوعي) الذي أكتبه للمجلة : (لمسة حنان) .

أياً كان ما قلناه ونقوله في هذه المجلة – وقد نكون أحياناً ، أو غالباً، على خطأ ولكن اللغة يرد عليها باللغة ، لأنه لا يقتل الكلمة إلا الكلمة الأصدق ، ولأن الإبادة تستطيع أن تطيح بأجسادنا الممزقة في حقل البرتقال المجاور ، ولكن الكلمة تظل أبداً ...

الذين يواجهون الكلمة بسلاح العنف قد يعرفون « جغرافية » مقرنا ، ولكنهم لا يعرفون « تاريخ العالم » .. التاريخ يؤكد أن الكلمة « كالميدوزا » ، كلما قطعت لها اصبعاً نبت مكانه ألف إصبع ، بأظافر أكثر طولاً وتحدياً .

قبل أن نتحدث نحن العرب عن استراتيجية المعركة والتكنولوجيا والخطوة الموحدة للحرب ، علينا أن نوقف حربنا المستمرة ضد كل مؤسسة فكرية حضارية عربية ، وعلينا أن نتفق على بديهية ساذجة لخصها فولتير بقوله : قد أكون ضد رأيك حتى الموت ، ولكنني أدافع عن حقك في أن تقوله حتى الموت .

هذا الصباح قال لي أحد الجنود الموكل اليهم أمر حراسة المكان ، بعد أن أطلع على بطاقتي الصحفية : ماذا في حقبة يدك ؟
– أوراق وأقلام حبر .

قال لي : دعيني أر أقلامك . هنالك مسدسات بشكل أقلام حبر .
قلت له : يبدو أن بعض الحكام العرب يعتقدون أن أقلام كل المفكرين العرب من هذا النوع ! ...

من أجل حرية الفكر !

لا تدهش إذا ذهبت يوماً ما للاستماع الى محاضرة ، وفوجئت بالمحاضر يدخل إليك وقد ارتدى ثياب الميدان ، نظاراته السميقة تطل من خلف خوذته ، في إحدى يديه نص المحاضرة وفي اليد الأخرى قبلة يدوية وجيوبه محشوة بالسكاكين والمسدسات ..

ولا تدهش إذا استعاضت الجمعيات الثقافية بالخنادق عن المنابر ...
ولا تدهش إذا وجدت أكياساً من الرمل ، (تمرس) خلفها أثناء المحاضرة بدلاً من المقاعد ...

ولا تدهش إذا ارتدى الصحافي الحر كفته ذات مساء ، وودع زوجته وأولاده قائلاً أنه ذاهب الى المكتب لكتابة افتتاحيته ! ..
ولا تدهش إذا تناهى إليك خبر تأجيل محاضرة مفكر ما ، لانشغاله في دورة (الجودو) التي يستعد بها لمحاضرتة ، وتنفيذاً لتوصيات مؤتمر الأدباء العرب بتدريب المفكرين على السلاح الأبيض والأسود !

ولا تدهش إذا قلت لك إنني لا أمزح ! واني أعني كل حرف أقوله .
هذا هو الحل الوحيد المتبقي للمفكر العربي ، ما دامت بعض السلطات العربية حتى (التقدمية) منها ، تتخلف عن تحقيق أبسط مبادئ (تقدميتها) : مبدأ حماية حرية الفكر ! ! ... فالحادث الذي وقع في قطر عربي شقيق ، ومدلوله الخطير ، وتجسيده لمأساة عربية مشتركة متعددة الوجوه ، هذا الحادث لا يترك للمفكر العربي أي خيار ... لا أعتقد أن هنالك من لم يسمع بالحادث المفجع الجديد ، الذي خرج منه الفكر العربي كعادته ، لقيطاً مرمياً على أبواب القمع .

الدكتور نديم البيطار ذهب ليحاضر في قطر عربي بدعوة من جمعية العلوم السياسية كما يحدث في بلاد العالم المتمدن ...

وكما لا يحدث في بلاد العالم المتمدن تلقى الدكتور بيطار قبل موعد محاضراته هواتف تهده بالقتل فيما لو تجرأ على أن يمارس أبسط حقوق الإنسان العربي في ظل أنظمتهم (التقدمية) التي هزل لمجيئها : حرية الفكر والتعبير ..

رئيس الجمعية المضيفة تصرف كأبي مواطن مثقف : لم يفكر باستئجار فرقة من المرتزقة للدفاع عن أمن الحاضرين ، وإنما اتصل بالسلطات الرسمية على اعتبار أن الدولة وجدت أصلاً لهذا الغرض ، ولها الحق في منع المحاضرة أو حمايتها ... ولم تمنع المحاضرة .

وفوجيء الجميع يوم المحاضرة بهجوم فئته من الأفراد تمنع المحاضرة بالقوة وتنفذ تهديدها . ! هجموا بالسكاكين والأحجار والخناجر ، متسترين بذلك الشعار النبيل « الله أكبر » .. (أيتها الآلهة ، كم من الجرائم ارتكبت باسمك) ... وهرب المحاضر وجرح الجمهور !

هذا الحادث في نظري فضيحة عربية مثلثة الوجوه ..

١ - فضيحة على الصعيد الاسلامي :

إن مهاجمة جمهور أعزل بالسكاكين والرصاص ليس من روح الإسلام في شيء . والحكم بالاعدام على إنسان من أجل محاضرة لما يقم بالقائها بعد ظلم إنساني .

أنا لم أقرأ شيئاً للدكتور بيطار ، وهو قد يكون ملحداً أو لا يكون ، قد يكون ماركسياً أو نازياً أو لا يكون . في الحالات كلها أَدافع عن حقه في أن يقول ، بقدر ما أَدافع عن حق الجميع في الرد ...

ولكنني أرفض العنف الجسدي رداً ، بدلاً من مقارعة الحججة بالحجة ، وأرفض أن يكون ذلك باسم الإسلام . إذ ليس من روح الإسلام المجيد ، العمل في الظلام ، وهو الذي جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ... من الظلم والارهاب إلى الحرية والكرامة .. والإسلام معجزته الكلمة ، فهو مع الحوار الفكري ...

وبالتالي كان يمكن أن يتمثل الإسلام في المحاضرة ، فيما لو رافقت صحبته « الله أكبر » أدمغة تحمل الحججة لا السكاكين وتناقش الدكتور بيطار حتى مطلع الفجر ، حتى يسقط فكره صريعاً ، وفي أسوأ الاحتمالات يخرج كل فريق حاملاً قناعاته ويكتشف الجمهور ذاته الحقيقية عبر ذلك الحوار الصحي .

اني أصرخ في وادي أئمة المسلمين ومفكرهم في العالم العربي كله ، أناشدهم

رد الاعتبار الى الفكر العربي الإسلامي وتبرئة الإسلام من هذا التنظيم الإرهابي ومن أي تنظيم ارهابي غوغائي في أي قطر عربي يستهدف تدمير حرية الفكر ..

٢ - ما حدث فضيحة على صعيد موقف الرسميين في نظام تقديمي :

قبل المحاضرة قدّم بعض الذين لا يعرفون عن الإسلام سوى المسايح والعمائم عريضة الى رئيس الحكومة طلبوا فيها منع المحاضرة واحراق كتب نديم البيطار في الساحات العامة ...

إن حريق مكتبة بغداد التي كانت تضم خلاصة الرقي الإسلامي الفكري والعلمي ، على يدي هولاء كان فاتحة عصور انحطاط العرب وسقوطهم في الذل والمسكنة ... والتاريخ الإنساني في كل مكان من العالم يذكر بهلع وخجل مأساة احراق حضارة إنسانية هي الحضارة العربية الإسلامية .

وحتى تهاون للسلطات الرسمية في تأمين الحماية البوليسية للمحاضر المفكر ، يمكن أيضاً أن نبرره على أنه من قبيل عدم التصديق ! عدم تصديق أن أموراً كهذه يمكن أن تحدث في عصرنا ... ويؤكد ذلك عدم منع المحاضرة رسمياً .

ولكن ، لماذا ترحيل المحاضر ؟ ولماذا تعطيل الجريدة التي دافعت عنه وإقالة رئيس تحريرها ؟ لأنه حر وصادق ، هذه محاولة لتدجينه كما يحدث لأي مفكر عربي حر في أي قطر (رجعي) . أن يحدث ذلك بالذات في ظل نظام تقديمي ، يثير مخاوف وحساسيات المثقفين العرب ... وتساؤلاتهم ... ماذا حدث ؟ ...

أن القضية لا تخص هذا القطر الشقيق وحده ، لأن كل مواطن عربي خرج يرقص في الشوارع يوم سقوط الرجعية في ذلك البلد ولأن الثورة العربية في أي قطر تخص كل عربي .. ولأن في انحرافها أو تشوشها ما يمسه مباشرة ، ويهدد بقاءه ...

لماذا لم يُعاقب مثيرو الشغب ؟ من واجب السلطات أن توضح أن الدستور مقدس ، وانتهاك حرمة يعرض الفرد للعقوبة مهما كانت دوافعه وأقنعتة .

ما جدوى سقوط الرجعية في أكثر من قطر إذا كان النظام التقديمي الجديد ، تقديمياً بشعاراته لا بأسلوب عمله أياً كانت أعداره ؟

ما هي القوى الشريرة الخفية التي تدفع ببعض الأنظمة التقدمية الى مهادنة الرجعية الغوغائية ، وحتى مساندة أحياناً ضد الفكر الحر ؟ ... أليس الفكر الحر هو وحده ، الضمانة الصادقة للثورة ؟ .

إن حكومة هذا القطر مطالبة بإعادة ثقة الفرد العربي بأنظمتة التقدمية ، وبجدية شعاراتها على الصعيد الواقعي العملي ضد سماسرة الرجعية المتسرين خلف اقنعة الدين وسواها .

٣ - فضيحة على صعيد المثقفين العرب :

لقد وقّعت ٢١ نقابة مهنية وفكرية في ذلك القطر العربي مذكرة تعلن شجبها واستنكارها لأسلوب العنف والاعتداء على حرية المواطنين واجتماعاتهم ، وحرية الفكرية . وعريضتهم تتعلق بالمبدأ ... بينهم أكثر من مسلم وليس بينهم قريب للدكتور نديم البيطار (الذي تصادف أنه لبناني) ، إذ ليس للفكر وطن .

اني أصرخ في وادي المثقفين العرب على اختلاف هياتهم ومهنتهم ، بما فيهم من رجال دين ودنيا ... كل عربي مدعو لتوقيع هذه المذكرة ، التي تطالب بمعاينة المذنبين وفقاً للقضاء وفي المحاكم المختصة ... وكل عربي مدعو الى دعم الأنظمة التقدمية بشرط أن تمارس تقدميتها ، وتدعم الحرية الفكرية للأطراف كلها ، وتنظم أي حوار في ظل هيبة القانون وسطوته .

عار على المفكر العربي في أي قطر أن يقرأ عن هذا الحادث بينما هو يتناول قهوة الصباح في مقهاه ، ويظل يتشاءب في مقهاه بعد ذلك ، كما لو كان يقرأ عن جريمة نشل في الطرف الثاني من القمر ...

إنها جريمة تخص كل مفكر ... جريمة نشل الفكر من رؤوس المثقفين العرب .
وعلينا جميعاً أن نثور وعلينا أن نحمي الثورات العربية من مواقفها « اللاثورية » ..

٤ - فضيحة على المستوى الأكاديمي اللبناني :

الدكتور نديم البيطار مواطن لبناني ، مثقف الى حد أهله للعمل كأستاذ جامعي في بلاد غربية : كندا ... له موقف فكري ، ومؤلفات (أكرر ، لم أقرأ له) ، لكن مجرد استنارة كتبه لقوى الإرهاب أمر يثبت أنه كفكّر يقف ضدها مباشرة ، أو أن في أفكاره ما يهدد بقاءها ، أو أن أفكاره جديدة فعلاً (أول قائل بكروية الأرض ودورانها في التاريخ كان مصيره كالحلاج : الحرق) .

قد نوافق الدكتور البيطار على مواقفه الفكرية أو لا نوافقه ، ولكننا نظل نكنّ الأعجاب لموقفه الصلب والواضح الذي كان أبداً يميّز رجال الفكر الحقيقيين ..

السؤال : لماذا يعيش دماغ كله اشعاع خارج وطنه لبنان بلد الاشعاع ؟ ...

لماذا يدرّس في جامعات كندا ، بينما يرتفع في مناصب التدريس الجامعي في لبنان أكثر من (فيلسوف) مزبّف ، يستر عمالته خلف تقعره الفلسفي ، ويقوم بمهمة تمبيع الفكر العربي وتشويشه ؟ ...

لبنان « بلد الاشعاع » ، مطالب أيضاً بالانسجام مع شعاره ، ومطالب بإنصاف أي مفكر ذي موقف واضح وحاسم وحمائته ، بدلاً من حماية المرتزقين والعملاء ، في عصر تدفع فيه الملايين لشراء الأدمغة من كافة أنحاء الأرض .
وبعد .

صرخاتي الأربع أحس أنها في واد .. كآلاف الصرخات الأخرى ... فإلى (الجودو) أيها المثقفون العرب .. فليس لديكم ما تخسرونه سوى أقلام محرّم عليكم استعمال الحبر فيها ..

من أنا حتى أكم أفواه الينابيع ، وأخيط شفاه الأطفال؟!

استعيد الآن هذا الجزء المسجّل - في ذاكرتي - من محاضر اجتماع هيئة التحرير . بعد ساعة من النقاش الحار الأشبه بالبوح ، والذي أثّرت خلاله أوجاع امتنا العربية كلها من سياسية واجتماعية وحرّبية ، وامتلاً الجوبرائحة البارود ، بحس الخطر ، بحالة الحرب القائمة في كل ميدان وعلى كل صعيد . وامتلاً كل محرر بالرغبة في القيام بشيء ، بالرغبة في أن تكون موضوعاتنا تجاوباً مع تواتر الأحداث وخطورتها وضرورة اتخاذ خطوة ما ..

سألني فجأة رئيس التحرير : وأنت يا غادة ، حول ماذا سيدور موضوع تحقيقك المقبل ؟

- عن قصائد « الموت واللغة » للأب الشاعر يوسف سعيد .

خيل الي أن هممة خيبة أمل وعتب سرت في الجو .

رئيس تحريرنا تابع : كنت أسألك عن التحقيق ، لا عن نقدك لكتاب .

- سأكتب تحقيقاً انطلاقاً من هذا الكتاب . انه كتاب مهم ، وظاهرة في أدبنا العربي يجب الالتفات اليها .. لا لأن شاعرنا رجل دين ، ولكن لأنني وجدت في الكتاب ما ذكرني بالـ (Metaphysical School) . الحركة الشعرية المهمة جداً في تاريخ الشعر والفكر العربي ...

وقبل أن يحتج أحد ، استرسلت في محاضرة أكاديمية حول تلك المدرسة ، وشعرت بأنني كنت كمن يحاضر عن غاندي والمقاومة السلمية في ملجأ للغارات الجوية ! أو كمن يقرأ فقرات من كتاب « دع القلق وأبدأ حياتك من جديد » لفريق من المجاهدين الذين سيُنفذ بهم حكم الإعدام بعد ساعات ! .. إلا أن حبي للشعر تغلب على كل شيء .. وتابعت : « مدرسة ما وراء الطبيعة » الشعرية تلك هي التي انقذت الشعر الأنكليزي من فترة انحطاط خطيرة ، غرق الشعر خلالها في داء عشق اللفظة

والأعبيها . حتى خلا من كل مضمون فكري أو رؤيا شعرية .. يومها تحول الشعراء من مبدعين الى راصفي كلمات على رقعة « كانفا » .. ثم جاء « دون » ، و « هيريك » و « هربرت » وأتباعهم ، بعضهم من رجال الدين أو من المنشغلين بالقضايا الروحية ، وانقذوا الشعر من هذا المصير المفجع ، إذ أغنوه بمضمون فكري انساني مسيحي الرؤيا للوجود . وشعرنا العربي المعاصر يمر بمرحلة موازية ، ومن الضروري أن لا نهمل الأدب في موجة انغماسنا بالسياسة لأن الأدب يعني الأمة فكراً ، وهو أمر نحن بأمرس الحاجة اليه في هذه الظروف الحرجة .

وقاطعني رئيس تحريرنا في نفاذ صبر هادىء : حسناً .. حسناً .. أكتبي ما تشائين ..

(انتهى المحضر) ...

عدت الى كتيبي وأوراقى ، والى عوالم « دون » و « هيريك » ، والى دنيائي العتيقة وحتى الى شوسر وميلتون .. عشت معها ، ومع أكثر من كتاب نقد غربي حولها ...

وعشت مع كتاب الأب الشاعر يوسف سعيد ، مع « اللغة » التي يحارب « الموت » بها ، وأعوان قتل « إنسانية » الإنسان أثناء حياته ..

بل انني نفضت الغبار عن بعض كتيبي في الصوفية ، عن « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي - أنيس المقدسي » ، وعن « شخصيات قلقة في الإسلام - عبد الرحمن بدوي » ، و « التصوف الإسلامي - الدكتور البير نصري نادر » ، وبدأت أقرأ ، وخبوط أطروحة أدبية تتجمع في ذهني ...

عشت أياماً أقرأ وأفكر في برج من الرؤى : ترى هل هنالك شبه بين مدرسة ما وراء الطبيعة ، وبين الصوفية ؟ هل هنالك تناقض ؟ المقارنة على أية حال تجعلنا دوماً أقدر على الرؤيا ... وأين تقع قصائد الاب يوسف سعيد من ذلك كله ؟ هو يقول : « هذه المجموعة ، تجربة تحاول أن تتجاوز الموت باللغة .. ! تراني وقفت أمام الجدار أم اخترقته ؟ » ..

وأعترف ...

استسلمت لغيبوتي الفكرية الممتعة .. وبدأت في كتابة دراسة أدبية أكاديمية مفصلة حول معركة الأدب ضد الموت على رقعة شطرنج الحياة وبعساكر من حروف ...

لو ...
لو لم أقرأ في صحيفة زميلة مقالاً للاب يوسف سعيد حول ما كتبه عن الدكتور
نديم البيطار ... وفي المقال يأخذ عليّ دفاعي الحار عنه وعن حقه في أن (ينطق
بكفره) ...

أذهلني ذلك ! ...

الشاعر الذي يريد أن يتحدى الموت باللغة ، ينادي بقتل اللغة ! ..
الشاعر الذي يقول :

« من أنا حتى أكمّ أفواه الينابيع وأكمّ أشداق القطط والذئاب ؟ حتى اخيط
شفاه الأطفال في حفلة الشعانين ؟ »

هو نفسه الذي يستنكر في مقاله لماذا « لم يَسْكُتْ نديم البيطار ، ولم يَشُدَّ
خرقة بالية على فمه » ! ! ...

لا .

للشعر أقول لا . للفن أقول لا . للغناء أقول لا . للنقد الأدبي أقول لا .

لا .

لا جدوى من أن يقال أي شيء في مجال الإبداع الأدبي أو حوله قبل أن يتمّ ،
ونهاياً ، التفاهم حول قضية حرية الفكر ، وحمايتها نهائياً بتشريعات الدستور
والمولحة بتطبيق تشريعات الدستور : السلطات التنفيذية .

لا .

لن أكتب نقداً أدبياً ولا بحثاً أكاديمياً شعرياً ، وإلا كنت كمن يكتب مؤلفاً في
فن الطبخ لقبيلة تموت جوعاً ! ..

لا .

قبل أية محاولة تقييم لأي نتاج ، علينا أن نتزعزع الأهم : حرية الانتاج ! ! ..
قبل أن نطبّق أساليب الدراسة الحضارية على نتاجنا الفكري ، علينا أن نعامل
نتاجنا الفكري بأسلوب حضاري ، ونوفر له جواً إنسانياً حضارياً لنموه ، وأول
شروط هذا المناخ هو الحرية الفكرية .

لذا وداعاً يا رحلتي الصوفية عبر قصائد وقصائد ، فقد كنت كمن يريد أن
يتجوّل مصلحياً للوجود بقيثارة ، في حقل لم يكن يدري أنه مزروعٌ بالالغام ...
لذا ، (عودة الى عالم الأرقام) سأناقش على التوالي :

١ - رد الأب يوسف سعيد حيث كان فيه - ربما دون أن يقصد - سجاناً للكلمة .

٢ - قصائده التي احببت ، والتي كان فيها ثائراً من ثوار الكلمة ..

٣ - مدلول ازدواجية الموقف هذه ، - أن يكون ثائر الكلمة سجاناً - ، ومن هو المسؤول الحقيقي عن ذلك ؟ ..
سوء تفاهم أم رفض للتفاهم ؟

يوم كتبت عن نديم البيطار كتبت مدافعة عن المبدأ . عن مبدأ السماح بحرية التعبير وضمائنها لكل فرد وأنا لا أدافع عن مبادئه ، وإنما أدافع عن حقه في أن يقول ، بقدر ما أدافع عن حق الجميع في الرد .

الأب يوسف سعيد يطالبنا بأمر آخر ، يطالبنا (زميل لي دافع عن البيطار ، وأنا) بأن نطلع على آراء البيطار وناقشها ثم نحكم لها أو عليها ... هذه روح مقاله ... انه يأخذ علينا دافعنا عن « ملحد » ، ونحن لم ندافع عن « ملحد » وإنما دافعنا عن حق مواطن في أن يقول .. لقد وقفنا ضد الإلحاد بحرية الفكر في وطننا العربي ، ضد الإلحاد بالإنسان . تساءلنا عن ماهية (الحقيقة) وبالتالي مفهوم (الإلحاد) .

والأب الكريم يقول في مقاله « أقول الحق لكم ، اننا يجب ، قبل الكتابة أن نقرأ وناقش ونحلم ثم نكتب ، وإلا كان العطاء عندنا ناقصاً مشلولاً ، فاتراً ، يحتاج الى ملح يغذي أطعمة الفكر » ... تلك هي النقطة الأولى التي أثارها .

وأنا لا أجد في كلامنا ما يتنافى مع كلامه . نحن دافعنا عن المبدأ ، دافعنا عن حرية أن نقرأ ، وأن نناقش وأن نكتب ، لأن هذه الحرية مفقودة ، ودافعنا عن ذلك عبر حادثة واقعية : قصة الدكتور البيطار ...

ولا أجد في رده علينا أي رد ، وإنما مجرد تطوير لما طالبنا به ، وتوسع حول إحدى النقاط ، فهو يتحدث عن « الملح » الذي يجب أن يغذي أطعمة الفكر ، ونحن تحدثنا عن الأهم : عن المجاعة الفكرية التي تهددنا حينما نهدد حرية الفكر . نحن تحدثنا عن خبز الحياة الفكرية ، وهو يتحدث عن مقدار الملح فيه ، وأنا أوافق على كل ما قاله دون أن أجد فيه حرفاً واحداً يتناقض وما قلته أنا ، أو زميلي . ببساطة ، الأب يوسف سعيد يسألنا : لماذا لم نقرأ ؟

ونرد : اننا ندافع عن حقنا في ان نقرأ ... وكى نقرأ (وتلك رغبتنا ورغبتك) ،
ندافع عن حق سوانا في أن يكتب وأن يقول ... ثم كيف نقرأ لنديم البيطار مثلاً أو
سواه وناقشه اذا لم يُسمح له بأن يقول ، ولم يسمح بنشر ما يقول ؟ ..

أليس ما ندافع عنه هو الشرط الأساسي لتحقيق مطلب الاب الفاضل ؟

إذن فالقضية حتى هنا لا تتجاوز سوء التفاهم بيننا وبين الاب يوسف سعيد الذي
يثيره دفاعنا عن المبدأ ، مبدأ حرية الرأي . وبدا من كلامه انه أكثر اطلاعاً منا على
اسرار القضية ، وكتابات من يسميه بـ (النديم) ، وفي هذه الحالة ، لماذا تفرغ للهجوم على
مواقفنا الحالية من الاطلاع بدلاً من ان يتابع دراسة ما سهونا عنه ، فيقرأ هو ويجادل
ويناقش ؟ اذا كان يجد في (تعليقنا) موقفاً اعتبارياً ، فلماذا اكتفى بكتابة مجرد تعليق
على تعليق ؟! ولماذا لم يكن منسجماً مع ذاته ، ومع مطالبته لنا بمناقشة عميقة « بعمق
الفضاء والبحار والاعوار » ، فسمح لنفسه بأن يقول « المدينة التي طردت النديم برهنت
انها تقرأ » دون أن يقول لماذا برهنت ؟ !

وكيف يؤيد هدر دم نديم البيطار فكرياً ... دون أن يناقش (وينورنا) ما دام قد
قرأ واطلع (باعترافه) ! ؟ أليست مهزلة ان يمارس في نقده كل خلق أدبي نهي عنه ؟ ...
ثم ، عبر أي منطق يتبنى تسمية نديم البيطار ملحداً ؟ ملحد ؟ بماذا ؟ حتى الآن ، وحتى
يناقش الاب سعيد ويسد النقص في ما خطه زميلي وأنا ، نظل نقول ان النديم ملحد في
نظره ، وفي نظر الفئة التي هاجمته بالسكاكين والرصاص فقط ... (وربما في
نظرنا أيضاً لو قرأنا له ، وسنفعل)

هنالك أمر آخر يستحق أيضاً ان يناقش بعمق « الفضاء والبحار والاعوار » وهو :
هل لأية سلطة دنيوية أو دينية أو فكرية حق خنق صوت مفكر ما بتهمة الالحاد لانه
لا يتفق معها ، وبحجة ان الأفضلية لها لانها (تمثل الحقيقة) وبالتالي تنطق باسمها ؟
ثم ، ان تمثل – سلطات دينية أو دنيوية – الحقيقة في مختلف اصقاع الارض وعلى مر
التاريخ أو ترمز لها ، هل يعني ذلك أنها (تكونها وتصيرها) ؟

بمزيد من الوضوح ، واحتراماً مني للحساسيات الدينية ، أترك الكلام للكاردينال
فرانز كوينغ الذي قال في لينداو بالمانيا الغريبة :

« ان الكنيسة الكاثوليكية تعيد النظر الآن في حكمها على العالم الايطالي غاليليو
الذي عاش في القرن السابع عشر » .

وقال انه « قد تقام لجنة خاصة لاعادة محاكمة غاليليو الذي عاش بين سنة ١٥٦٤

وسنة ١٦٤٢ والذي ادانته الكنيسة بتهمة الهرطقة لانه أكد ان الشمس، لا الارض، هي مركز الكون . وأجبر غاليليو على انكار ذلك علناً تحت التهديد بالحرمان الكنسي».

وقال « ان البابا أبلغ عن جميع الخطوات التي تتخذ . »

طبعاً ، ليس المقصود بهذا الموقف ابلاغ شهادة البراءة إلى حارس مقبرة غاليليو . أو شبهه ، أو الصاق التبليغ على رخام مقبرته .. المقصود هو تبرئة فكر من تهمة اضطهاد فكر آخر لمجرد انه لا يتفق معه بالرأي، وفي ذلك تأكيد ديني رسمي لحقيقة فلسفية فكرية ، هي الحقيقة الوحيدة الاكيدة : « اضطهاد الفكر تحت أي شعار هو العدو الاول للحقيقة » ...

وبالتالي ، فان المفكر الحقيقي من ديني وديوي يستنكر احتكار حق حرية الرأي لفئة دون اخرى ، مهما كان تبرير ذلك ، وتحت أي شعار .

تستطيع اختراق الجدار ، ولكن ...

والآن ، إلى القصائد التي أحببت ... أراها بالحلب نفسه : لانني لا أعسرف « الغضب الاسود » ، ولأن غضبي لحرية الكلمة هو من بعض حيي للكلمة ، وحرصني على ان لا تُجهض . واذا كنت آسفة لشيء ، فلأننا نصطدم دوماً بالحاجة إلى الدفاع عن البديهيّات الانسانية (الحرية الفكرية) وإبطال الالغام المزروعة في أرضها ، بحسن نية أو بسوء نية ، بدلاً من تفرغنا للانصات إلى فنان « يجلبب بالقصائد والاغاني رأس غليونه » ...

اصطدم الشاعر الأب بالموت عبر موت جزء منه في موت صديق له غال ، هو المرحوم رثيف خوري، جعله يعيش « في جوف دوامة اربعين يوماً ، واربعين ليلة أكتب ما يعصره المجهول علي .. وولدت هذه المجموعة ... تجربة تحاول أن تتجاوز الموت باللغة .. ! تراني وقفت امام الجدار أم اخترقته ؟ » .. انه ليس كاهناً اكتفى بتلاوة ادعيته ، إنه شاعر يخلق لغته الخاصة ، وعبر القصائد ، مع الشاعر الفنان وحساسيته المرهفة . نحوم فوق الجدار تارة كالفراش حول المصباح برفق انتحاري، وندقّ الجدار بأظافرنا تارة اخرى ، نخرج اضلاعنا بوحشية ضلعاً ضلعاً نحاول ان نفتح فجوة في صمته الصخري البلوري ... معه تمرد ولسنوي ونحتج ونستسلم في انشودة لها زخم صلاة مساجين جرحى منطلقة عبر كوة السجن ..

المذهل ، روح التمرد في كلماته ، ذلك التمرد الفكري الذي يمزقه :
« أحب ان اسأل .

لان الجواب في جنازة الصمت .

لا سؤال عندي .

لان الجواب اعرج ... »

وكيف يتابع ، وكيف يتمرد وقد :

« حبسني الملاك في اعماقي .

متى اتحرر من الحضيض ؟ »

ويتساءل من جديد :

« أتبقى اللغة في صلابه الأشياء ؟ »

ولكن في لغة شاعرنا صلابه مشحونه بالايحاءات ... فيها صلابه الحلم حينما
تمتزع الاسطورة بالحقيقة .. وفيها غنى من توابل المعرفة الانسانية التي يغتني بها رجال
الدين عادة عبر دراساتهم الروحية ويحوّنها شعراؤهم إلى زخم انساني عتيق يضيء
كزيت أول زيتونة بوركنت في التاريخ ...

ويتم ذلك أيضاً عبر اشارات كثيرة ، ومزيج من أساطير توراتية وانجيلية واغريقية
وعربية (برثلماوس – آجيا صوفيا – قلة دليلة – شمشون – المزمور الواحد والخمسون
– قصعة هيرودس – كفرناحوم – العتبه الهابلية – دخان سادوم...) ... نجد ذلك
في كثير من روائع الشعر الغربي القديم ، في ملتون وشوسر وحتى لدى شكسبير ،
ونجد هناك عادة هوامش تشرحها وتشير إلى اصلها ، الامر الذي لم يمنحه شاعرنا
لقارته (حسن ظن مبالغ فيه بمعلومات قارته وناقده) ...

في قصيدته « التحرر » حس عميق ومباشر بمأساة الانسان المعاصر ، اذ يصرخ :

« لمن تسرق الدواة ، والرفش ، وسوار أمي ؟ !

يا ضمير العالم .

فجر فقايق امريكا .

تحت قميص الشمس . »

وهناك ذلك الحب الكبير للحرية ... وتوق إلى فردوسها :

« عشيرتي تبكي .

لان العبيد يلحسون قدور الحرية .

يلعقون دسم الزيت من ملعقة
لقيصر ، لفرعون ، لارملة المليك .

هل في افريقيا فردوس ؟ »

شاعر التحرر والحرية ، وكاهنها ، كيف استطاع أن يكون سجّانها ؟ أن يكتب
كلمة نقد يمكن ان تكون قضيباً لقفصها ، وهو الذي استل من صدره ضلعاً ليحفر
جدار الموت بحثاً عن الحقيقة ؟ ... لماذا يريد « تقليص إنسانية » نديم البيطار ولكنه
يقف ضد « تقليص انسانيته » هو ؟

الثائر السجان ..

لاني وجدت في قصائد الشاعر يوسف سعيد كثيراً من التقديس للفكر الحر ،
« لولا اللغة لانحبس المطر » ، ومعاناة للحظات الوعي الموجه « مشيئة اللفظ محمولة »
ذلك كله جعلني اتساءل : أحقاً أن هنالك « سوء تفاهم » بيننا وبينه ؟ تراه لم يفرّق
بين دفاعنا عن المبدأ الذي تمثله حادثة نديم البيطار وبين دفاع قد يكون عن آراء نديم
البيطار ؟ ..

هل هو سوء فهم أم تعمد اساءة فهمنا ، كي لا يقول أكثر ؟ ... وتراه لا يريد
أن يقول أكثر لانه لا يريد ان يفكر أكثر ؟ ...

لماذا حكم علي وعلى زميلي بجرم « الاحاد » وهو يعرف جيداً اننا لم نرتكبه بعد
أو على الاقل لم نقرر بارتكابه ؟ .. تراه يجد في اختراق الجدار لإحاداً ؟ .. انه كشاعر
يستطيع اختراق الجدار لو اراد . تراه يخشى ذلك بقدر ما يريد ؟ تراه لذلك يصرخ
« يارب ، حاشا ان ألس هدب الموت » ... تراه يخشى لعنة بروميثيوس ؟ وهل هو
كالقاضي الذي يحكم على الابرياء من اجل جرم يخشى هو أن يرتكبه ؟ ولماذا
يدكّرني بقصة الكاهن الذي وقف يعظ أهل المدينة بجملة ساعا ضد ارتكاب
خطيئة مميتة ، ثم تسلل إلى الغابة ليرتكبها بنفسه ؟ . لا ادري ..

كل ما أدريه انني احببته كشاعر ، ومن أجل حيي لكلماته « المضيئة ، المعتمة ،
المميتة » أفجر غضبي لها لا عليه ، غضباً كقطر الحريف ، حزين وشرس ومحب ...
صديق ، همس في أذني : الاب يوسف سعيد ولد في القطر الذي طرد نديم
البيطار وأصله هناك قبل مجيئه إلى لبنان يوم هرب ذات زمن من اضطهاد فكري تعرض
له .

قد يكون في ذلك ما يفسر الكثير دون ان يُسوَّغَهُ ...
إن حرب شاعرنا ضد القوى التي اضطهدت فكره يجب الا تتحول إلى حرب
ضد أي فكر غير فكره . أقول : الخطيئة لا تحارب بالخطيئة ... اعرف ان الذي
(يأكل العصي) ليس كالذي يحصيها .. ولكن الشاعر ، كاهن الوجود ، مطالب
بالغفران كما غفر المسيح لصالبيه ، وكما غفر محمد لراجميه ، وكما يسمو اصحاب
الرسالات فوق الاحقاد .

وبعد ، سيدي الاب الشاعر: ادافع حتى الموت عن حقلك في تقدي لانني ادافع
حتى الموت عن حقي في ان اقول ، وان يقول نديم البيطار، وان يقول غاليليو، وان
يقول الانبياء والاطفال ... واردد معك :

« من أنا حتى أكمّ افواه النبابع؟
وأكمّ اشدق القطط والذئاب؟
حتى أحيط شفاه الاطفال
في حفلة الشعانين ؟ ... »

دفاعاً عن حرية الفكر لا عنه !

كان ذلك البريق الطفولي الضاحك الذي لم ينطفئ في عينيه منذ عرفته — منذ اعوام بعيدة — يشتعل ، وضحكته تملأ وجهه المتوقد ، حتى ظننته سيروي لي آخر نكتة سمعها ، وتحفزت للضحك . كنت حزينة حتى الضحك . أبحث عن مبرر لأضحك ، لكنه اخرج من جيبه صورة وقال كأن الأمر لا يعنيه : هذه آخر صورة التقطت لي خلسة .. انها في سجن (....) ! ! ..

وأمسكت بالصورة ثم استحلت إلى تمثال متحجر في يده صورة تصرخ وتترف . ثم انفجرت أضحك وأضحك كما لم أبك منذ أعوام .. كان من الصعب أن أصدق ما تراه عيناى ... قاتل ؟ لا . مهرب كوكائين ؟ لا . لكن الشعر مجزوز حتى جلد الرأس (وربما حتى العظم ، حتى النخاع . يا موسى السلطة ، يا مقصلة الحرية ، ارققي برؤوس الذين يتعاطون التفكير بحرية — وما أندره في بلادي —) .. أجل الشعر مجزوز والجسد النحيل الداوي تلفه ثياب السجن .. والسجين أديب من بلدي . مد بقية رفاق جلسة المقهى أيديهم ليراوا الصورة — النكتة . كان أحدهم يتثاب ، وكانت تمطر دماً في حلقي لذا أخفيت الصورة عن الجميع ، ولحسن حظي دخلت فتاة جميلة إلى المقهى فنسي الجميع حكاية « الصورة — العار » .. وقلت له بإصرار : هل تعرف معنى هذه الصورة ؟؟ .. كيف تسمح لإنسان برؤيتها ؟ ..

واحسستني اخفي « الصورة — المأساة » واتوسل إلى صاحبها أن لا يسمح لأحد برؤيتها كما يتكتم أفراد الاسرة الواحدة على عار مشترك ... خجلت من ان يرى أي انسان عربي هذه الوثيقة المهزلة لرجل أدخل السجن شهوراً من أجل « كتاب » ثم أفرج عنه بصمت ايضاً ودون محاكمة ودون تبرير ...

أهل مدينة الجذام

مثل هذه الامور (الدقيقة) تعودنا ان نتحاشى الحديث عنها ...

مثل هذه المهازل والمآسي تعودنا ان نمر بها دون ان نتدخل « نمشي من الحائط إلى الحائط ونقول يا ربّي السترة » . تعودنا ان نرى الناس يزجون في السجون فنصلي في أظلم ركن من بيتنا شاكرين قوة ما لأن السجين هو جارنا وليس نحن (حوالينا ولا علينا) . هذه الصورة الرهيبة ظلت مدموغة على شبكية عيني وشماً من جمر ، ليس لان صاحبها أديب أعرفه ، يحزني ان يسجن ، ولكن لأنني مواطنة أحسست أن السلطة التي تحكم باسمي وباسم باقي الشعب قد استخفّت بي ..

لم يمزقني أن يسجن هذا الكاتب بقدر ما مزقني أن يُطلق سراحه بلا محاكمة وبعد سجن شهور !! ..

أن يُحاكم : وأن تثبت إدانته أمر يمكن أن يحدث لأي مواطن في أية دولة .. أما أن يملأوا صدره بالنياشين باسم الشعب أي باسمنا ثم ينزعوها ويسجن عدة أشهر أيضاً باسم الشعب (أي باسمنا) ثم تفرج عنه السلطة باسم الشعب أيضاً دون أن تحس السلطة بالمسؤولية ، أمام ذلك الشعب ... بواجبها في اعطاء تفسير على الاقل أو إصدار بيان فذلك يدين تلك (السلطة) ... لم يفجني أن يدان أو لا يدان بقدر ما فجني ان في تلك الحادثة – التي تصادف انه بعطلها – ما يدين (السلطة الثورية) التي قامت ثورة من اجل الحرية وها هي تقدم أكثر من دليل على استخفافها بنا ، وتدمغ مقصالتها التي نصبتها باسم الحرية ، بدم رأس الحرية ! ! ..

في بلدان العالم غير المتخلف حيث الإنسان ، أي إنسان – حتى المجرم صاحب السوابق – قضية . في تلك البلدان يحق للفرد أن يُقاضي السلطة اذا تم توقيفه أو سجنه على ذمة التحقيق ثم تثبت براءته ... ويحق له المطالبة بمحاكمة عادلة حتى ولو كان قاتلاً .

عندنا . لا يملك الانسان حتى حق الطلب بتقديمه إلى المحاكمة !! ... كافكا حينما كتب « المحاكمة » وروى « مأساة الانسان المحكوم بلا جريمة » على انها ذروة المأساة الوجودية ، لم يدر بخلده أن هنالك نمطاً من الظلم أشد هولاً ، يدور في بعض اقطارنا العربية دون أن يعيره أحد ما يستحقه من التفات ، ألا وهو حجز حرية انسان وسجنه وادانته سلفاً بتهمة لا يعرفها ولا يُبلّغ عنها ولا يقدم إلى المحاكمة بسببها مهما توسل لأجل ذلك !! ... كافكا تحدث عن مأساة رجل حوكم ثم أخذه الجلاّد إلى المقصلة ليموت « ميتة كلب » لجريمة لم يرتكبها على أنها ذروة المأساة الانسانية ... لم يدر بخلده دائي حينما وصف الجحيم في الكوميديا الإلهية ان يتحدث عن أشد أنواع الازلال التي يمكن ان يتعرض انسان له : ان يسجن دون أن يحاكم . ان يموت

أكثر من مرة كلما أُطلق الرصاص ذات فجر بارد في فناء السجن على رجل ما ..
وأن يُحرم من حقه حتى في الادانة !! ..
وأخفيت الصورة، دفتها في أحد المعاجم كي أضمن عدم التقائي بها ولو مُصادفة..
وقررت أن أنسى الصورة العار ، وأصمت ، كما اعتدنا ان نفعل جميعاً .. ذلك
الصمت الحزين الشاحب اللامبالي ، صمت أهل مدينة اجتاحتها الجذام والطاعون حتى لم
يعد يستوقف عابري السبيل مشهد انسان تتساقط اعضاءه أو يحتضر على الرصيف عند
موقف الباص متشنجاً مصلوباً على أحد أعمدة الكهرباء .. حتى المصباح الشاحب لم
يعد يرتجف نوره ! ..
ومرّت الايام .. وأنا أسوّر مشاعري بما توأطأنا عليه ضمناً : « تلك أشياء لا تقال »
اصمتي يا بنت .. ولكنني فشلت .
الأشياء التي لا تقال « لا مفر من أن تقال » !

جريمة أن تفكر علناً !

هنالك مأساة فكرية طالما تهربت أكثر السلطات العربية (من رجعية وثورية على السواء) من مناقشتها رسمياً ، وصار مفهوماً لدى الجميع انه من الافضل للاطراف المعنية (من ادباء وصحافيين) تجنب طرح القضية التالية :
من حيث المبدأ ، هل يحق لأية سلطة حاكمة ان تضطهد مفكراً ما لمجرد ان افكاره لا تنسجم - أو لا تتطابق - وشعاراتها ؟ ...
وإلى أي مدى يحق للسلطة ذلك ؟

هذا السؤال لم تبق أمة لم تطرحه ، ولم يمر عصر دون أن يسقط الكثر ضحية له . وقد استطاعت الشعوب الأقل تخلفاً ان تتجاوز المأساة - نسبياً - ... وغاليليو الذي آتهم بالهرطقة منذ قرون ، لانه أصر على أن الارض هي التي تدور حول الشمس ، وليست محور الكون ، غاليليو هذا قد برآته الكنيسة في العام الماضي ! ... أما في بلادي ، فما نزال نعيش بعقلية القاضي الوزير ابن الزيات في العصر العباسي الغابر . فقد أقنع هذا القاضي الخليفة ببناء قفص فرن ليشوي فيه خصومه (الفكرين) أحياء ! وجاءت الردة أو لنقل (بلغة عصرنا) وقع (انقلاب) اطاح بسطان ابن الزيات وجاء إلى الحكم بنخصمه اللود القاضي أحمد بن أبي دؤاد .. وانتقم ابن ابي دؤاد من خصمه ، وبلاسلوب ذاته .. وتم شوي ابن الزيات في القرن حتى الموت (القرن الذي كان قد افق بينائه لحرق خصومه) ...
عصور وعصور ... وكل خصومة فكرية في بلادي ما تزال تحمل على طريقة ابن الزيات وابن ابي دؤاد ...

تلك هي مأساة الفكر العربي التي عجزت حتى بعض أقطارنا (الثورية) عن نخطيتها...
المطلوب ايحاف مأساة ابن الزيات وابن ابي دؤاد وافران الفكر في بلادي .
وحتى النهاية ، أظل أردد قول فولتير الرائع : « انني لا اوافقك على كلمة مما تقوله ، لكنني ادافع حتى آخر قطرة من دمي عن حقك في أن تقوله » ...

الحرية ! الحرية !

« ان المواعظ لا تقنع أبداً...وان ندى الليل البليل، ليغوص أعمق منها في نفسي ،
والآن أفحص ثانياً الفلسفات والاديان ، وهذه قد تبرهن على وجودها ، في قاعة
المحاضرات ... ولكنها لا تبرهن ذلك على الاطلاق، تحت الغيوم الرهيبة الفسيحة » .
و. ويتمان

وفي ليل هذه المرحلة من تاريخنا العربي – ربما أكثر من أي وقت مضى – ،
يجد الفرد نفسه مرغماً على « اعادة النظر في الفلسفات والاديان » ومنطلقاته كلها ،
وحتى البسطاء « لم تعد المواعظ تقنعهم » ، واذا كان « ندى الليل البليل » و « الغيوم
الرحبية الفسيحة » قد دفعا بالشاعر ويتمان إلى لحظة « اعادة نظر » صوفية ، فان واقعاً
اليماً معاشاً هو ما يلزم مئة مليون عربي لإعادة النظر ، مئة مليون ليسوا مفروشين تحت
« تلك الغيوم الرحيبة الفسيحة » فحسب ، بل وتحت سقوف سجونهم أو في معتقلات
الاحتلال ، أو في ظل انظمة تقنعهم أو لم تعد تقنعهم ، ويجمع بين ذكيتهم وساذجهم ،
ثوريهم ورجعيهم احساس عام مسترسل بأن الارض تحت اقدامهم جميعاً لم تعد صلبة ،
وبأن صحراء من الرمال المتحركة قد امتدت فجأة من المحيط إلى الخليج ، وان رملها
المتحرك بدأ يتلعب كل شيء ، يغوص فيها السجان والسجين على السواء ... القاتل
والمقتول ..

قاييل وهابيل

فماذا حدث ؟؟ ... وكيف ضاعت المراقيء والمنارات والاورتاد ، وعمّ ذلك
الحس العام بالفجيعة المذهولة ، بالحماس المشتت ، بالقلق . الحيرة . الحوف .
الحذر ؟ .. بالحاجة إلى التبدل . إلى صرخة « لا » أمام سقوط جماعي في صحراء
الامل المتحرك التي انفتحت تحت قدميه منذ فقد يقينه بكل شيء ؟ .. زلزال ؟ أم
سلة زلازل ؟ البركان الاخير ، « تهديد اسرائيل » لخبزه وبينه بغزو مسلح قد لا

يقوى على رده ؟ صفارة الانذار ، النكسة الاخيرة ؟ .. تصاعد وتراكم عوامل
متشابكة لا تحصى ؟

« لا » أولاً وآخرأ

كلٌ يصرخ « لا » وعلى طريقته . وضمن حدود امكاناته الفكرية وغير الفكرية .
جيلنا الطالع يصرخ « لا » بسليته وبايجابيته . طلابه يقذفون « لا » حجارةً على (زي)
رجل الشرطة الذي يمثل لهم (المنطق الرسمي) في التصدي للامور ، منطق (الكبار) ..
العامل يزداد احتضاناً لكتابه (الاحمر) ، الموظف لزجاجة خمرة الرديء ونعاسه .
سرحان الفلسطيني يفجر « لا » رصاصةً في الرأس « الاميركي البشع » مثلاً له في
كنيدي .

وحتى « المؤمن » الذي كان يحتم صلاته بالدعاء للسلطان أيا كان بالنصر . وينيبه
بأن يصرخ « لا » عنه (ما دام يحمل اوراق اعتماده من السلطات الالهية والذي علمه
من « أعقلها وتوكل » ان يتوكل فقط !) ، حتى هذا الرجل الذي كان زيادة في
الاحتياط يكتب على باب بيته المجاور للمسجد الاقصى في القدس أو الجامع الاموي
بدمشق « الملك لله » لم يعد بوسعه ان يكتب على باب خيمته « الملك لله » ...

لقد تكسرت الدروع القديمة التي كان الفرد العربي يستر بها (عورات) تحاذله
وسليته ، وحتى الدروع (الجديدة) التي قاتل ليرتديها ، بل وليرغم سواه على
ارتدائها ، لم تؤت أكلها ... حتى هذه الدروع ، (لخطأ ما) في طريقة صنعها أو
طريقة ارتدائها واستعمالها قد انقلب سحرها .

أين صوت الأديب ؟

وفي مثل هذه المرحلة بالذات حينما يصبح الخبز مرأ ، والبندقية تصيب مطلقها
بدل الهدف ، تصبح الحاجة إلى « الكلمة الحرة الصادقة » امرأ أهم من الخبز والبندقية ،
لأن الأديب وحده قادر على ان يفسر حقيقة « اللعنة » ، ولأن مفكري الامة قد يكونون
مقعديها ، لكنهم مبصروها (بمعنى البصيرة) ، ولذا فانه من الضروري ان لا يتخلى
الثوار المشاة المنفذون الاشداء ، عن مفكريهم المقعدين ، انما المبصرون ، (حتى
ولو كانت الحججة هي استبدالهم برغيف أو بندقية) ..
فالتاريخ العربي لم يثبت شيئاً بقدر ما اثبتت احداثه المتعاقبة منذ قرون حتى اليوم

ان حاجة الفرد إلى اديب هي اهم من حاجته إلى الخبز المر وبنديقية فاسدة السلاح ، وان « ساحر القرية » العتيق ليس الا صورة رمزية بدائية « للأديب » ، الذي يشخص « اللعنة » و « العلاج » للخبز والبنديقية .

وبعد ، الأديب الحر هو بوصلة الحاكم لأنه حنجرة المحكوم . . . والحيلولة بينه وبين حرите أمر يلغيه ، ويلغى أهمية شهادته وصوته ، وإذا كتتمت الدولة هذا الصوت فلن يعود عليها إلا بالחסارة ، وهي هنا كالذي يضع عصابة على عينيه برضاه كي لا يرى وانه (لا يخشى هذه الحرية إلا واحد ، هو غير الحكيم . وبعد الحاكم عن الحكمة انما يُقاس ببعده عن حب حرية الرأي - نجيب محفوظ) .

عاقبوه بقسوة ، ولكن بعد محاكمة علنية عادلة

في بلادي ، في بلاد البسطاء ، تقول أمثالنا فيما تقول « نحن مع الواقف »
و « من يتزوج أمي يصير عمي » ، وتصفق أيدينا لمن في يده السلطة ، ثم تحمل الخناجر
ملتفة حوله متى سقط ..

وهكذا ليس للحاكم عدو ..

وليس للخارج من الحكم صديق ..

وهكذا وكاتب زميل في السجن ، لم يعلُ صوت من أصوات أصحابه أو أعدائه
ليقول كلمة واحدة من أجل حرية الفكر لا من أجله ، والذين لم يسألوا سكاكينهم
اكتفوا بالصمت .

لا حياً مني بشخص السجين أكتب الآن عنه ، وإنما ككاتبة عربية قرأت ذات
يوم له وقدّرت له مؤلفاته الموضوعية والمترجمة التي أغنى بها المكتبة العربية .
ذلك كله ، يجعل من التهم التي توجه إليه أمراً خطيراً لا يغتفر - لو صحت -
ويدفعنا بالتالي إلى المطالبة :

- ١ - بمعاملته معاملة انسانية كريمة في السجن ، فكل متهم بريء حتى تثبت ادانته .
- ٢ - بمحاكمته محاكمة عادلة وعلناً لأن أي تدخل لصالحه أو ضده من أجل طمس
قضيته أو طمس حياته ، سيدين نهائياً (وفي عيون كل مثقف عربي) السلطات الحاكمة ؛
ويجعل من شائعات الشراكة في (دفن الشيخ زنكي) حقيقة مؤكدة من طرف واحد ؛
هو الطرف المتكّم والذي بيده الاختيار : السلطة ..
- ٣ - هذه فرصة ترد فيها السلطات لمواطنيها ثقتهم بعدالتها وحيادها . وباحترامها
للفكر وحرية الكلمة وللمواطن : لحقّه في المعاملة الانسانية والدفاع عن نفسه ، بقدر
حقها في صرامة العقاب بعد إدانته .

همسات سرية ، لأجل حرية للفكر علنية !

كان كل شيء يدور كما هو مرسوم له .. الممثلون على المسرح يتابعون أدوارهم . المتفرجون فوق مقاعدهم في الصالة . وزجاجات المرطبات الفارغة تحتها .. ثم فجأة ، اضطرب كل شيء .. انتقلت الزجاجات الفارغة والمقاعد إلى خشبة المسرح قذائف موجهة . وهرب الممثلون إلى ما وراء الكواليس ، وعلا الصراخ ، وهرع مدير المسرح إلى مكبرات الصوت يناشد المتفرجين الناقمين ان يغادروا القاعة ليستمر العرض .

لم يقع هذا الحادث على مسرح من مسارحنا كما قد يتبادر إلى الاذهان ، وانما كان من نصيب مسرح - الاوديون - في فرنسا ، اثناء تقديم مسرحية جان جانيه « الرداء » .. والمسرحية تدين فرنسا في حربها مع الجزائر وتسخر منها .. مثل هذا الحادث لا يمكن ان يقع أبداً في أي بلد عربي ، لا لوعي المتفرجين - طبعاً - ولكن لأن أكثر السلطات لا يمكن ان تسمح بطبع أو تمثيل مسرحية أو قصة قد تحمل تعريضاً مباشراً أو غير مباشر بها أو بسياستها . انها حقيقة لا مفر من الاعتراف بها - كخطوة اولى - قبل مناقشة مدى ضرورتها أو شرعيتها ... الكاتب العربي ليس حراً في أكثر الاقطار العربية ..

إذا تجاوزنا الضغوط الاجتماعية والتاريخية وضغوط بيئته ورواسبه الذاتية ، نجد انه يتعرض أيضاً إلى ضغط واضح مباشر ، هو ضغط السلطات الحاكمة ... ففي أكثر من بلد . تتعرض الكتب أو المقالات التي جرؤ أصحابها على تسطيرها ، إلى المصادرة أو القصد أو المنع من دخول مكان أو آخر (هذا في حال السماح بنشرها) ... وللسلطات أيضاً اعدارها التي تقدمها ، منها أن الكاتب عميل - وقد يكون ذلك صحيحاً احياناً - أو ان كتاباته تسيء - من وجهة نظر الحاكم - إلى افكار الناس .. وقد ألفنا ذلك في بلادنا حتى كدنا نعتبره جزءاً من مسلماتنا التي لا تناقش ..

ومع ذلك ، فالنقاد يشكون من الكتب الجنسية التي تُغرق السوق .. والقراء يشكون من تفاهة الكتاب .. والمثقفون يشكون من ضحالة ما ينشر وافتقار أدبنا العربي إلى الادب الساخر ، والعلمي الخرافي ، والحلاق الجديد .

كلهم يشكون من الكاتب ...

ولكن الكاتب عاجز عن تقديم أهم بند في الدفاع عن نفسه : هو انه محكوم عليه بالتفاهة اذا كان يريد ان يعيش غير مطارد من قطر عربي ما .. وأنه محكوم عليه بان لا يطرق الموضوعات المصيرية بصدق وتجرد ما دام عاجزاً عن استئصال معدته فيما لو جاع ... وما دام مضطراً أولاً أو آخراً إلى الرضى ببيع قلمه الذي كان حراً إلى سلطات اخرى تستضيفه وتحميه ، وربما كان يحمل لها كثيراً من (اللااحترام) ، وربما كانت له عليها نفس مآخذه على السلطات الأخرى التي تجرأ وهاجمها ...

شيء واحد تمنيت أن أقرأه في بيان وزاري يصدر في بلد عربي .. إنه اطلاق حرية الفكر والسماح للمثقفين بالكتابة في الموضوعات المصيرية، بل استفناؤهم والاهتمام بآرائهم ..

فقد ضارت التفاهة (الشيك) الوحيد الذي يمكن صرفه في أي مكان .. وصارت السطحية واللامبالاة بالاحداث تأشيرة الدخول الوحيدة إلى عالم الطمأنينة الاجتماعية والسياسية ..

وعذر السلطات الدائم في (توجيهها) للفكر هو عدم نضج الشعب العربي بعد وخوفها من (غوغائيته) ... انهم في بلادنا يمنعون الفكر باسم الغوغائية .. وهم هناك يمنعون الغوغائية لحماية الفكر ...

البوليس هناك يحمي المسرح والمسرحية ، والبوليس هنا موجود ليمنع الفكر باسم تربية النشء وتوجيهه ..

ترى كيف يتخلص الناس من الغوغائية ما دمنا نمنعهم من قراءة أي شيء سوى التفاهة ؟ ...

هذه الحلقة المفرغة ، من سيكسرها في بلادنا ، موطن الديانات والافكار الجديدة؟

على حد المقص .. !

قرأت في إحدى المجلات رسالة موجزة لقارئ أوجز اسمه ، يحتج فيها على مقص الرقيب ، الذي يحرمه أحياناً من بعض الصفحات ..

رسالة صغيرة مجهولة ، حرّكت - ربما دون أن يدري صاحبها - السكين المغموسة في حلق كل كاتب أصيل في بعض الاقطار العربية ، يبدأ متماسكاً صادقاً مفعماً بالآمال ثم ينتهي ممزقاً متخبطاً ، ضائعاً بين مثله وواقعه ، مفجوعاً بوباء الازدواجية العام ، الذي يكاد يستولي عليه ينتهي إما بالسقوط في التفاهة أو الصمت .

التفاهة أو الصمت قدر الأديب في بلادي ... لماذا ؟ ...

لأنه ليس مقص الرقيب وحده هو الذي يعن في تمزيق الكلمات التي لا تنسجم وآراءه ، هنالك عشرات المقصّات الأخرى التي تمر بها الكلمة في بلادي . في طريقها من حنجرة الكاتب إلى قلب القارئ ...

هنالك درب من المقصّات ...

فالمفجع ان عالمنا العربي يمر بمرحلة من تميع القيم والمفاهيم والتناقضات ، والرياء الاجتماعي - إلى جانب التعتن الفكري الاستبدادي في بعض الاقطار ، مما يجعل التفاهة هي الشيء الوحيد الذي يلقي قبولاً جماعياً .

التفاهة هي القاسم المشترك الوحيد تقريباً الذي تفتح في وجهه الابواب والذي لا يلقي ردة فعل ... ومع ذلك فنحن نسمع من وقت إلى آخر صرخات احتجاج على تفاهة ما يكتب . أو قصائد رثاء تنعى أدباءً عرباً بدأوا كباراً ثم كفوا عن العطاء واختاروا الصمت على التفاهة ولم يجدوا درباً ثالثاً ... اننا نبكي ادباءً قتلناهم وهم أحياء ونرفض ان نرى كيف غرسنا الخناجر في حلوهم ...

يبدأ الكاتب بصرخة كبيرة فنية في حلق ما زال مزروعاً بالبراعم : « سوف أقول ولو كلفني ذلك حياتي ... سأقول دوماً الحقيقة » ... ثم يكتشف انه لا يستطيع

أن يقولها حتى ولو دفع حياته ثمناً !! .
انه سوف يموت على رصيف بارد وسوف تتجمد الكلمات في حلقه وتنطفئ
قبل أن يسمعها أحد ... ثم تضيع عنه الحقيقة .. ففي درب المقصات هنالك أكثر من
مقص اعمى واطرش ، يحمل الصفات نفسها التي يحملها ذلك الوحش الاعمى الاطرش
الذي سماه شكبير : « المجتمع » ! ..

في البداية يكتشف ان عليه القيام بمحاولة « تكييف » مع رغبات الناشر كي يجد كلماته
في صيغة حبر وورق... والناشر بحاجة إلى التكييف مع ارشادات حسابات المبيعات ..
وحسابات المبيعات تدخل فيها عشرات من الاعتبارات السياسية والاجتماعية ..
وعشرات من الاعتبارات التي ربما ما كتب الاديب إلا احتجاجاً عليها أو على انحرافها
أو عقمها ... ثم يكتشف ان القضية ليست مجرد « تكييف » اختياري ... ثم يكتشف
ان المقصات انتقلت إلى داخله ، ان عشرات من عيون الآخرين تفتح على لسانه
كالقروح ، ترقبه بينما يكتب ، عشرات الألسن التي طالما احتقرها تتدلى كالسياط
على أكتافه ، تترجّ باصواتها مع صوته ...

وحينما يتمرد ، يكتشف أن هنالك مقصاً آخر ولد معه : معدته ! .. ويكتشف
ان أولى مآسي الاديب هي انه لا يستطيع استئصال معدته ، ولا يستطيع استئصال
نفسه تماماً من مجتمعه .. وان المعركة لن تهدأ الا اذا قيل بمساومة أحلى اسمائها « الحياض
السليبي » واصدق اسمائها « التفاهة » ...

البطولة الوحيدة التي تبقّت للأديب في بلادي في هذه المرحلة ، ليست في النصر ،
وانما في الاستمرار أطول مدة ممكنة قبل السقوط النهائي في الازدواجية ، أو الانضمام
النهائي إلى مدجنة المجتمع ، أو رشوة الذات بقناعات زائفة لمجرد انها تلقى الرواج
في سوق المهازل الكبرى ...

انه محكوم بالصمت سلفاً ، وكلماته محكومة بالعبودية لمغاور دامية في رثيته .
ومع ذلك ، فلنصرخ ولو لمرة ، ولنسقط بعدها على جرف الصقيع المعتم .

خوفنا على الحرية أكبر من خوفنا على السر !

أكتب هذه الكلمات صباح الاربعاء ١٢ كانون الأول ، والمطر يرسل خراطيمه بعنف ، وعبثاً يغسل عن قلوبنا ما علق بها طيلة الاسبوع الماضي من مخاوف وقهر وحقد ... (أجل حقد هي الكلمة) ، وربما كان المطر يدلّف من سقف سجن الرمل ، ولعلّ الصحافي السجين (....) يحرّض الآن سائر السجناء على العمل لاصلاح السقف ، (حاول قبل يومين طلب كميات من الدهان ليعمل والسجناء على دهن السجن وطبعاً رُفض طلبه لان كل محاولة للتخفيف من بشاعة هذا العالم مرفوضة ولان مصير الذين يحاولون ذلك هو السجن) ...

* * *

ما أود قوله للحكم هو أن الرجوع عن الخطأ ليس فضيلة ! الرجوع عن الخطأ واجب ! ...

فسجن الصحافي (.....) ليس قضية شخصية . ولا قضية لبنانية ، بل قضية تنكأ جرحاً عربياً وتاريخياً في قلب كل مثقف لا يزال يطمح إلى ان يمد بأصابعه المهشمة إلى افق الفكر العربي المعتم في بعض الاقطار ليدفع بشمس الحرية ، أي الجمال أي الخير والمحبة والايمان ، إلى النزوغ ، دون أن يمتد سيف الجلاد ليقطع أصابعه !

ان سجن أي كاتب بجريرة ممارسة حرية الفكر يطلق في عيوننا تاريخ الفكر العربي مع بعض حكامه مثل شرارات تعذيب يرتجف لها جسدنا قهراً وغضباً وحقداً . ذلك التاريخ كان غالباً موجعاً ، وكان صدر الحاكم العربي يضيق مراراً بعصافير عقل المفكر الباحث أبدأ عن أفقٍ جديدٍ ورؤى جديدة .

الفطيع في لعبة قمع الحرية هو أنها مثل لعبة (الاستغماية) لا تميّز بين أصحاب

الاتجاهات المختلفة ، ومن هنا كان تضامن اعداء الصحافي (...) معه قبل اصدقائه
– ووقوفهم مع قضيته ليس واجباً فكرياً فحسب ، بل هو أيضاً نوع من الترجسية
أو الأنانية أو بُعد النظر ، قبل ان يمر بهم سيف الجلاد المعصوب العينين .

متى يفهم لبنان ان في البلاد العربية كلها شواطئ وشمساً مشرقة وأرزاً
وثلوجاً وفنادق وكباريهات ونساء جميلات وكبّة وتبولة ولكن معجزة لبنان
الوحيدة هي الحرية النسبية التي ننعم بها (أو نتوهم ذلك) ، ولذا كان لرمال
لبنان وجباله ونسائه ومائه وهوائه طعم آخر ... وبدلاً من ان يطعم لبنان
بالحرية أشجار القهر في أكثر البلدان العربية الأخرى ، نخشى ان نقول ان العكس
بدأ يحدث ! ...

* * *

في اللحظة التي تقرأون فيها هذه الكلمات قد يكون صديقنا الصحافي مطلق
السراح (أم تُراني متفائلة كالأطفال ، أجهل عوالم الكوايس المتربّصة بنا جميعاً ؟)
وقد لا يكون ...

ولكننا لن ننسى أنه قد سُجن ، والرصاصة التي تطلق لا تسرد ، فضعوا اشارة
استفهام واحدة والى اشارة تعجب ولنبداً صفحة جديدة هي صفحة الحقد .

لنبداً من الأهم : إن خوفنا على « الحرية » هو أكبر من خوفنا على « السر »
إن كان في الامر سر ! ... وخوفنا من اساءة استعمال النص القانوني وتسخيره لتقييد
مفكر ما ، أكبر حتى من خوفنا من العيش بلا قانون تحت لواء شريعة الغاب حيث
يتم الاعتداء علينا باسم الاعتداء السافر لا باسم الشعب .

وربما كان مكسب الحكم الوحيد من هذه الخطيئة هو أنها أنستنا خطايا العشر
السابقة الأقل خطورة من خطر تهديد حرية الفكر ... واذا كان المقصود دفع
فواتير سياسية على حساب رفيق قلمنا، فليتم ذلك خارج معبد حرية الكلمة ودون
المساس بمقدساتها .

هنالك أشياء كثيرة تدور في الظلام نجهلها ونعرف اننا نجهلها ، ولكنني أعرف
شيئاً واحداً : اذا تم اجراء استفتاء شعبي ، وطلب إلى المواطنين ان يسجلوا أسماء

اعدائهم الحقيقيين الذين يشتهون ان يغسلوا المقصلة بدمهم ، ترى هل يكون على هذه القائمة اسم واحد من الموجودين داخل سجن الرمل ؟! ...

* * *

لإننا نصرخ بكل كبتنا التاريخي لحرية الفكر (الذي يفوق لدى العربي كل كبتٍ آخر) : أطلقوا سراحه ، وأطلقوا الحكم من سجن هذه الخبيثة المتدلّية من عنقه مثل طائر المحبة الصريع (الألباتروس) في اسطورة «البحار العتيق» لكولريديج ! ...

أطلقوا سراح حريتنا !!

اليوم ينقضي شهر ونيف ، وزميلنا (.....) (*) في السجن .
 مثل حصان بري نقي ، عبثاً يحاولون تدجينه ووضع اللجام المناسب في حنجرته
 وكمّ النبض الحقيقي لقلبه ..
 وحين جرّوه من زنزانه منذ يومين ليمثل امام المحكمة ، كان ما يزال صامداً
 ضد كل أساليب غسل الدماغ ، وكان يرى بوضوح ، كما نرى جميعاً ، أن توقيفه
 إهانة للصحافة وإذلال لكل حامل قلم ، وان حكاية « التوقيف الاحتياطي » المتسلطة
 على رقابنا جميعاً مثل مقصلة ، يجب أن تنتهي .. اذ يكفي ان يعبس أي حاكم في
 مقعده الهزاز حتى تهوي المقصلة على عنق الكاتب الذي عكّر مزاجه ، سواء كان
 ذلك الحاكم على حق أم لا ..

* * *

وحين جرّوه من زنزانه منذ يومين ليمثل أمام المحكمة ، رفض ان يتكلم وهو
 موقوف كما رفض السماح لمحاميه بالرافعة عنه .
 كلنا نتحدث عن ضرورة إلغاء قانون التوقيف الاحتياطي للصحافيين ، لكنه
 هو لم يكتف - مثلنا - بالأقوال ، وانما كان سلوكه في المحكمة تجسيدا عملياً لأقواله ..
 وهو أمر قد يدفع ثمنه غالباً . لكن تحويل الافكار إلى سلوك معاش هو الوسيلة الوحيدة
 للتبديل ، ولغسل البشاعة عن وجه وطننا ..
 « ان شيئاً لا يتحقق ، لا لسبب إلا لأنه ليس هناك من يجرؤ على ان يتبع مبادئه
 حتى النهاية. ان كل ما هو مطلوب ان نكون منطقيين حتى النهاية ومهما كان الثمن» -
 البير كامو .

(*) زميلنا (.....) هو شخص آخر غير زميلنا (....) المذكور في المقال السابق بهذا الكتاب ،
 وقد حذقت الأسماء زيادة في التذكير على أن السجن أياً كان هو حرية الفكر التي لا تقبل
 مساومة .

وزميلنا السجين من الرجال القلائل في وطننا الذين اثبتوا عملياً اصرارهم على اتباع مبادئهم حتى النهاية . وفي اصراره على عدم الكلام احتجاجاً على « لامنطقية » التوقيف الاحتياطي وتوكيد عملي لقناعاته ، مهما كان الثمن .. والتمن بالطبع اعادته إلى السجن ، السجن ، السجن ، السجن .

* * *

هو مسجون ..

ونحن نكتب عن النجوم والاشجار والعصافير .. الاشجار مشانق ، والنجوم فقاعات ، والعصافير أكاذيب تطلقها الغيوم ما دام ممنوعاً كل من يحاول التحليق في فضاء الحرية . ممنوع استعمال الاجنحة إلا وفقاً لشارات مرور علقتهما « قوى خفية » في درب تحليقنا . وكل من يحاول التحليق – عكس السير – يُعاقب بقص أجنحته أو إحراقها .

ألا يعرفون أن الأجنحة كالمخلوقات الاسطورية ، وانها حين تقص لمرة ، تنبت من جديد قوية كجذوع الشجر وشرسة كالحقد ؟ ..

المأساة أنه حين يُسجن شخص ما يقف معه الذين تربطهم به صداقات ويقف على الحياد السليبي الذين لا تربطهم به معرفة . المهم هو القضية التي سجن لأجلها هذا الرجل الذي لا أعرفه أنا أيضاً . هذا الرجل مسجون لاجلنا جميعاً . قضيته هي قضيتنا .. صراخ السجين التي تفور حوله تنتظرنا ، ولكل واحد منا دوره .. وفي هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور قد يكون هنالك موظف ما يحرر مذكرة بتوقيفي وزجني في السجن – توقيفاً احتياطياً – سواء كنت سأدان فيما بعد في المحكمة أم لا .. هذا ينطبق عليكم جميعاً . ومع ذلك ما نزال نحن حملة القلم نمر بالزميل المسجون كما لو انه شخص آخر . هنالك جزء منا مسجون مع زميلنا ، وهذا الجزء اسمه « كرامتنا » وهي كلمة كانت تعني شيئاً ذات يوم . انه « نحن » . انه « الانا » . واذا كنا قد فقدنا القدرة على تحسس القضايا العامة ، وعلى اعتبار قضية زميلنا قضية « الحرية الصحافية » ، فلنقف معه من أجل أنانيتنا نحن ومن أجل مصالحنا الفردية الصغيرة ، فكل واحد منا هو « مرشح سجين » .

فلتصب حروفنا بالشلل ، ولتسقط أقلامنا مغمى عليها فوق السطور – الاسم الرسمي لذلك هو الاضراب ، أليس كذلك ؟ – .. ولنصرخ معه : لا .. ولنصرخ : أطلقوا سراح حريتنا . وبعدها حاكموه وحاكمونا وفقاً للقانون .

لبناني في الحرب

قتل خليل حسون . ع اخته خديجة لانه ضبطها متلبسة بجرم الذهاب إلى السينما !
ابنة الثامنة عشرة توسلت إلى شقيقها ان يصطحبها إلى السينما في ثالث أيام عيد الفطر
لترى دريد لحام في فيلم « غوار الطوشي جيمس بوند » ، ولكن « غوار الطوشي
اللبناني » رفض طلب اخته وذهب وحده ، وبينما هو خارج من السينما شاهدها
تغادرها أيضاً فهاجمها بسكين الجهل وصرعها ... وأزهقت روح إنسانية لمجرد أن
صاحبها الصبية الصغيرة كانت مخلوقة طبيعية جرمها الوحيد أنها ، كشقيقها ، تحب
الذهاب إلى السينما !

ومنذ أسابيع ، ذبح شاب بيروتى اخته لان عريسها العجوز اتهمها بسوء الاخلاق
ومصاحبة العشاق . وشُرِّحَتْ جثة العروس المقتولة في آخر (شهر العسل) والمتهمة
بالفسق ، فتيين أنها عذراء !

عشرات الجرائم ، عشرات الامثلة التي لا تخلو منها يوماً صفحات الجرائم ...
والذي يلفت النظر فيها أن الشك ، مجرد الشك العابر التافه ، صار كافياً لارتكاب
جريمة القتل ! لماذا ؟ لأن القانون بخصوص « جرائم الشرف » مطاط ، ولأنه بداعي
« الاسباب الاخلاقية المخففة » يخرج كل مجرم من هذا النوع من السجن بعد شهر
وعلى رأسه أكاليل الغار !

والذي يلفت النظر في جريمة خليل حسون . ع هو سنه ... انه في الخامسة عشرة
من عمره . يده فقط غرست السكين في صدر أخته . إنه الأداة ولكنه ليس القاتل .
القاتل الحقيقي هو المشرع الذي سن قانون « جرائم الشرف » بقصوره المرعب عن
استيعاب واقعنا العصري . والقاتل الحقيقي هو مجتمع هذا الصبي ، وأسلوب تربيته
وزرع المعلومات الخاطئة في رأسه ، وتحديد الهدف الخاطيء لغرس سكينته . فحينما
يرتكب صبي في الخامسة عشرة من عمره جريمة قتل ، فالقاتل هو اسرته ورفاقه

ومدرسته ومجتمعه الصغير ... القاتل هو سلطة العادة والتقاليد والمفاهيم الحاطة المتوارثة !
ولن أكرر هنا مطالبتي للدول التقدمية والثورية والمقاتلة العربية بتعديل القانون
واعتبار ما كان يدعى « جرائم شرف » جرائم عادية تخضع للنصوص الزاجرة القاسية
التي تشمل الجرائم الاخرى ، لانني سئمت سماع صدى صوتي الصارخ في وديان
الصمم ...

ولن أقول لسيدات الجمعيات النسائية إن كل ما يتبجحن به في الاحاديث الصحافية
عن « حرية المرأة وتحررها و ... و ... » هراء ، ما دامت المرأة لا تملك حق الحياة
والحرية في القانون ، اسوة بالرجل ، ولا حق السفر دون موافقة « ولي الامر » ، ولا
« حق الخطأ » الذي يملكه الرجل ، لانني أعرف ان أكثرهن لا يبالي حقاً بذلك كله ،
والمهم لديهن قشور الحرية ومظاهرها من حفلات وصور وثياب عصرية يرتدينها
ناسيات الخلل في اقدامهن ! ..

ولكنني أتحدث عن خليل حسون ، القاتل ابن ال ١٥ سنة ، لأؤكد دور التربية
الخطير في سلوك الانسان ، ولأوضح دور المجتمع وتقاليد في دفع الانسان إلى القتل
والموت .

هذا ليس وقته ؟ !

هذا زمن الحرب ، والجرائم الفردية لا تهم ؟ !

بل هذا وقته . ولانه زمن الحرب أتحدث عن خليل حسون . اتساءل بحرقه :

لماذا تقاليدنا في لبنان تربط الشرف بجسد المرأة ولا تربطه بجسد الارض ؟

لماذا نربي أولادنا في البيت والمدرسة والشارع على فكرة ان المُحرّم الأكبر هو

عرض المرأة لا عرض الارض ؟

هذا الصبي ، الذي دُفع إلى ارتكاب جريمة عبثية لا فائدة منها لأحد ، كان

يستطيع ان يكون مقاتلاً على الحدود الجنوبية لأرض لبنان التي تنزلق من بين أصابعنا

يوماً بعد يوم ...

حربنا مع «اسرائيل» لم تنته... ربما بدأت حقاً الآن . وفي لبنان اعتقاد شبه نهائي

وراسخ بأن لبنان عاجز عن القتال ! لماذا ، والفرد اللبناني ليس عاجزاً عن القتل إذا

مس أحد مقدساته ؟ المرأة هي المقدس الأول والأوحد ، فلماذا ؟ لماذا لا تبدأ حملة

توعية واسعة النطاق ، في الريف قبل المدينة ، لزراع « تابو » آخر محرّم في النفوس

غير المرأة ، هو الوطن ؟ ما دام ابن ١٥ سنة مستعداً للموت من أجل ما يظنه هدفاً

سامياً ، فلماذا لا نغرس فيه هدفاً سامياً حقيقياً ومجدياً حقاً ؟
عشرات الشبان الذين تفرسهم البطالة وتمضغهم آلات الفليبرز فينزلقون يوماً بعد يوم في هوة الاحساس باللاجدوى وعدم الأهمية يحاولون عن طريق ارتكاب « جريمة شرف » ولو مفتعلة ، الحصول على شيء من الأهمية في مجتمعهم الصغير ، والتميز بفعل بطولة ! فقد سرقنا من المواطن اللبناني – حين سرقنا منه حقه في الحرب وحقه في مشاركة المنطقة العربية مثلها ومصيرها وكيانها – شرف الانتماء إلى بطولة حقيقية وكبيرة ، فراحت النفس تفتش عن بطولات صغيرة « دونكيشوتية » هنا وهناك .

جرائم القتل الكثيرة المرعبة المستمرة في لبنان ، القبضيات ، « الزعرنات » الصغيرة التي تؤدي الى مذبحه ، والمشاجرات من أجل نساء الليل أو لأن شخصاً خاطب آخر بلهجة لم تعجبه (جريمة ملهى « البلو آب ») ، أليست هذه كلها تعبيراً عن مجتمع محروم من قضية كبيرة ، وعلى افراد تمزقهم ضحالة الأفق أمامهم ؟
كل هذا يدور ، والرصاص ، يطلق في إسقاط نفسي موجع من هدف كبير إلى أهداف جانبية صغيرة ، ولكن رصاصة واحدة لا تُطلق في جنوب لبنان ! الجنوب يفرغ ، يترح ، يموت أفرادُه عزلاً دون إطلاق رصاصة دفاع عن النفس واحدة ، والرصاص يطلق في لبنان في محاولة إسقاط للقضية الكبيرة !
ليكن الوطن « التابو » ، المحرّم الاول والأوحد . وليكن الموت محرماً علينا إلا من أجله . ولتبدأ حملة توعية في هذا المجال ، وليتبن لبنان دوره العربي الحقيقي كي يكف ابناؤه عن التخبط .
وكفانا مهازل « جرائم الشرف » ! إن ابن زنا اضافياً تضعه امرأة ما ليس بكارثة في وطن ينحون كل يوم شرف الانتماء إلى التاريخ والثورة والحرب !

نساء أم « قتلة » !

دلال فتاة لبنانية أطلقت النار على شقيقتها ناهية « السيئة السمعة » وتركتها بين الحياة والموت ثم خرجت « تفتل شاربيها » على طريقة القبضيات وتقول : « من أجل شرف الأسرة ! .. »

للوهلة الاولى يبدو الأمر مثيراً ، فقد اعتدنا ان يحتكر الرجل حقل « جرائم الشرف » التي لا يزال القانون يمنح أبطالها أعداراً مخففة ... ولكن المرأة قررت ان تقاسم الرجل كل شيء . العمل في سلك الشرطة ، وفي سلك الجريمة ! .. ثم لماذا يقتل الرجل لأجل الشرف ولا تقتل المرأة أيضاً ؟ .

هذا للوهلة الاولى . ولكن دلال التي قتلت ليست انثى . دلال التي قتلت هي السلوك الذكوري المتداول الذي يغرسه المجتمع في النشء منذ الطفولة ، حتى صارت « جرائم الشرف » التافهة وغير الشريفة واللاانسانية طموحاً للعاطلين عن الحب والحياة والاخلاق . ولما كانت المرأة المقهورة في مجتمعنا ترى في الرجل أحياناً المثل الاعلى ، وترى في التشبه به أمنية ، لذا ليس غريباً ان تقرّر فتاة ما التصرف على طريقة « البطل الاجتماعي » الذي « يحصل » شرف العيلة ... (ترى هل تمنح الفتاة الاسباب المخففة على جريمتها أسوةً بالذكور أم ان تحصيل الشرف هو أيضاً شرف رجالي ؟) .

هذه الحادثة لفتت نظري لأنها جزء من موجة جديدة بدأت تجتاح جيل الفتيات العربيات الصاعدات ، وهي موجة « الاسترجال » . ودلال التي أطلقت النار على اختها من اجل « شرف العيلة » تعبر تعبيراً حاداً عن ظاهرة واسعة ومنتشرة بحيث تلفت الانظار في الأوساط النسائية ، وهي ظاهرة تقليد السلوك الخارجي للرجل ، أو تقليد اسوأ وأسخف ما في سلوكه مثل جرائم الشرف . ودلال هي في النتيجة ضحية . لقد وجدت أن عليها ان تختار بين ان تكون جزّاراً يتدبّع أو شاة تُدبّع ، فاختارت دور الجلاد مقلّدةً بذلك الرجل . وهي قد فقدت انوثتها ، واذا كانت قد كسبت

«الرجولة» العربية في أشع وأحط مفاهيمها : «رجولة» القتل تحت ستار «الشرف» ! .
ويبدو اننا نمر في مرحلة من الضروري التأكيد خلالها على انه لا علاقة بين الاسترجال
والتححرر . فقضية تحرير المرأة ليست قضية تحويل المرأة إلى رجل . القضية هي تحويل
المرأة إلى انسانية ، والرجل أيضاً إلى انسان . فالرجل نفسه ليس حرراً في أكثر مجتمعاتنا
العربية ، وهدفنا اذاً هو تحويل امرأة ورجل مستعبدين إلى انسانين حرين في مجتمع حر .
لا نريد من قضية تحرير المرأة ان تتحول إلى عملية زرع لحية وشاربين وعضلات ،
ولا إلى حركة بيغائية لتقليد الرجل ، خصوصاً في اشع ما يصدر عن السلوك «المذكر»
في بلادنا : «جرائم الشرف» .

المطلوب ان تظل الانثى انثى . ذلك لا يعني طبعاً انثى بالمعنى التقليدي للكلمة
(كائن سلمي) ، ولكن ذلك يعني عدم التنكر للطبيعة . و «جرائم الشرف» هي ضد
الطبيعة وضد الانسانية ، وهي بقايا نظرة متخلفة «تشيء» المرأة . اما تحرر المرأة
فيعني كسر كل القيود التي تحول بينها وبين ممارستها لإنسانيتها ، ولا يحل المشكلة
تقليد كائن آخر مستعبد أيضاً هو الرجل ...

المرأة هي ، من دون شك ، بروليتاريا البروليتاريا في المجتمع . وهي تقاسي من
كل ما يعانیه الرجل في المجتمع العربي من قهر سياسي واجتماعي واقتصادي ، بالإضافة
إلى وضعها البائس كأثى . على انه ليس المطلوب مساواة المرأة بالرجل فحسب ،
بل المطلب الأهم هو تحرير المرأة والرجل في مجتمع يستعبدهما معاً . فالعلاقة بين المرأة
والرجل جدلية لا جامدة ، بمعنى ان وراء كل امرأة مسجونة رجلاً مكبوتاً ، ووراء
كل مومس رجلاً بائساً يعاني من علاقة سطحية وغير انسانية .

وقد يكون المطلب الاولي (كتنكيك لا كاستراتيجية) المساواة بالرجل ، ولكن
ذلك لا يعني بالضرورة تقليد مظهر الرجل أو تفاهات سلوكه .

(ومدام كوري لم تقم بعملية استئصال للثديين . المهم هو استئصال ذاكرة الخنوع
ووهم التخلف النوعي . وانديرا غاندي لا تزال ترتدي الساري . فالمهم جوهر التحرر
لا قشوره . وما جدوى ان ترتدي المرأة العربية ربطة عنق اذا كانت لا تزال محتفظة
بخلخالها تحت البنطلون ؟)

تحرير المرأة كتنكيك يمكن أن يبدأ ، باعلان كل نساء القطر اللبناني الاضراب
العام (كبدائية) من أجل تعديل النصوص القانونية التي تعامل المرأة معاملة دونية ...
ويظل الأهم هو تحرير الانسان العربي ، والمرأة بطبيعة موقعها كبروليتاريا البروليتاريا

في الشعوب العربية مؤهلة لتكون طليعة ثورة التحرر العربي ...
كثيرون يعتبرونني من المسؤولين عن تفجير طموح المرأة العربية وتشجيعها على
ان تلغي نون التأنيث من سلوكها ، وتعيش حياتها دون خوف من المجتمع . فيلى اللواتي
اعتبرني ضوياً أخضر في درب تحرر المرأة أقول : لا علاقة بين المناذاة بتحرير المرأة
والمناذاة بإحراق بعض ثيابها الداخلية ...

تستطيع المرأة ان تكون متحررة وان يكون لها ثديان . الحمل وانجاب الاطفال
ليس ضد تحرر المرأة اذا تمتا في شروط انسانية دونما ارغام . مسموح للمرأة ان تحترم
زوجها وتحبه وحتى ان تقبله دون ان يشكّل ذلك اساءة إلى بنود تحرير المرأة (!) ...
انا اعتقد ان « الاسترجال » ليس مظهراً من مظاهر تحرير المرأة بل مظهراً من
مظاهر عبودية المرأة لفكرة سطحية عن التحرر ...

المهم في التحرر ، التحرر الاقتصادي والتحرر من سلطة المجتمع وسطوته ...
والنساء المسترجلات هن أكثر إقراراً - حتى من نساء الحريم - بسلطة المجتمع ،
ودليل اقرارهن هو تقديمهن لمسرحية الاسترجال . وهكذا فان المرأة المسترجلة هي
في جوهرها امرأة الحريم مع تغيير في بعض الديكور ...

ويا نساء العالم ... احبين ! فالرجل كأثن جميل ، وهو بائس مثلنا ... وتضامن
معه بدلاً من تقليده . فالمطلوب في علاقة المرأة والرجل التكامل لا التماثل ، والمطلوب
المماثلة في الحقوق والواجبات كمواطنين ، ولكن ليس من الضروري ان تخلق المرأة
ذقتها كل صباح لتؤكد لنفسها انها متحررة .

بالمناسبة ، قرأت للتو خبراً عن سبعة شبان ألقوا القبض عليهم شرطة الآداب بعد
ان ضُبطوا في شقة يرتدون الملابس النسائية الداخلية والخارجية ويترينون بالماكياج
والحلي والعقود ... فهل هذه طلائع « الثورة المضادة » ؟ ! .

المطلوب تحرير المرأة من التححرر !

كثيرة في بلادنا هي الكتابات النسائية التي تحرض المرأة على الثورة لانتزاع انسانيتهما ، ولكن الخطأ الذي تسقط فيه أكثر هذه الكتابات هو انها تعتبر أن معركتها هي ضد الرجل ، لا ضد التخلف الاجتماعي العام .

أعتقد بأن هذا النوع من الكتابة كان مقبولاً قبل نصف قرن ، في بدايات سفور المرأة عن وجهها وقلبها . كان ممكناً في تلك المرحلة تصوير القضية على أنها ثورة حواء الجارية ضد آدم المستغفل .

اما الآن فيبدو أن القضية في حاجة إلى رؤية جديدة تخرج بها من مرحلتها الميتافيزيقية لتضعها في إطارها الطبقي والاجتماعي والتاريخي العربي ، أي في إطار أكثر وضوحاً ومصارحة ...

إن خلاص المرأة العربية المعاصرة لا يكمن في إعلان العصيان المدني على الرجل ورفض العمل المتزلي والحمل والولادة ، لسبب بسيط هو أن المأساة أوسع وأشمل . فالرجل العربي نفسه ليس جلاد المرأة بقدر ما هو ضحية الوضع الطبقي والاجتماعي الخاطيء في معظم أقطارنا ...

المرأة العربية تعاني من استلاب حرياتهما الاقتصادية والفكرية والسياسية والجنسية ، ولكن من قال ان الرجل العربي حر ؟ ! . من هنا أو من بأن هذه المرحلة تفرض على المرأة النضال من أجل حرياتهما ضمن إطار نضال الانسان العربي ككل ضد قوى الاستلاب كلها، اذ لا يمكن لأي فرد (رجلاً كان أو امرأة) أن يكون حراً في مجتمع مستعبد فاقده للعدالة .

ان الاقلية العربية الثرية التي تمتعها من بؤس الأثرية، ومصالحها مرتبطة بتخالف الشعب العربي ، تحرض على إفساد غضبة المرأة وتحويلها في غير مجرى الثورة الحقيقية حيث يجب أن تصب . والأبواق الاعلامية المتعنتة لها مصلحة في تحويل أنظار المرأة عن الثورة داخل منظمة ثورية منظمّة إلى « الشجار » داخل البيت مع الزوج ، وبالتالي

هدر طاقتين كان من المفروض اتحادهما ضد العدو الحقيقي الذي هو كل ما يكرّس تخلف الاثنين ...

ان قضية المرأة العربية هي نفسها قضية الرجل العربي الثوري . فحواء وآدم العربيان المعاصران لا يعيشان في جنة تمنحهما « ترف الشجار » وانما يعيشان في جهنم أحداث هذه المنطقة ومآسيها وأخطارها ، وكل هدر جانبي للطاقات هو جريمة بحق النضال العربي ككل .

والمطلوب من الكاتبات المستقلات والاتحادات النسائية والجمعيات وكل التجمعات « النسوانية » إعادة النظر في موقع قضية المرأة من العصر والاحداث .

ليس الرجل فقط هو الذي ظلم المرأة، بل إن الاستعمار والتخلف والطبقية ظلمتهما معاً ... ومن الضروري أن تبدأ مرحلة التحالف الواعي بين المرأة والرجل ضد عدوتهما الحقيقي ، وان تعمل التجمعات النسائية ضمن هذا الاطار .

مدلول خطر لنجاح فيلمين

يبدو ان عصر السينما ذات الاخلاقيات التقليدية قد انتهى .
فقد اعتدنا ان نرى كل سارق أو قاتل في السينما يُعاقب ، ومهما أحبه الجمهور فسوف يُلقى به في النهاية إلى السجن ... وقد يُخففُ الحكم عليه ، أو يكافأ بجبيبة جميلة تنتظر خروجه من السجن ، ولكن لا بد (للعدالة) التقليدية من الاقتصاص منه من حيث المبدأ .

هذا الاسبوع شاهدت فيلمين تمردا على هذا الخط . الأول ، فيلم « الفرار » – ستيف ماكوين ، آلي ماكرو – الذي يلقي نجاحاً لا حد له . انه حكاية زوجين عاشقين شبه فقيرين يسرقان بنكاً وينجوان من البوليس ومن عصابة تطاردهما ويصلان بسلام إلى المكسيك مع الغنيمة طبعاً ، وينتهي الفيلم نهاية سعيدة ! .. ولعل الجمهور يخرج أكثر سعادة حتى من أبطال الفيلم الذين ربجوا ثروة صغيرة (نصف مليون دولار) ! .. لماذا ؟ وهل يكره الجمهور « العدالة الشرعية » إلى هذا الحد ؟ ..

هذا ما يبدو للوهلة الاولى .. ولكن الفيلم في حقيقته يمثل سارقين صغيرين (ستيف ماكوين وزوجته) سرقا من بنك هو أصلاً مؤسسة للسراقات الكبيرة ... وهكذا فالجمهور الذي تعب من « السارقين الكبار » الذين يحميهم القانون ، يتعاطف مع « السارقين الصغار » الذين هم أقرب إلى قلبه وواقعه ، ويشمت بـ « الكبار » الذين يجد مثيلاً لهم في حياته اليومية وفي واقعه الاجتماعي والسياسي ...

الفيلم الآخر الذي شاهدته هذا الاسبوع ضمن الخط نفسه (مما ينشر بموجة أفلام من هذا النوع غير التقليدي) ... اسمه « اقتل شارلي فاريك » . والبطل في الفيلم يرتكب سرقة تقارب المليون دولار لكنه ينجو بنفسه من البوليس والعصابة التي تطارده ويربح المال أيضاً . وكما في فيلم « الفرار » ، المال الذي سرقه شارلي فاريك هو أصلاً « مال حرام » ويخص عصابة المافيا ومجموعة من المجرمين الكبار الذين تحميهم تغطية قانونية ،

أما هو ، الذي ينطلق البوليس خلفه والمافيا أيضاً ، فينجو بالغنيمة مشفوعاً بتهاني جمهور الصالة وفرحهم الكبير بنجاة « السارق الصغير » من « السارقين الكبار » ... ان حماس الجمهور اللبناني لفيلم القرار (يعرض منذ ستة اسابيع وتنفذ كل التذاكر منذ الصباح) له « دلالة » سارة بالنسبة لموزعي الشريط واصحابه ، ولكن له « دلالة » غير سارة بالنسبة لمصاحبي دم الشعب في هذا البلد ، المتمتعين برعاية القانون وتغطيته ، والذين يبرعون في تكديس ثرواتهم ورفع بناياتهم دون أي مأخذ قانوني عليهم . ان تعاطف الناس مع « فقراء » الفيلم السارقين الصغار الخارجين على القانون ، وشماتتهم بـ « الحرامية الكبار » المستغلين لبند القانون لن يتوقف عند حد الاقبال (غير المؤذي) على فيلم يشاهدونه دونما عنف .. ان هذا النوع من الشعور والحماس يمكن في اللحظة المناسبة ان يتحول إلى انفجار يسمونه في كتب التاريخ « ثورة » أو أسماء اخرى كثيرة مشابهة ... فليذهب مستغلو الشعب لحضور هذا الفيلم ، ومطلوب منهم أن يستمتعوا به قليلاً ، وان يفكروا بعده كثيراً ! ..

سهو ، أم تمهيد لصلح ؟

فيلم « الفتى ذو القلب المكسور » الذي يعرض حالياً في إحدى صالات السينما في بيروت ، قدم لنا في حفلة العرس اليهودي أغنية اسرائيلية فولكلورية أظن أن اسمها « هاغانا » . فقد سمعت هذه الاغنية في كثير من حفلات السمر في لندن أيام دراستي ، وشاهدت أكثر من تشابك بالايدي بين رفاقي العرب وأفراد الفرق الموسيقية اليهودية التي تفاجيء الساهرين بعزفها ويطرب الاوروبيون (لشرقيتها) .

وظهر الاحد ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ، حوالي الساعة ٥ بعد الظهر اذاعت محطة بيروت باللغة الاجنبية أغنية تبدأ الحانها بالمعزوفة الاسرائيلية الفولكلورية نفسها وتغنيها ايرين برتبيه ! مما لا شك فيه أن أحداً لا يريد تعويد الأذن العربية على الألحان الفولكلورية الاسرائيلية تمهيداً « لصلح ثقافي » ، وأن الامر هو حتماً سهو ألقت اليه أنظار ادارة السينما ومديرية الاذاعة .

أصوات الغناء ستكون عالية

٦ تشرين ليس مناسبة جامدة من تلك التي اعتدنا الاحتفال بها سنوياً في مواعيد محددة ... نصدر الاعداد الخاصة بها .. وننظم القصائد في مدحها .. ونستمع من الإذاعات الى الأناشيد والمدائح فيها ...

الاحتفال بـ ٦ تشرين يُستمد من روح ٦ تشرين نفسها ... انه بالتالي لا يمكن أن يكون مهرجاناً فحسب ، وإنما ممارسة ديناميكية مستمرة ... انه ليس احتفالاً في يوم معين فحسب ، وإنما هو سلوك نمارسه باستمرار في كل أيام السنة ...

٦ تشرين هو الخطوة الاولى الصحيحة في درب المئة الف ميل ، درب التحرر والكرامة والفرح للجماهير العربية كلها .

ومن هنا فإن من واجب الأصوات التي سترتفع بهذه المناسبة أن تبتعد تماماً عن الخطائية اللفظية والمتاجرة بمشاعر الجماهير ، لتحل محلها لغة مباشرة موضوعية وصریحة في مواجهة الحقائق ...

٦ تشرين ليس مناسبة انقضت وبقي تحت التماثيل لها وتنصيبها وثناً في حياتنا السياسية .

٦ تشرين روح عمل ، وروح تفاؤل . فليواجه كل منا ذاته وليصارحها : الى أي مدى تسرّبت روح ٦ تشرين الى الخلايا النفسية لوجوده ، والى أي مدى أثرت في سلوكه اليومي ومعايشاته ومواقفه الفكرية ؟ .

وإذا كنا قد سقطنا بعد ٥ حزيران في مناخ هزيمة مضخمة ، فمن الخطر أن نسقط اليوم أيضاً في مناخ نصر مضخم ...

٦ تشرين ليس انتصاراً ستاتيكيّاً جامداً ، وإنما هو روح ديناميكية تقع على الأقدام مسؤولية إبراز ضرورة استمراريتها وضرورة النظر اليها ضمن اطارها الحي كحلقة مضيئة في سلسلة المراحل التي لا بد أن تمر بها أمتنا العربية في دربها الى تحقيق

أهدافها الإنسانية العادلة ...

ومفهوم « التفاؤل » التشريفي ، يجب ألا يتحول الى يقين طوباوي بالنصر ، بل من الضروري التأكيد على أن « التفاؤل » مرادف « للعمل » وإن الأمل هو « حالة من الوجود . إنه حيوية داخلية ، حيوية فعالية ... والانتظار السلبي هو شكل مموه لليأس والعجز » (إريك فروم) ... وهكذا ف ٦ تشرين هو عيد العمل من أجل الأمل ، وليس للعمل مناسبات ولا أعياد لأنه ممارسة يومية حياتية ...

في ٦ تشرين يجب التحذير من سوء فهم حكاية الأمل والتفاؤل ... فالأمل السلبي هو اعتماد الإنسان على المستقبل بشكل مطلق . « فما من شيء يفترض حدوثه الآن ، وإنما بعد ذلك ، في اليوم التالي أو العام القادم وفي عالم آخر .. فواء هذا الاعتقاد وثنية ال « مستقبل » و « التاريخ » و « الأجيال القادمة » - (من ثورة الأمل لاريك فروم) . إن شيئاً لن يحدث إذا اكتفينا ب ٦ تشرين ثم الاحتفالات السنوية به .

إن إرادة العمل لدينا وممارسته هي وحدها التي تمنحنا الحق بالتفاؤل .. وكما يقول مفكر عربي كبير (الإرادة إذن لا « الحلم » ، ولا « انتظار تحقق الحلم » ، هي الأساس الموضوعي لبناء المستقبل والتوجه نحو الأهداف القريبة والبعيدة) ...

لا أريد أن أبدو في كلمتي هذه كثيية كعرفات دلفي ، ولكنني أعرف أن أصوات الغناء ستكون عالية (كما كانت أصوات الندب في ٥ حزيران عالية) ، ولم يعد في حنجرتي غير صوت الصحو .

قراءة بيضاء

أغرب مجلة تلقيتها في حياتي مجلة اسمها ، كما يقول غلافها ، « الفجر » ،
وكل صفحاتها بيضاء بيضاء لا نقطة فيها ولا سطر ولا لون ! ..

للوهلة الأولى خيّل الي أنها دعابة ، وأن هنالك ثرياً ما يحاول أن يعلن عن وجهة
نظر ساخرة ولو بأسلوب باهظ التكاليف ، كأنه مثلاً يود أن يقول حين طبع مجلة
بيضاء ! : « لم يبق ما يقال ! فما أرى ما نقول إلا مكروراً أو معاداً . »

أو : « في فمي ماء ! » .

أو : « السكوت من ذهب ! » .

أو : « اهترأت اللغة وما زال البؤس يحتل العالم ! » .

أو : « افتح الصفحات البيضاء وأقرأ ما في نفسك ! » .

أو : « كفتّ عن قراءة الآخرين وواجه مواقفك أنت ! » .

أو أي فكرة أخرى يمكن أن نخطر ببالك إذا فتحت مجلتك ذات يوم ووجدت
كل صفحاتها بيضاء تماماً ! .

قراءة أخرى لغلاف المجلة العجيبة تكشف أنها « تصدر عن المكتب الاقليمي
للجنة الشرق الأوسط لشؤون المكفوفين » .

نظرة أخرى الى صفحاتها تجعلك تلحظ أنها ليست بيضاء من دون أي شيء تماماً .
ففي الصفحات نتوءات ، وفيها حفر . وفهمت أنها مكتوبة بطريقة « برايل » . انها
مجلة للمكفوفين ، وحواسنا نحن مكفوفة عن قراءتها .

أغمضت عيني وتحسست السطور بأصابعي ، وحاولت أن أقرأ ، فشعرت
بالعجز التام ، كعجزك عن قراءة وجه إنسان غريب ! عجزت عن القراءة لأن
أصابعي عمياء . فالحاسة التي تضيع لدى المكفوف تجد تعويضاً لها في تنشيط حواس
أخرى في النفس والجلسد .

هذه المجلة عمل إنساني عظيم سيدخل النور الى المكفوفين وينقذ طاقاتهم المعطّلة .
وفكرت في المئة والأربعين مليون عربي التأهين بين « الماء والماء » ، وأكثرهم
مصاب بعمى الألوان السياسي ، والحول الفكري ، وازدواج الرؤية ! متى تصدر
منشوراتهم الحقيقية ؟ وإذا صدرت فهل يسمح لها بحرية التجول أم أنها ستصطدم ،
كالعادة ، بالضوء الأحمر للموانع التقليدية ؟ ! .
كلنا مكفوف ما دامت حرية الفكر شبه ممنوعة من التجول في العالم العربي !
متى يطلع الفجر الحقيقي ؟ ! .

• • •

قراءة أولى في جريدة صباحية !

هل تعرفون ما هي أشد الأشياء إثارة للرعب والقلق في زمننا الرديء؟

إنه جريدة الصباح !

تقرؤها فتحمل اليك دفعة واحدة بشاعة عالمنا المعاصر ... والذنب ليس ذنب الجريدة إلا بقدر ذنب المرأة في عكس صورة وجه بشع ! .

فجريدة الصباح تحاصرک وأنت لما تصحو بعد من نومك جيداً ، أي أنها تخترقك في لحظة من لحظات العري النفسي ، قبل أن تباشر بارتداء أقنعتك ، وقبل أن تلتف حولك دروع همومك اليومية الصغيرة ، تلك الهموم الشخصية التي تتعبنا لكنها تقينا فظاعة الهموم الإنسانية الأكبر والأشمل ... كأن الزواج وإنجاب الأولاد والروتين ، كل هذه المشاغل الصغيرة هي لقاح ضد الوعي بالأوبئة المروعة التي تحصد إنسانية عالمنا المعاصر ...

* * *

تعالوا نقرأ جريدة الصباح معاً ... إن مجرد تأمل الصور يكفي لتبدأ يوماً تاعساً — «تاعساً» ليست هي العبارة — لنقل يوماً مليئاً بالحقد الإيجابي أي ، الرغبة في التبديل ...

* * *

في الصفحة الأولى صور رؤوس مقطوعة ... لا رؤوس خرفان ، بل رؤوس شبان كانوا قبل أيام ينبضون حياةً وجمالاً مثل جياد برية تركض في سهول الوجود .. الحناجر تقطر دماً ... والرؤوس المربوطة الى العصي تقطر دماً ... والصورة ليست تاريخية عن غزوات هولوكو وفضاعات تيمورلنك، وإنما هي صورة «معاصرة»، صورة من صور الحرب في كمبوديا ... الرؤوس المقطوعة هي طبعاً رؤوس الثوار ... والقتل تم على الطريقة الأميركية وبإشراف خبراءها وزبائنها ، وخناجرها وأسلحتها ...

ومع ذلك لا تنجّل السينما الأميركية من عرض الأفلام التي تصوّر « وحشية » الهنود الحمر لمجرد أنهم كانوا يسلخون فروة رأس « العدو » مكتفين بها على سبيل « السوفينير » أي التذكّار ... أما أميركا التي رفعت علمها على القمر دلالة على ربح سباق الحضارة ، (ربما بكت يومها المجرة بدموع من ضوء حزين) ، فقد فضلت العودة الى التراث ، وقامت « برينيسانس » بإحياء أساليب هولاء كوثبت أنها حريصة وأمينة على التاريخ ، ومارست ذلك بصفة عملية في فيتنام ، بأسلوب تعانق فيه « تراث الماضي » وأساليب العلم المتطور والتكنولوجيا ، ويبدو أنها نقلت ذلك كله اليوم لتتابع نشاطها في كمبوديا ...

إنك حين ترى الرؤوس المقطّعة المتدلّية من العصي كثمرة الخبيثة ، تدهشك الإعلانات عن الطائرات والكومبيوترات في الصحيفة نفسها ، إعلانات تدلّ كلها على أننا في القرن العشرين ، فتصاب بالذهول ، والقرف ، والحقد المضيء . إن كل نائر لا يمكن أن يكون لامبالياً بمصير الثوار في كل مكان ... وتقلب الصفحة !

* * *

هذه صورة حسن البرقاوي ، شيخ فلسطيني عمره ١٠٣ سنوات . وجهه مليء بالقهر ، وتجاعيده حكاية عذاب طويلة ، وفي يده عصاه وخبر عن طرد السلطات الاسرائيلية له من بيته ...

الخبر لم يثر إشفاقاً على الشيخ ، بل على الدولة « الاسرائيلية » .. فقد يكون سهلاً لإخراج رجل عجوز في الثالثة بعد المئة من عمره ، ولكن عمر الفلسطيني في فلسطين ليس ١٠٣ أعوام فقط . عمره هو عمر التاريخ .

وهي لن تقدر أبداً على طرد هذا الوجود . إن معركة « اسرايل » مع العرب ليست مجرد معركة مع أشخاص وبيوت وإنما هي أيضاً معركة مع التاريخ كله .

و « اسرايل » هي كمن يحاول إفراغ بحر التاريخ والحقيقة بصدّفة صغيرة اسمها « الأمر الواقع » !

ولكن الفجيرة الحقيقية هي حين يصير « الأمر الواقع » أقوى من « الحقيقة » ، وحين تصير الصدّفة أكبر من البحر . وإذا استمرينا في ما نحن عليه ، فهل يمكن للصدّفة أن تصير أكبر من البحر ؟ ..

لتقلب الصفحة ! ..

* * *

هذه صورة تمثل بعض المثلثات والنساء المتهمات بما يدعى بفضيحة الرقيق
الأبيض ، وبممارسة أقدم مهنة في التاريخ ! ..

تُشعر باللامبالاة ! ..

كلنا صرنا نعرف أن العهر لا يمارس في هذا المجال وحده ، وأن عالمنا العربي
غارق في فضائح العهر الفكري والسياسي والاجتماعي ...

تُشعر بالغضب ! ..

لم يعد مهتماً في عالمنا العربي من نام في مترل من ، الأهم هو أن لا تُسحب الأرض
من تحت المنازل كلها . و«إسرائيل» ، ومن ورائها أميركا ، جاهدة في هذا المجال ، وإذا
ظللنا لاهين عن هذه الحقيقة المروعة ، نأتمن على وسائد السلام ، سيأتي يوم يصير
فيه الشعب العربي بأكله رقيقاً أبيض .

تُشعر بالأسف ! ..

فلنقلب الصفحة ! ..

* * *

تقلبها ؟

لا ...

ذلك يكفي لهذا الصباح !

من خطف الطائرات إلى خطف اللوحات

الفتاة جميلة وشفافة . تعزف على الغيتار منذ زمن بعيد . تعزف باستمرار ليل
نهار منذ القرن السابع عشر . لا تتعب . لا تنام . شاهدها ذات يوم في متحف
« كينوود » في بريطانيا . أنصت الى عزفها ومن يومها لم أنسها ..

تعزف منذ مئات السنين ، منذ رسمها الفنان الهولندي جان فيرمير وأبدع في
تصويرها بلوحته الشهيرة « عازفة الغيتار » التي تعتبر من روائع الفن العالمي ويقدر
ثمنها اليوم بملايين الدولارات .
ومنذ أيام سُرقت اللوحة .

اختفت من ركنها في المتحف وصمت العزف . أدهشني خبر السرقة لأن بيع مثل
هذه اللوحات مستحيل بسبب شهرتها الفاتكة ، وهكذا فان سارقها لن يحظى بأي ربح
مادي . وفكرت : تراه مهووساً ، عشق اللوحة فقرر اختطافها وسجنها والاستئثار
بعزف الجميلة وحده من دون الناس جميعاً ؟ ! . تراه جامع تحف مجاناً قرر
أن يقيم لنفسه سرّاً متحفه الخاص ؟ وأين ؟ في غواصة مثلاً ؟ أم تراه يتولى تهريبها الى
القمر حيث الزحام أقل ؟

وشعرت بالغضب من السارق . وقررت انه رجل مؤذٍ لأنه لا يفرق بين عاطفتي
« الحب » و « حب الامتلاك » . إن التطابق بين « الحب » و « حب الامتلاك » قد
يكون مقبولاً في حالات الحب الفردية (بين رجل وامرأة مثلاً إذا تم بقبول
الطرفين) ، أما بين رجل ولوحة فنية فتلك أنانية لا تطاق . تصوروا مثلاً لو أن كلاً
منا أراد أن يمتلك كل ما يجب في هذا الكون المزروع بالجمال والسحر ، وأن يجسه
ويحرم الباقي منه ! انا مثلاً أحب الشمس والنجوم والبحر والأطفال والغابات
والمطر ، فماذا يتبقى للعالم لو سرقتها وهربت بها الى كوكب آخر مثلاً ؟ ! وأية
كارثة تكون لو أن كل سائح يقوم بسرقة أية لوحة تفتنه أو تمثال يحبه ؟ .. وماذا

لو أقدم الملياردير أوناسيس ، مثلاً ، على سرقة أبو الهول ، ولو قام كل معجب بسرقة ما يجب وفقاً لامكاناته المادية والجسدية ؟ ماذا يتبقى في متاحف العالم غير لافتات في موضع اللوحات تقول مثلاً : « هنا كانت لوحة فان غوخ : الحصاد . تمت سرقتها يوم كذا ... يرجح أن السارق هو فلان واليكم العنوان لمراجعتة » ! أليست المتاحف في النتيجة أول تجسيد عملي جماعي لاشتراكية الحب الذي لا تفسده الأناية أو حب الاستئثار ؟ .. أليست المتاحف أول تعبير حقيقي في التاريخ للفصل بين « الحب السامي » و « حب الامتلاك » ؟ ..

هذا ما أحسسته للوهلة الأولى ... وتخيّلت سارق اللوحة في قبو بيته يتأملها وينصت الى عزف جميلتها مستأثراً بها حارماً الدنيا من إبداع راسمها . وحققت عليه ! ..

ثم فوجئت بالسر الكامن وراء السرقة ! فقد قرأت أمس في صحيفة « الغارديان » أنها تلقت مخابرة هاتفية من سارق اللوحة . إنه يطالب الحكومة البريطانية بتوزيع ما يوازي مليون دولار وربع من الأغذية على الفقراء في وطنه (جزيرة غرينادا) مقابل إعادة اللوحة . فجزيرة غرينادا كانت تابعة لبريطانيا ، وقد استقلت مؤخراً بعد أن خلّف فيها الاستعمار ما يخلفه عادة في كل وطن من بؤس وجوع ومرض ! . إذن نحن أمام نائر من أجل وطنه لا أمام سارق عادي .

لقد اختطف فتاة اللوحة الغالية على قلب أمها ، بريطانيا ، وهو مستعد لإطلاق سراحها مقابل فدية ، والفدية هي اطعام الجياع في بلده . وانه لم يكن يريد الاستماع الى عزف قيثاره اللوحة ، وإنما كان يستمع الى صراخ الأطفال الجياع في وطنه حين قام باختطافها . انها لفكرة مثيرة ! ..

الانتقال من خطف الطائرات الى خطف اللوحات ! ..

الانتقال من خطف الفتيات البشريات الى اختطاف الفتيات الخالدات في اللوحات . الانتقال من اختطاف الجسد الى اختطاف القيمة الفنية . الانتقال من حرمان أسرة واحدة من ابنتها أو ابنتها الى اختطاف ابنة روحية للشعب البريطاني الذي يجده الخاطف مسؤولاً عن جوع كل ابناء شعبه ! فإن دُفعت الفدية أعيدت فتاة اللوحة سالمة مع قيثارها وألحانها ، وإن لا ، تم قتلها وإبادتها كما يتم قتل أي مخطوف ! ذلك النائر من غرينادا طور عملية الخطف بذكاء . فبدلاً من خطف فتاة خطف لوحة

هي ابنة الوطن كله ، ثم أن خطف اللوحة أكثر سهولة لأن « فتاة الغيتار » لن تقاوم
خاطفها ولن تصرخ ولن تخدشه بأظافرها ، وهو ليس في حاجة الى كم فيها أو
تخديرها ولن يضطر الى حراستها لأنها ستظل في مكانها داخل إطار اللوحة تغني وتعزف
بهدوء وصمت ! وحتى إذا لم تدفع الفدية ، فإن عملية قتلها ستكون أكثر سهولة لأنها
لن تبكي أو تتوسل أو تقاوم وإنما سموت بهدوء ! (عملية قتلها أسهل ؟ لا أدري !) .
هل اغتيال اعمال بيتهوفن كلها مثلاً ، أي الرمي بها الى النار نهائياً ، أسهل من
عملية اغتيال انسان ؟ ! .

لا أدري ! ..

كل ما أدريه هو أن هذا العالم المليء بالظلم والقهر لن يعرف السلام إذا لم تتحقق
فيه العدالة . وإن الثوار لن يعدموا وسيلة لاستتراف العالم (المتمدن ، الذي مدنيته
قناع مزيف) .

وما دام الظلم يملأ العالم والشعوب المضطهدة تقاسي ، فإن أحداً لن يجد سلاماً
أو ملجأ أو مفرأ ، خارج اللوحات أو داخلها ، فكلنا مسؤول ... وكلنا داخل اللعبة .

.. وفي صدري وطن يبكي !

تعذيب أن تمرض ، أن تدخل المستشفى ... لكن التعذيب الأكبر هو حين تدخل المستشفى دون أن تكون مريضاً ، كما حدث لي هذا الصباح .

رافقت صديقي المريض لالتقاط بعض الصور الشعاعية لرثتيه وجهازه الهضمي وبقية أجهزة جسده التي أعلنت « العصيان » مؤخراً ! ..

رافقته لأواسيه ، لأسليه ، لأغسله بالمحبة التي تجعل كل ما في الحياة أقل إيلاماً وأقرب الى النكتة منها الى الدراما .

وسمى عني وعنه انه لن يسمح لي بالدخول معه الى غرفة التصوير المظلمة ! ..

وهكذا ، كان لا بد من جلوسني لمدة ساعة ونصف أنتظره في دهليز واسع معد للانتظار ، يقع مقابل مكتب موظفي ذلك القسم ، ويتيح لي مشاهدة قافلة معلمي الأرض القادمين ذلك الصباح ، ورصد أوجاعهم ... وشعرت اني متفرجة في « جحيم دانتي » وأنا أشاهد عشرات الوجوه الذابلة المتألمة ، وقفز أمام عيني أطفال مشوهو السيقان جيء بهم تمهيداً لتصليح عظامهم . وزحفت على البلاط العاري أمامي محفة تمدد فوقها رجل مخدر ، وكان لعجلاتها صوت صرخة الاستغاثة التي عجزت حنجرة المخدر عن إطلاقها ، وبدا لي وجهه لوحة عن الألم البشري الأزلي أمام المرض ...

كل ذلك كان يمكن احتماله لولا مشاهد الفقر والإذلال . بدوي وبدوية جاء ، أحدهما مريض أو كلاهما . لم يكن الإنسان في حاجة الى أكثر من نظرة ليعرف انهما فقيران ومريضان . أمسكا بأوراق طلب التصوير ووقفا امام المكتب مصرين على عدم الدفع لأنهما لا يملكان نقوداً . الموظف قال لهما بتهديب مستورد بارد : « الدفع على الصندوق . نحن لا علاقة لنا بالدفع . » قالها بقسوة . وأصر الفقيران على التصوير مجاناً ، وكانا على حق . وأصر الموظف على أنه لا يستطيع السماح بذلك ، وكان هو

أيضاً على حق - هو ، لا مؤسسته - وكان يفسر لهما بجدة قوانين المستشفيات ، وكانا يمسكان بالأوراق الرسمية « بالملقوب » لأنهما طبعاً لا يعرفان قراءتها ولا يعرفان « كومبينات » المسؤولين والمستشفيات. فكل ما يعرفانه هو انهما يتألمان، وأن ذلك يحول دون أيديهما الخشنة والعمل ، وانهما لا يستطيعان الموت جوعاً دون أن يطلقا ولو صرخة احتجاج واحدة ... المهم ، لا أدري كيف تم « تصريفهما » كي لا يندشا عيون القادرين على الدفع . ولم يكادا يخنفيان ، ودخان لفاقي يستقر باتقان في رقتي ، حتى بدا لعيني مشهد آخر صامت لكنه أشد تعذيباً . ربما لأنه صامت مرأمام عيني كالكوابيس المخنوقة الانتحاب . زوجان وطفل مشوه الساقين ، (ربما ولد كذلك ، وربما صنع الفقر وسوء التغذية ذلك) ... كان بؤس الأسرة واضحاً ، وصامتاً . وقف الأب امام الصندوق صاغراً ، واخرج من صرة مبلغاً كبيراً بالنسبة الى فقير مثله ، ودفع المبلغ « مكسور الخاطر » ، ثم التفت الى زوجته وفي عينيه نظرة قرأتها في الحال « لن يكون في وسعنا أن نأكل بقية هذا الشهر ! » دفعا وسارا بابتها المشوه ، وكانا هيكلين مهترئين من الرماد لن يدهشك سقوطهما فجأة على الأرض كومتين لم يبق فيهما ما يحترق !

وخنفتي البؤس .

حين تكون مريضاً ، تسقط في بئر أوجاعك الذاتية ، تتلهى بها فتعزلك وتشغلك عما حولك من آلام . حين لا تكون مريضاً ، تكون حواسك كلها متنبهة ومعافاة ، وتصير معرضاً لالتقاط كهارب البؤس البشري حولك ، وما أكثرها ! ..

تلك الاسرة الفقيرة البائسة ، التي تحركت أمامي الساعة الثامنة والربع في دهليز المستشفى ، ليست مكونة من ثلاثة أشخاص ... انها مكونة من ملايين المعذيين العرب في لبنان وغيره ... اسرة من ملايين الكادحين والطيبين والبسطاء الذين يسحلهم المرض دونما ضمانات صحية ودونما أية مبالاة على الصعيد الرسمي ! ..

أحسست بكراهية حقيقية لأكثر رجال السياسة في لبنان، الذين يحترفون المهاترات والمزايدات والحترقات لأجل مصالحهم الخاصة ، ويمارسون الرقص في حفلات المجتمع (تجدون صورهم في الصفحات الخاصة بذلك) وعلى حبال صنفقاتهم باسم الشعب المسكين ، وهم لا يعرفون عنه شيئاً ! ... وحتى حين يمرضون ، فان أحداً منهم ليس مضطراً الى الجلوس في غرفة انتظار . وإذا فعل ، فان إدارة المستشفى قد خصصت لهم غرفة انتظار خاصة في مكان بارز (تسلت اليها ، فوجدتها أنيقة

المقاعد والرياش ، ومزودة بباب كي يتم اغلاقه بينهم وبين مناظر البؤس في الخارج) .
أتساءل : هل يعرف حكام لبنان كيف يعيش الشعب ؟ أعني ، كيف يعيش الناس
حقاً ؟ وكيف يعرفون ، والانفصام بينهم وبين أبناء الشعب بلا حدود ؟ ! .
لطبقة الحكام مجتمعاتهم المغلقة مثل (المحافل السرية الشريرة في العصور الوسطى) .
لأنهم يتحركون داخلها وهم لا يعرفون أي شيء عن الشعب . وحتى شوارعهم هي غير
شوارعنا إذ تتقدم سياراتهم موتوسيكلات الشرطة لتجنبهم مأساة السير عندنا ، ولهم
متزلفوهم الذين يرسمون لهم صورة غير حقيقية عما يدور خارج غرفهم المخملية ...
وليس لديهم الحس بالمسؤولية الذي كان لدى خلفاء العرب أيام مجد العرب ، أولئك
الذين كانوا يتنكرون ويندسون بين صفوف الشعب ليعرفوا حقيقة بؤسه عن كثب ...
كان الحاكم فيما مضى يتجسس لمصلحة الشعب ، واليوم صار الحاكم يتجسس
ضد الشعب ، وصارت له أجهزة هائلة ترصد حركات الرفض الشعبي لضربها بدلاً
من إزالة أسباب الرفض والنقمة ... أليس مروعاً انه لا يوجد في لبنان ، وطن «الاشعاع» ،
أي ضمان صحي حقيقي ، وليس فيه غير مستقبل مظلم مروع ينتظر كل مواطن
شريف كادح ؟ ! . ألا ينطبق هذا الكلام على الكادحين في أكثر الأقطار العربية ؟ ..
إن « جرائم المرض » التي أوجدتها الطبيعة فتك بنا أقل من فتك « جرائم الالهال »
التي تتكاثر بفضل همة أكثر مسؤولينا الفاقدين كل شعور بالمسؤولية ... ان الهاوية بين
السلطة والشعوب العربية قائمة في أكثر من بلد عربي ، والتاريخ يقول لنا ان هذه الهاوية
بالذات هي دوماً مصير الحاكم الذي لا يعرف كيف يلتحم بالشعب ويكون تعبيراً
حقيقياً عنه وانبثاقاً عفويماً من تربته .

هذه الأفكار كلها انفجرت في رأسي ، وأحسست بالغثيان . حين تمرض تتألم
لأجل نفسك وحين لا تكون مريضاً تتألم فتمرض بالجميع ! حين خرج صديقي من
غرفة التصوير بالأشعة وجدني في مقعدي شاحبة ، وفي صدري تنهدات كل المعذنين
والمقهورين امام المرض حين يتحالف مع الفقر ...

وحينما غادرنا المستشفى كنت أبدو أنا المريضة ، وصديقي في حال أفضل ، لأن
رجل المصعد تأملنا قليلاً ثم اختارني أنا ليقول لي : سلامتك يا مدام (على اعتبار اني
أنا المريضة) ! ..

و فعلاً كنت مريضة بالحياة . مريضة بفضاعة ما يدور . ولو أدخلوني غرفة الأشعة
والتقطوا صورة لصدري لوجدوا فيه وطناً يبكي ! .

أما من عينين جديدتين تنبضان احتجاجاً؟!؟

ليل وشريط مسجل لأغانٍ عربية مختلفة ، وبعض أصدقائي الأجانب ينصتون الى
موسيقانا الحزينة .

طلب مني أحدهم ترجمة ما يقوله المطرب العاطفي . ترجمت له « بسبع أمواس
قلبي قطعته » .

قال ساخراً : وهل الحبيب عندكم تمساح ؟

ترجمت المزيد : « ويلي من حبههم ويلي » ...

قال : وهل الحبيب المركيز دو ساد ؟ ..

ترجمت : « نار يا حبيبي نار » .

قال : إرهابي ونيروني أيضاً ! .. ترجمت المزيد . سألوني : لماذا الحب لديكم

قمعي وباتس ونواحي وسادي و .. و ...

قلت لهم : الشريط الذي سمعتموه لا يمثلنا تماماً .

ثم ان الحب لديكم هو أحياناً مشبع بالنواح والسلبية والخللان على طريقة

« شيرلي باسي » الندابة « أنا التي لا أملك شيئاً .. أنا التي لا أملك أحداً .. أعبدك... »
الى آخر المناحة ...

قالوا : حسناً . اسمعينا نماذج من « أغنية الاحتجاج » Protest Song لديكم .

قلت : لا شريط الآن لدي .

* * *

ولم أقل لهم ان أغنية الاحتجاج غير موجودة في وطننا العربي - حتى اشعار آخر -

وان هذه الرقعة من الأرض الممدودة بجسدها من المحيط الى الخليج تعاني مخاض

الثورة ، لا تصدر عنها أغنية احتجاج حقيقية واحدة ...

الوطن العربي في زلزال ، والمطرب العربي ما يزال يكرر أغاني عصور الانحطاط

ومعانيها ، بل وما تزال أفكاره عن الحياة موروثه من مسرحيات أواخر القرن الثامن عشر (موسيقار الشرق عبد الوهاب مثلاً صرح دون أن يرف له جفن « إن الرجل يفني نفسه من أجل قضية، أما المرأة فممن أجل فستان» . طبعاً ليس من المطلوب من الفنان أن يكون منظرًا ايدولوجياً ، لكنه مطالب بجد أدنى من الوعي الجماهيري والفكري والمعاصرة خصوصاً إذا كان قد نال قبلها بأسبوع وسام دولة ثورية اشتراكية من مبادئها الأولى تنظيم المرأة العاملة وتبنيها للنضال القومي ، والمرأة فيها عضو فعال على المستوى الحزبي والسياسي والعملي) ..

أيها العرب ، أين أغنية الاحتجاج ؟ ..

الاحتجاج يفور في دم الجيل العربي الصاعد ... الاحتجاج كهارب يطلقها من صوته ومشيته ، ومع ذلك فالأغنية العربية ما تزال تعيش مرحلة الحوار والخصيان ...

* * *

يفني عامل منجم فحم عندهم منذ أوائل الخمسينات :
(١٦ طن كل يوم ، وماذا أجني ؟ أكبر يوماً ، وديوني تكبر . قديس بطرس لا تناديني ، فأنا مدين بروحي لمحاسن المؤسسة ا) ...

* * *

تفني لإحداهن من عندهم :
(ذات صباح شتائي ، صديق وأنا ، ذهبنا بالسيارة ، ننتزه خارج العاصمة ، وكنت سعيدة لأنني أحيا) ...
هكذا ، صرخة احتجاج ناعمة نفاذة ضد أن نعيش دون أن نحيا ، صرخة ضد تبلد حواس الراكضين خلف (المجد الاجتماعي) ...

* * *

سيدتي رابندفيل .
لم شفتاك باردتان هكذا ؟ ..
سيدتي رابندفيل .
لماذا تتنفسين ببطء هكذا ؟ ..
الى أن يقول :
وزهرتنا لن تذبل أبداً ...
المطرب هنا (كاتس ستيفنس) يفني حبيته الميتة دون أن يبكيها .. إنها أغنية

احتجاج على النواح التقليدي في مواجهة الموت ... إنه يقول لنا ببساطة : ليس المهم الحبيب بالذات ، أي نظرية « أنت وبس اللي حبيبي » عند العرب ، المهم هو أن لا يفقد الإنسان طاقاته على الحب ، فالناس عابرون ، والعشاق يتبدلون ، المهم هو أن نحب حقاً وباستمرار ...

* * *

بغني مارفن جاي محتجاً على المجتمع الاستهلاكي الآلي :
(أريد أن أسأل سؤالاً . أليس هنالك من يبالي حقاً ، بانقاذ عالم بائس ؟ سيأتي يوم تنسى فيه الأرض الغناء . والأزهار لن تكبر . الأجراس لن تفرع ... يا له من عار .. يا لأسلوبنا المخزي في الحياة ... عش حقاً . عش لأجل الحياة ودع غيرك يحيا .. الى آخره ..) .

* * *

بصرخ مارفن جاي محتجاً على حرب فيتنام :
(لا حاجة بنا لتصعيد الحرب . الحب وحده يستطيع هزيمة الكراهية . لا تعاقبي بوحشية . تعال ، حاورني لتفهم ما يدور . من أولئك الذين يدينوننا ، لمجرد أن شعرنا طويل ؟) .

* * *

ولكن ، لماذا سرد النماذج وهي لا تنتهي ، وفي أميركا وحدها أكثر من ألف « مطرب احتجاج » غير نجومهم الذين نسمع بهم (بوب ديلان . مارفن جاي . ماريان ماكيسا .) ومغمورهم أفضل من مشاهيرهم (ربما كما عندنا وكما في كل مكان) ... ومن الطبيعي أن ينبع احتجاجهم من واقع مشكلاتهم وحياتهم وبالتالي فان استيراد « أغنية الاحتجاج » غير ممكن إلا جزئياً ... ولكن استلهامها أكثر من ضرورة ... وتجب ملاحظة ان أغنية الاحتجاج ليست مجرد الفاظ شعرية غاضبة ، هنالك صوت المغني الغاضب وهو غالباً هادئ النبرة حنونها ، وهنالك الموسيقى الجديده وولادتها منوطة بولادة أفكار جديدة وحاجات جديدة ...

أي أن أغنية الاحتجاج هي ثورة في المضمون والشكل معاً . انك لا تستطيع أن تلتصق الفاظ أغنية احتجاج على لحن ما إذا كان اللحن نفسه غير جديد وليس في طريقة ادائه نبرة الاحتجاج وانما هو مجرد امتداد لنواح سلفي . أغنية الاحتجاج هي ثورة متكاملة في المضمون والشكل ونبرة المغني وحتى حركات جسده ... أين هي في

وطننا الممتلئ قرفاً واحتجاجاً ؟ ..

* * *

في وطننا العربي وعي « بأغنية الاحتجاج » وشبه بدايات ...
لكنها ما تزال صرخات افرادية في مستنقع التفاهات الذي تعوم فيه الأغنية
العربية ...

* * *

حتى الجيل الجديد من المطربين الناشئين يتم افساده قبل أن يتفتح ...
هدف المطرب الناشئ : الخلافة ..
خلافة أم كلثوم . خلافة عبد الحليم . خلافة عبد الوهاب . من قال اننا بحاجة
لخليفة لأم كلثوم أو عبد الوهاب أو فريد الأطرش أو سواهم؟.. لقد جاؤوا وأدوا
رسالتهم مشكورين من عصرهم وانتهينا ...
اننا بحاجة الى صرخة جديدة ...
الى صوت جديد . رؤيا جديدة . المطربة الجامعية لدينا تغني ما تغنيه الأمية بسبب
سقوطها في فنخ (الخلافة) الفنية لدينا ...
لماذا كل فنان ناشئ يريد أن يخلف فناً آخر ؟ ألا يريد أحد أن يكون نفسه ؟
ألا يريد أحد أن يكون جديداً ؟ أليس هنالك من يحس بالحاجات الجديدة لمجتمعنا ،
بالصرخات العصرية والتطلعات الشعبية الجديدة ...
لماذا لا نقرأ تصریحاً لمطربة جديدة ترفض فيها أن تكون خليفة أحد ، وتصر على
أن تكون عصرها ونفسها وشخصيتها ؟ .
لماذا الكل ساقط تحت سطوة الأسماء القديمة وبريق النجوم ...
أما من عينين جديديتين لمطرب شاب يبصر نفسه ويصرخ أنا ...
ويرفض ويرفض ويحتج ...
يحتج يحتج يحتج ...

حذار من السياحة فوق الجرح العربي !

الثوار الفلسطينيون الذين أطلقوا النار في القدس على باص السياح الأميركيين وجرحوا فتاة أو أكثر ليسوا غير عادلين . كل ما فعلوه هو تذكير العالم ببداية يكاد ينساها الفرد الأميركي ، ألا وهي ان السياحة على فوهة بركان ليست مأمونة العواقب ، وان القدس لم تهود ولم تدجن ولم ... ولن ... وأن البركان لا يزال يغلي ... وأن السياحة فوق الجرح العربي لن تكون أبداً نزهة الى شلالات نياجارا بل تورط في الدخول تحت شلال الدم والنار العربي ...

سيقولون : ما ذنب السياح الأبرياء ؟ ! . أقول لكم : في هذا العالم الملوث لا أحد يستطيع أن يدعي البراءة . لا أحد يستطيع أن يكون غير مسؤول عما يدور في هذا العالم المزدهم بالبؤس ، لا أحد يستطيع أن يدعي أنه لم يكن يدري . حتى الجمل بأنه متواطئ في الجريمة جريمة يجب عقابه عليها . في أرض محتلة بالظلم والقهر ، كفلسطين ، لا أحد يستطيع أن يكون سائحاً ولو شرفنا بقدمه من ولاية فلوريدا في أميركا حاملاً جواز سفر من أقوى دول العالم (حالياً) . ان مجرد التفكير في السياحة في أرض أهلها محرومون من الحياة فيها هي جريمة . (يقول لابرويير في كتابه «الطبايع» : « عار أن نكون سعداء أمام بؤس الآخرين ! ») .

وأقول : جريمة ألا نبالي ببؤس الآخرين ، خصوصاً حينما نكون نحن أول المسؤولين عنه ... والشعب الأميركي مسؤول عن البؤس الفلسطيني . فمن أمواله التي يدفعها ضرائب ، يتم شراء أسلحة الدمار وتزويد الصهيونية بها لإبادة الشعب الفلسطيني . وإذا كان المكلف الأميركي يجهل ذلك فمن الضروري لإبلاغه هذه الحقيقة بأي وسيلة وأي ثمن كي يحاسب مسؤوليه على ضوئها أو يشاركهم الجريمة ودفع الثمن أيضاً ! ..

سيقولون : أين « العدالة » في اطلاق النار على باص للسياح ؟ ! .

أقول لكم : لماذا يكون مطلوباً من الفلسطيني وحده أن يموت بصمت من أجل تحقيق « العدالة الشعرية » و « العدالة المطلقة » ؟ .. هل كان « عدلاً » أن يُطرد من أرضه ويشرد ويعذب ويقهر؟.. لماذا يكون مطلوباً منه وحده أن يكون « عادلاً » بعد أن مارس عليه العالم أقصى ظلم ممكن طيلة ما يقارب نصف قرن ؟ .. أليس من حق الفلسطيني أن يبلغ الشعب الأميركي – الذي باسمه يمارس مسؤولوه انحيازهم الاجرامي نحو الصهيونية – حقيقة ما يدور ، ولو كتب رسالته بالنار على مشط قدم تلك السائحة الجريح الراقدة في المستشفى الآن ؟ فربما كانت الرصاصة المرصودة لقلب الفدائي ، الذي أطلق النار على الباص السياحي الأميركي ، مدفوع ثمنها من الضريبة التي تقدمها هذه الفتاة نفسها لحكومتها المنحازة للصهيونية ، ومن الواجب إذن ابلاغها ذلك ولو برسالة من نار على جسدها ! فتلك هي اللغة الوحيدة المتبقية التي فرضها العالم المتوحش على الفلسطيني المناضل . وإن عالمنا « عدالته » احراقنا باغصان الزيتون لا يستحق منا غير « عدالة » لغة القنبلة ! ..

القدس ، لا أورشليم

بينما تنام أقلية على وسائل السلم المزعوم مع «إسرائيل»، دون أن تدري أن وسائل السلم غير العادل محشوة أبداً بالمتفجرات التي لا بد أن تفجرها الشعوب بكل من يغفو فوقها ، وبينما بدأ شخير الخدر عن جوهر القضية الفلسطينية تتردد أصداؤه في بعض أنحاء الوطن العربي ، مقطعاً بهذيان عن «سلم» هو في جوهره انحسار عن روح ٦ أكتوبر الثورية ، لا يزال القلب العربي يلتهب ...

لا تزال الاشتباكات على حدودنا المتاخمة لـ «إسرائيل» تدور... ليست حرباً لكنها مثل فوهة البركان الملتهب الذي ينم عما في جوفه من حمم ونيران مضغوطة وخبيثة ... الاشتباكات اليومية هي إيقاع جو الحرب الذي لا يمكن أن يتوقف دون التوصل الى سلام عادل ترضاه الشعوب العربية ...

* * *

الى الصديقة التي لا أجرؤ على ذكر اسمها خوفاً عليها من سلطات الاحتلال في فلسطين ، الى التي كانت رفيقي في الجامعة الأميركية ثم عادت الى القدس ، وسقطت في فخ الاحتلال حين سقطت القدس ... وصلتني رسالتك عن طريق خالك في اسبانيا . وقد سافرت أكثر من مرة، وكتبت لك أكثر من مرة، ولكنني عجزت عن ايداع رسالتي اليك في صندوق البريد ... اغفري لي ، فيدي ما زالت عاجزة عن كتابة عنوانك على الظرف ! .

يدي ما زالت عاجزة عن كتابة عبارة : «أورشليم - إسرائيل» بدلاً من : القدس - فلسطين ! .

مسافر إلى سيرك الغرب !

وأنا أتأمل صور سوبلختسين بعد خروجه من وطنه روسيا ، وأنا أتأمله يتناول
طاقات الزهور المقدمة اليه في ألمانيا الغربية ، وشوك الحزن يغزو وجهه ، ثم يرحل إلى
سويسرا وفي عينيه ينمو حزن عميق ، والناس والصحافيون يحيطون به كأنه دب قادم
من روسيا إلى سيرك العالم الغربي ، لا أدري لماذا تلح علي أبيات قصيدة شاعر يوناني
اسمه كافافي يقول فيها :

وتقول لنفسك ، سوف أرحل .
إلى بلاد أخرى ، إلى بحار أخرى ،
إلى مدينة أجمل من مدينتي هذه .
لا أرض جديدة يا صديقي هناك .
ولا بحر جديداً : فالمدينة سوف تتبعك .
وفي الشوارع نفسها سوف تهجم إلى الأبد !
وفي البيت نفسه سوف تشيخ وتموت !
لا سفن هناك تجليك عن نفسك .
آه ! ألا ترى أنك يوم دمرت حياتك
في هذا المكان ،
دمرت قيمة حياتك ،
في كل مكان آخر على وجه الأرض ؟ ! .

* * *

أليس هذا ما تقوله عينا سوبلختسين في صور ما بعد الخروج من وطنه روسيا ؟ ..

القتل الصامت

النجم الذي بدأ يسطع في سماء اميركا المسرحية اسمه ويليام كالي .
شكسبير الاميركي هذا ، لم يكتب مسرحية خالدة ، وليس ممثلاً مبدعاً ، وليس
وسيماً ، وليس مثقفاً خارقاً ، لكنه بدأ يظهر على أغلفة المجلات هناك ، (مجلة روك
أوفر) ، وبيعت من اسطواناته التي يروي فيها حكايا مغامراته ماثت الالوف ، وقد
جمع حتى الآن ثروة صغيرة وينتظر أن يصبح قريباً من أصحاب الملايين ... فماذا
فعل ويليام كالي ؟ (هل بينكم من يذكر هذا الاسم ؟) ... وما هي عبقريته التي
قذفت به في غضون شهر إلى مصاف نجوم اميركا ؟

عبقريته هي انه قتل ٤٠٠ امرأة وطفل ورجل مدني !

يوم ٦ آذار (مارس) ١٩٦٨ دخل الملازم ويليام كالي (النجم حالياً) ورفاقه
من الجنود الاميركيين قرية ماي لاي بفييتنام الجنوبية ، وهناك أبدى نشاطاً فائقاً على
صعيد المذبحة ، فتمّ في ليلة واحدة ابادة ٤٠٠ شخص مدني من سكان القرية ...
ويومها ثارت شببية اميركا ، وكل محب للسلام والانسانية لم يخدر النظام ضميره ،
واصبحت قرية (ماي لاي) رمزاً لبشاعة ما اقترفته بلادهم بحق شعب فيتنام وبقية
شعوب الارض الاخرى ...

ومثل يومئذ الملازم ويليام كالي أمام محكمة عسكرية وجهت اليه تهمة قتل ٢٢
شخصاً على الأقل وحكم عليه بالسجن المؤبد وذلك عام ١٩٧١ .
ولكن الحكم لم يكن سوى عملية تخدير لضمير الأمة على الطريقة الاميركية ...
وبكوكتيل من الألاعيب القانونية (في البداية اوقف نيكسون تنفيذ الحكم ثم
خفض مدته إلى ٢٠ سنة ثم إلى ١٠ سنوات ثم جاءت محكمة جديدة طعنت في حكم
المحكمة الاولى إلى آخره ...) ، المهم ، تم إطلاق سراحه ... وانطلق يتمتع بحماية
اليمينيين في اميركا ، وتحول إلى نجم يعتاش من سرد مغامراته في فيتنام بعد ان تبنته

وسائل إعلامهم ، وأبرزته في احاديث صحفية واحاطته بفرقة مسرحية .
وصار السفاح نجماً ، يقف كل ليلة على المسرح ليروي للناس فظائمه في فيتنام ،
ويغني حرب اميركا البشعة كما كان هوميروس الشاعر العبقري يغني حروب طروادة..
ولكن « الالباذة الاميركية » مليئة بالمخازي ، وأبشع ما فيها ان راويها هو سفاحها
الذي يعتاش من عرض يديه الملوئين بالدماء على الجمهور ... وان « هوميروس عصر
الفضاء الاميركي » هو وحش بشري صنعه النظام الاميركي وتبناه .

وهكذا نجد ان الجريمة في عصرنا هي المهنة الاولى الراجحة ... ومن يدري ، فقد
يتم إصدار جوازات سفر تفوق بأهميتها جوازات السفر الدبلوماسية ، تدعى
« جوازات سفر سفاحية » وتكون خاصة بالذين يمتنون « المجازر الرسمية » ..
ويوضع فيها إلى جانب صورة حاملها والاسم والمهنة وطول القامة ولون العيون ،
عدد الذين استطاع السفاح إنجاز مهمة قتلهم بنجاح ... ومن يدري، فقد تستحدث
اميركا وساماً خاصاً تدعوه وسام « المجزرة » ، مقابلاً « لوسام الفرسان » في البلدان
الاخرى ، ويرصع الوسام بنجوم ماسية ، وتُعطى لحامله نجمة عن كل جثة ! ..

* * *

في العدد الأخير من مجلة « شتيرن » الألمانية تحقيق مصور عن فرقة خاصة من فرق
الجيش الاميركي هي فرقة « القتل الصامت » التي تتدرب في « شاطيء الشياطين » في
باناما . وكل دورة تتألف من ٨٠٠٠ انسان بريء (وكل الناس يولدون ابرياء) يتم
تحويلهم في « قلعة شيرما » إلى ٨٠٠٠ فرانكشتاين بعد دورة تستغرق أسابيع عديدة ...
ويتم خلال هذه الدورة غسل دماغ الفتيان من القيم الانسانية ، وتنمية الغرائز الوحشية
والحيوانية فيهم بحيث يصيرون مهيبين للقيام بمذبحة في أية قرية يحتلونها في المستقبل ...
ومما لا شك فيه ان السفاح النجم ويليام كالي قد خضع ذات يوم لتدريبات من هذا
النوع شعارها « لا تفكر . نفذ ثم مت » . والمأساة ان الذين يفكرون ويخططون لأدوات
الدمار البشرية تلك هم ساسة ماتت ضمائرهم ونبتت محالهم المخبأة جيداً خلف
قفازاتهم البيض ... ان قلعة شيرما هي قلعة الطبيب المجنون الذي صنع الوحش البشري
فرانكشتاين والتي طالما شاهدناها في افلام الرعب .. والفرق الوحيد هو أن مجنون
الأدب والسينما أنجز وحشاً واحداً روع قريته ، اما مجانين السياسة الاميركيين فإنهم
يخرجون اجيالاً من فرانكشتاين باسم الوطن ، ويطلقونهم في أوطان الشعوب الآمنة
ليصنعوا أكثر من مذبحة وأكثر من « ماي لاي » ... ويخلفوا جثث الاطفال معلقة

فوق الاشجار في الحقول ثماراً دامية للعنة هذا العصر البشع ...
لقد قال ويليام كالي في اثناء محاكته : « لقد دربوني لكي أبيد الناس . دربوني
لأقتل . لقد أفهموني بصورة لا تقبل الشك ان الابداء والقتل لا يشكلان خرقاً لقانون
الاخلاق . فماذا فعلت سوى اني أدبت واجبي ؟ » ..

* * *

فرقة « القتل الصامت » ... تأملت صور افرادها جيداً ... فمن يدري .. قد
تكون وجهتهم المقبلة فلسطين لتعزيز اغتصاب «اسرائيل» لها ومساعدتها على تحقيق
أطماعها التوسعية في الوطن العربي ..
تأملوا صورهم مثلي إذا وقعت في أيديكم مجلة « شتيرن » ... فقد يكون موتي أو
موتك أيها القارئ على يدي واحد منهم ...
وقد يلعب أحدهم بعد أعوام كنجم اميركا السينمائي الاول ... كما حدث للملازم
كالي ... فرانكشتاين عصر الفضاء !

عودة بشعة للأميركي «الجميل» !

الليلة ، شعرت للمرة الاولى ، وأنا اشاهد فيلماً ، بالحاجة إلى الصفير واطلاق بعض العبارات النارية على الشاشة من مسدسي « غير المرخص » ، بل حمل مقص أظعن به صور الممثلين ، والقاء بعض قنابل الروائح الكريهة في صالة السينما لان أية رائحة لن تكون أشد قبحاً من رائحة الفيلم المعروض !

ف « السفالة » السينمائية السياسية تحرض الانسان أحياناً على معاملتها بالمثل ! .. وتزييف التاريخ وتمجيد « فضائل واخلاق » بعض الشعوب الاستعمارية على حساب الشعوب الطيبة النامية أمر أشد فظاعة ، في نظري ، من الافلام الجنسية التي تسارع رقابتنا إلى منعها ، بغض النظر عن قيمتها الفنية ، كما لو أن جسد امرأة عارية أشد خطراً على أمتنا من الافكار السياسية الهدامة !

اسم هذا الفيلم الذي عرضته احدى صالات بيروت ، خلال أسبوعين متواصلين ، « الشارة ٣٧٣ » .

وهو يروي حكاية ضابط شرطة أميركي ، يلاحق مدمني المخدرات القادمين من بورتوريكو . والبورتوريكيون في أميركا هم من البروليتاريا الرثة والاقليات البائسة ، ويلقون - كزنوجها - معاملة غير انسانية ! وفي احدى هذه الجولات البوليسية يحاول مدمن بورتوريكي الهرب فيلقي بنفسه من على السطح فيقتل ويُعتبر الشرطي الاميركي « البريء » ، ذو الرقم ٣٧٣ ، مسؤولاً عن قتله . وتتدخل «العدالة» الاميركية ، ويتم توقيف الشرطي عن عمله ريثما تُشكل لجنة تحقيق تبت في أمره ، خصوصاً ان هياج البورتوريكيين بلغ ذروته . وبعدها بأيام يجدون صديق الشرطي (وهو أيضاً من رجال الشرطة البيض) مذبوحاً بوحشية . وهنا يثور الشرطي ٣٧٣ ويعمل لكشف الجريمة رغم كونه خارج سلك الشرطة . ورغم كل ما يتعرض له من ضرب وتعذيب على يد الاقلية البورتوريكية « المنحطة » ، نجده ينتصر في النهاية

ويكشف « مؤامرة » ضد اميركا ، وصفقة سلاح يحاولون شحنها إلى بلادهم في بورتوريكو للقيام بالثورة وتحرير الارض . الفيلم يرسم لنا صورة الشرطي الاميركي التزيه الاخلاقي في مواجهة « الثوار البورتوريكيين » الذين يقدمهم لنا في أبشع صورة . ففي هذا الفيلم نجد الثائر « مجنون عظمة » ورفاقه مهووسين بالجنس والمخدرات وفكرة الثورة « صبيانية » وهو يصور عذاباتهم بصورة كاريكاتورية ساخرة ...

وعلى طريقة أفلام الهنود الحمر ورعاة البقر ، نجد الآن راعي البقر الاميركي متمصاً صورة عصرية هي الشرطي النيويوركي ، ونجد « الهنود الحمر » ، الاقلية ، في صورة الاقلية البورتوريكية ، وطبعاً يتم حصدهم بالرشاشات على يد الشرطي المغوار كما لو كانوا سرباً من الذباب ، تماماً كما كانت تم إبادة الهنود الحمر في الافلام التقليدية العتيقة ! .. جميع السود في الفيلم اشرار . وجميع البيض في الفيلم أبطال يتمتعون بكل مزايا أسطورة عبقرية الفرد الاميركي وتفوقه على شعوب الارض كلها ! .. حتى رجل الشرطة الاسود ، ذو الاصل البورتوريكي ، يجعل منه الفيلم قاتلاً لصديقه رجل الشرطة الابيض . هذا التمييز الفاشي العنصري نجده حتى على صعيد الغواني ! فالاميركية البيضاء نجدها في الفيلم تتحول إلى سيدة فاضلة تستشهد دفاعاً عن اميركا « العظيمة » ، اما المومس التي تموت غارقة في أفيونها وعارها فهي سمراء ملونة من أصل غير جرمانى ! كل البيض في الفيلم نبلاء يحبون أولادهم ويحرصون على سعادتهم ، وحتى الابيض الوحيد في الفيلم الذي « يزل » ويغرر به السود ، انما يفعل ذلك من اجل اعالة أسرته ، ويدفع حياته ثمناً لخطيئته الزوجية والمسلكية (وربما يفعل ذلك لانقاذ ما يمكن انقاذه من تحامل الفيلم على السود !) ولكن الفيلم لا يفسر لنا سبب ضائقته المالية ، خصوصاً ان زميله الشرطي (من المفروض ان راتبهما واحد) يمتلك سيارة أميركية فخمة هائلة الضخامة حرص المخرج على استعراضها في كل لقطات الفيلم دلالةً على « عظمة » الصناعة الاميركية أيضاً ! ..

منذ أعوام أغرقتنا السينما الاميركية بأفلام تتحدث عن « المجد الاميركي ، العظمة الاميركية ، التفوق ... الخ ، الاسطوانة اياها » في اطار أفلام « الهنود الحمر » ، تسوِّغ الابادة الجماعية لذلك الشعب الآمن ... وتربينا ونحن نشاهد هذه الافلام المزورة للتاريخ . واليوم تبدأ اميركا باصدار دفعة جديدة عصرية من الافلام تؤدي اللعبة القديمة نفسها . ولأن لعبة الهندي الاحمر « البشع » انكشفت للعالم ، لجأت هوليوود إلى لعبة جديدة تتلاءم وأحداث العصر ، فعادت تعرض لنا صورة « الاميركي

الجميل « الذي يحارب « الثوار البشعين » وشعوب العالم النامية ، ويتنصر عليهم ويبيدهم بصورة هذه الإبادة كما لو كانت عملاً أخلاقياً له مبرراته « الانسانية » ، وذلك في سلسلة أفلام جديدة شاهدت بعضها مؤخراً – وكلها تسخر من ثورات العالم الثالث وثواره – وكثرتها تدل على أن الامر قد لا يكون مصادفة وإنما نتيجة سياسة اعلامية مدبّرة ... واذا كان اختراع السينما انتصاراً علمياً كبيراً ، فانه من المؤسف توظيف الحضارة في خدمة الحقارة ، وفي محاولة لتسويق اضطهاد أميركا للأقليات ، والسخرية من الثورة والثوار والحرية وحق الناس في أرضهم ...

لقد كنت دائماً ضد فكرة « منع » أي فيلم أو كتاب أو منشور ... كنت دوماً أو من بأن مساوية اطلاق الحرية أقل من مساوية كتبها وبلحما ... ولكنني اقترح « مقاطعة » هذا النوع من الافلام الاميركية ، وأن يتم ذلك بناء على موقف واعٍ للمستوردين ولو كلّفهم الامر بعض الخسارة المادية ، لأن عرض هذه الافلام الدعائية الاعلامية المضللة جزء من الحرب ضدنا ، وبالتالي فان في عرضها خدمة لاميركا ، ولأنه في حال تحقيق هذه المطامع لن يبقى لأحد منا أرض أو نقود ... ولأننا جميعاً مرشحون – مع شعب فلسطين – لنكون « الهنود الحمر » في الارض العربية ! ...

إنه ثمن رصاص لرؤوسنا !

وجسر النار ممدود بين اميركا واسرائيل ، جسر من العداة للعرب تعبر عليه كل يوم آلاف الاطنان من ادوات الدمار المعدة لقتلنا ... وفي كل يوم ، كل يوم تطلع أكثر من طائرة تحمل آخر مبتكرات الاسلحة الاميركية للابادة ، هذا بينما نكون نحن منكبين على شراء آخر مبتكرات السيارات الاميركية وغيرها من المنتجات ، كأننا ندفع ثمن صناعة الاسلحة المشحونة لقتلنا !

أتساءل ، والولايات المتحدة الاميركية اليوم عدونا المباشر ، حتام نساهم في بناء اقتصادها الذي صار مكرساً لتدمير وجودنا ؟ ! .

هل نستطيع بعد اليوم ان نرى سيارة اميركية الصنع دون ان نتذكر الدبابات الاميركية الزاحفة في سيناء والجولان نحاول تدميرنا ؟ !

هل نستطيع ان ندخن لفافة تبغ اميركية دون ان نحسها وقد استحالت فجأة بين أصابعنا اصبع ديناميت يفجر تسامحنا امام مصنوعات عدو بلادنا ؟ ! .

هل نستطيع ان نرشف بعد اليوم قطرة خمرة اميركية الصنع دون ان نحس بدوار بائس كاللدوار الذي يعانيه العرب حين تنفجر قنابل الغاز الاميركية الصنع في غرف اطفالهم ؟ ! .

هل نستطيع ان نشري دمية لأولادنا من صنع اميركي دون ان نتذكر القنابل الاميركية المصنوعة على شكل دمي والتي كانت الطائرات الاسرائيلية تمطر بها اطفال المدن السورية والمصرية هدية من « بابا نويل » الاميركي ، وما يكاد الطفل يهرع اليها فرحاً حتى يموت وقد تحجرت على فمه صرخة زرقاء محترقة تشبه الابتسامة ... انها الابتسامات التي يرسمها « بابا نويل الاميركي » على شفاهنا ؟ ! .

وحينما نمسك بألة كاميرا من صنع اميركي ، نضعها على عيننا في محاولة لالقاء القبض على لحظة سعادة ، هل نملك بعد اليوم إلا ان نتذكر عشرات العيون الاسرائيلية

الملتصقة بعدسات اميركية الصنع على المدافع والبنادق المعدة خصيصاً لإطلاق النار على لحظات السعادة لكل عربي ؟ ! .

هل نستطيع ان نلتهم بعد اليوم المعلنات الاميركية دون ان تسقط في احشائنا كالسم ، وتنفجر بين أيدينا كاللعة ، لان صانعي هذه « الأطايب » يحصدون ثمن معاملهم من جوع الفقير العربي ؟ !

جائزة نوبل للسلام لطائرة فانطوم العدوان !!

بينما كانت مئات الطائرات الاميركية تنقل أسلحة الموت والدمار إلى «اسرائيل» كي تتابع افراسها للشعوب العربية ، وبينما كان الرئيس نيكسون يعلن الحرب على العرب بلغة دبلوماسية تكثفي مفرداتها بالتحدث عن حماية اسرائيل التي « وجدت لتبقى » ... إلى آخر المعزوفة الاميركية العدوانية ، وبينما شعوب العالم الحرتستنكر ذلك كله ، وبينما الاميركيون المقيمون في الشرق الاوسط ينطلقون صوب سفارتهم في بيروت في مسيرة رفض لسياسة جلاّدي بلادهم ، وقد حملوا اللافتات : «واشنطن لقد ابتاعك الاسرائيليون» - « هنري كيسنجر ، مارس الحب لا الحرب » - « العرب لهم الحق في أراضيهم » ... وبينما الحرب العدوانية التوسعية الاسرائيلأميركية تقوم بمزيد من غارات اغتيال الطفولة والانسانية والعدالة ، بينما ذلك كله يدور على مرأى ومسمع من العالم ، طلعت علينا وكالات الانباء بالخبر التالي : مُنح الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركية جائزة نوبل للسلام !!! أجل للسلام !!!

للهولة الاولى يبدو الخبر شبيهاً بنكتة سمجة على الطريقة الاميركية (براكتيكل جوك) ... نكتة ؟ بل مهزلة ! انها لمهزلة ان تمنح جائزة نوبل للسلام إلى برميل من الديناميت !!! فالمعروف أن العالم نوبل ، الذي اخترع الديناميت T.N.T ذات يوم ، قرر أن يكرّس كل ما يملك تكفيراً عن خطيئة إمكانية استعمال الديناميت ضد الانسانية ... وقرّر انفاق كل الاموال التي كسبها من اختراع الديناميت على كل ما من شأنه تعزيز السلام والعدالة ، ومن هنا كانت جائزة نوبل للسلام . وبعد حرب (حزيران ٦٧) بأشهر ، تم منح جائزة نوبل للكاتب الاسرائيلي اجنون ! وكانت صدمة للعالم الحر ، فقد كانت لجائزة نوبل يومئذ هالتها كقيمة إنسانية ... وطرححت يومها تساؤلات كثيرة عن الاعتبارات (غير الانسانية) التي لعبت دورها كي تمنح جائزة نوبل لبرميل من الديناميت !!!

وظلت هناك فئة من حسني النية أشادت « بالأسلوب الادبي الجميل » لأجنون ، ورغم يقيننا بان الأسلوب امتداد للفكر ووعاء له ، وبالتالي ليس هنالك أسلوب جميل إذا كان المضمون عدوانياً ولا انسانياً ، مع ذلك سكتنا ، بل كدنا ننسى لأننا بدلاً من مقاطعة جائزة نوبل عدنا نتحدث منذ أشهر عن ترشيح كتاب عرب « للفوز » بها ...

اما الآن ، فما هو المبرر لمنح وزير خارجية اميركا ، أي المنفذ لسياستها العدوانية المغتصبة ، جائزة السلام ؟ ؟

صحيح أن الجائزة منحت مناصفةً بينه وبين لي دو ك ثو ، الثوري المناضل المقاتل الذي أجرى وإياه محادثات أدت إلى اقرار السلام في فيتنام ، ولكن هل يشفع ذلك لكيسنجر الذي أغلق فيتناماً ليفتح في أرضنا فيتناماً أخرى ؟ كيسنجر يصافح لي دو ك ثو بيد ويعطي الإشارة للطائرات الاميركية الألف ، المحملة بالموت ، للطيران إلى شرقنا الأوسط والبدء بحرب عدوانية جديدة ! انه «دكتور جيكل ومستر هايد» السياسة الاميركية ، في يده غصن الزيتون ، وفي الأخرى خنجر يقطر بدم العرب ، فكيف يمنح جائزة نوبل للسلام في اليوم ذاته الذي يبدأ فيه مذبحه « ماي لاي » جديدة ؟ ! لو قدّم كيسنجر استقالته احتجاجاً على شحن الأسلحة إلى اسرائيل لاستطعنا ان نجد مسوّحاً لمنحه جائزة السلام ... ولكن !

ولكن ، اين تعيش اللجنة القيمة على جائزة نوبل ؟ ! هل تعيش في محجر فكري ولا تعرف شيئاً عما يدور على وجه الكرة الارضية ، الذي جرحته عدوانية اميركا في أكثر من موضع ، وتركت فيه ندباً لا تندمل آثارها أبداً ؟ ! .

ألا يقرأ افرادها الصحف ؟ ألا يستمعون إلى الاذاعات ؟ ألم يشاهد أحدهم قط صورة طفل أحرقه النابالم الاميركي في فيتنام أو فلسطين أو سورية أو مصر ؟ هل يظنون ان كيسنجر يشحن على الطائرات الشوكولاته و « البونبون » والدمى لاطفال الشرق الاوسط ، والحمام الابيض وغرسات الزيتون لاهله ؟ ! . - بلى ... كان يشحن لنا الدمى : أميركا تصنع لاسرائيل قنابل على شكل دمى الاطفال ، ترمي بها طائراتها ويحرق بها أطفالنا حين يحاولون اللعب بها - . (معلومات من تقرير الاطباء الموفدين إلى سورية) .

* * *

في نطاق اسبوع الاغتراب اللبناني تنظم جامعة اللبنانيين في العالم مهرجاناً لالقاء

الشعرين الطلاب الثانويين والجامعيين. نعم امهرجان لالقاء الشعر! .. كأن ما يدور بيننا وبين «اسرائيل» هو «مساجلة شعرية» لاحرب به «الفانتوم»! كأننا في سوق عكاظ لا في ساحة حرب! هذا بينما ينشط يهود العالم بلجمع التبرعات وقد جمعوا مئآت ملايين الدولارات في أيام ، وأيام اخرى وتمحول الملايين إلى طائرات وقنابل تمطر فوق سمائنا ، وقد تسقط واحدة منها فوق مهرجان الخطباء! ما أشد اغتراب المغتربين عن لبنان! بل ما أشد اغتراب بعض اللبنانيين عن لبنان!
فبينما كان بعضهم مشغولاً في بيروت بانتخاب أجمل كلب وأرشق كلب ، كان عشرات اللبنانيين على بعد بضعة كيلومترات منهم يُحصدون في جنوبي لبنان بمنجل القنابل والموت والدمار ... وينامون وملء افواههم الدماء ...
المهم أن أجمل كلب نام ليلتها وفمه ملآن بالحلوى! ..

المأزوشية العربية والسادية الإسرائيلية

« انني اتهم عباس محمود العقاد بالسرقة الادبية ! » ، قالها أديب معروف واسترعى في كرسيه متخماً بالرضى عن الذات والنوم ، وكأنه « ادى قسطه للعلی ! » واقبل بقية رفاق السهرة عليه مستفسرين . كيف ؟ وأين ؟ قال بطمأنينة : هل قرأتم رائعته « سارة » ؟ وهل قرأتم رواية « نهاية علاقة » لجراهام جرين ؟ ما رأيكم في هذه السرقة الأدبية المفضوحة ؟ ! وعدنا إلى دهاليز الذاكرة ، ولم يجد الذين قرأوا الكتابين (« سارة » للعقاد و « نهاية علاقة » لجراهام جرين) مفرأ من الاعتراف بالتشابه الهائل بين القصتين ، واتخذ الجميع قراراً بالاجماع بإدانة عباس محمود العقاد بالسرقة الادبية وانقضت السهرة ، وذهب قضاة الادب ومخلفوه للنوم بضمائر أدبية قريرة العين ! ..

وعدت وسؤال واحد يعذبني : لماذا قررنا جميعاً ، دون أن يرف لنا هذب ، ان عباس محمود العقاد سرق قصته « سارة » من جراهام جرين ، دون أن يخطر ببال أحدنا احتمال آخر هو ان يكون جراهام جرين هو الذي سرق قصته من العقاد ؟ العقل العلمي الحيادي المتجرد يجب أن يفترض ، أمام حالة كهذه ، ثلاثة احتمالات ويحقق فيها :

- ١ — أن يكون العقاد قد سرق « سارة » من جراهام جرين .
 - ٢ — أن يكون جراهام جرين قد سرق « نهاية علاقة » من العقاد .
 - ٣ — ان لا يكون أحدهما قد اطلع على نتاج الآخر — أي أن يكون هنالك توارد نحواطر — أو أن يكون كلاهما استقى فكرة روايته من مصدر ثالث مشترك .
- وعدنا إلى الكتاين ، فوجدنا أن العقاد كتب « سارة » قبل أن يكتبها جراهام جرين بعشرة أعوام ، وهذا معناه انه إذا كانت هنالك « جيمسبوندية أدبية » فبطلها هو الأخ جراهام !
- المهم ليس التساؤل هل اطلع جرين على « سارة » للعقاد ، وهل هي مترجمة

للانكليزية أم لا ، وهل في الامر سرقة أم توارد خواطر .
لا ، المهم في نظري ظاهرة إدانة عباس محمود العقاد لمجرد أنه كاتب عربي ،
ولمجرد ان جراهام جرين أجنبي !
المهم تلك البساطة التي تمت بها ادانته من قِبل جمع المثقفين ، كما لو كان الامر
بدهياً ولا يحتاج حتى إلى نقاش !
المهم التنبيه إلى خطر السقوط فريسة عقدة النقص أمام الاجنبي ، وهي ظاهرة
خطرة في مجال الادب ، وغير الادب .

بعد ٥ حزيران كان همنا نقد الذات كردة فعل على نعمة تمجيد الذات الخطابية
التي عشنا في خدر حشيشها بعد هزيمة ١٩٤٨ ... كانت ردة الفعل يومها خاطئة ،
وعاش العربي في وهم العظمة ، ورقص أعواماً على ألحان « أمجاد يا عرب أمجاد » ،
حتى كانت هزيمة ١٩٦٧ ... ويومها صار شعارنا إحراق الاقنعة ، وكان ذلك ضرورياً .
وصرنا نحاول كشف عورات الانسان العربي والحكم العربي ، وكان ذلك ضرورياً .
ولكن يبدو اننا بالغنا في ذلك بقدر ما بالغنا قبل ١٩٦٧ بالحرب الخطابية ، حتى كدنا
نسقط بعد ١٩٦٧ في فخ هزيمة أخرى خطابية . وانتقلنا من موآل تمجيد الذات المبالغ
به إلى موآل تحقير الذات المبالغ به .

وعاماً بعد عام ، كاد يرسخ في أذهاننا ان التخلف العربي أمر بدهي لا يناقش —
التخلف الأدبي والاقتصادي والعسكري — وترسخت في الأذهان أسطورة التفوق
الاسرائيلي « الكومبيوترى » الذي لا يُقهر ...
لا . لا . لا .

اننا نتحدث عن عظمة بعض الادب الغربي كي نتعلم منه ونتفوق عليه ، لا
لنصاب بعقدة نقص امامه .

اننا نتحدث عن عدونا الاسرائيلي واستعداداته العسكرية كي لا نكرر غلطة ما
قبل ١٩٦٧ ، ولأن المبالغة في تقييم قوة الخصم خير من الاستخفاف الخاطيء به .
ولكن حذار من ان يتحول تقييمنا لقوة الخصم إلى أفيون أكثر خطورة من أفيون
الاعتداد الخطابي بالذات ، وهو أفيون التوهّم بأن العدو لا يقهر ، وبأن « الفانتوم »
الاسرائيلية لا تُواجه ، وبأن أي أديب غربي هو أفضل من أي عبقرى عربي !
يبدو أن علينا أن نحذر من خطر الاسترسال في نعمة تقريع الذات وتحقيرها .
فالمازوشية العربية ستجد السادية الاسرائيلية لها بالمرصاد .

أعيدوا الشمس والفرح والحب إلى الثائر !

كاتب عربي ، ربع مشهور ، صرح لاحدى المجلات بأن دور النشر في بيروت رفضت نشر مخطوط رواية له لأنها « ثورية ! » ...

أيتها الثورية ، كم من الجرائم الأدبية ترتكب باسمك !
فقد كان من سوء طالع الاديب انني اطلعت على مخطوط روايته لدى صديق مشترك ، وبالصدفة وأذكر بوضوح انني قلت يومئذ لذلك الصديق : « انها رواية تسيء في نظري إلى الثورية لما تتضمنته من سماجة وثقل دم ! »
... اجل ، سماجة . هذه هي الكلمة ، وما كنت لأكتب هذه السطور لو لم تكن هذه الملاحظة عامة أكثر منها خاصة تتعلق بكاتب معين .

... اريد ان اسوق هذه الملاحظة العامة التي خرجت بها بعد قراءة عشرات المخطوطات الروائية السياسية مؤخرآ .

بعض كتابنا الجدد ، (حتى بعض أصحاب الاسماء المعروفة) ، الذين يتحدثون عن بطل « ثوري » ، يرسمونه على الوجه التالي : سمج . فاقد لروح النكته . يحتقر المرأة الا في حالات التعاطف « من فوق » . لا يعتمد على رفيقته الثورية ، فهو إما أن يشتهيها أو يشفق عليها ! شخصيته المملّة جنازة متحركة .

وبعض كتابنا الذين يدعون أن رواياتهم « ثورية » ، وأن دور النشر ترفضها لذلك ، هم في الواقع كتّاب لصفحات مملّة ، لا علاقة لها بالادب ، وانما هي مجرد محاضر ندوات سياسية وعقائدية ، ومحاضر كل حوار ممل دار بين المؤلف والمنكوبين بمعرفته .

أكثر هذه الروايات موالية تماماً للشعارات الثورية متضمنة لكل لافتاتها وكليشياتها ، ولكنها فاقدة لأية روح فنية ولأية شرارة ابداع . فالمنشور السياسي ، مهما كان نبيل الغاية والاتجاهات ، ليس فناً !

وهذه الكلمات أخطها لأحدّر شبابنا الطالعين من الخلط البشع بين البيانات والفن ،
بين النشرات السياسية والفن ، بين الشعارات والفن .

على انه من البدهيات ان السياسة ليست خارج الفن ، لان الفن ليس - ولا يمكن
ان يكون - خارج الحياة . والنشرات السياسية ليست نشرات جوية عن حالة الطقس
في استراليا في القرن الماضي ، وانما هي تعبير - أو بعض تعبير - عن واقعنا العربي
المعاصر ، ولكن نسخها بإتقان أو إدخالها على حنجرة بطل روائي ميتّ روائياً لا يكفي
لإبداع ذلك النسيج الحي الخالد المسمى فناً !

إنّ رفع شعارات الثورية ، وترديدها كالبغاوات في عمل روائي على لسان أبطال
الرواية ، أمر يسيء إلى الثورية أكثر مما يسيء إلى الادب ! ومطلوب من الثوريين
أن يحموا أنفسهم من طفولية الأدب الثوري أكثر مما هو مطلوب من الأدباء حماية
ملكوتهم من الدخلاء تحت دروع الثورية !

* * *

فالفن العظيم ليس انعكاساً للواقع بقدر ما هو تبشير بالمستقبل. وليس مطلوباً من
الجيل الأدبي المعاصر أن يكون مجرد مرآة عادية للأحداث المعاصرة بالضرورة ،
بقدر ما هو مطلوب من روح كلماته ان تكون شبه نبوءة عن المستقبل وتحريض
له ، كما هي زجاجة الساحرة الكروية الشفافة .

أجل ! ..

الأدب الثوري الشاب المعاصر - إلا في ما ندر - يزيّف الحياة وبالتالي يخسر
الفن والسياسة معاً . إنه يصوّر الثوري في صورة غير جذابة إنسانياً . وأنا أرفض ان
تحتكر البورجوازية كل الصفات المحيية ، مثل خفة الدم واللفظ والعذوبة والرقّة
والقدرة على الحب والاستمتاع بالحياة والشمس والفرح ، وارفض كل الروايات
التي تصور الثوري إنساناً راهباً مترهاً عن الحب والجنس والفرح والألم والبكاء ...
وحتى لحظات الضعف والصلاة !

مطلوب من الرواية العربية ان « تؤنسن » الثائر وتكفّ عن رسمه داخل تلك
الهالة اللاواقعية السمجة الغبية ، كما لو انه يقضي وقته كله في المقاهي بالجدل العقيم
الممل ، والأحاجي الفكرية ، واتهام كل الناس البسطاء بالخيانة العظمى ، بما في ذلك

احتقار والديه ، والتصرف تحت تأثير الاعجاب بشخصية «لامتمي» كامو الذي يتميز
بالذهاب إلى السينما ليلة وفاة والدته !
مطلوب من الأديب العربي إعادة الإنسانية إلى صورة الناثر . إعادة الدمع إليه ،
والفرح ، والحب ، والجنون ! .. أي الشعر .

نحن زرعنا الشوك !

كثيرة هي المقالات النقدية التي قامت بمراجعة لفن ٦ أكتوبر ، أي الاعمال الفنية التي تستوحي ذلك الحدث التاريخي المهم . وقد اطلعت على معظمها ، وكان القاسم المشترك الذي يجمع بين تقويم أكبر النقاد للنتاج العربي في هذا المجال ان فن ٦ أكتوبر كان على صعيد المسرح والسينما سيئاً وفاشلاً ، وأن حاله على صعيد الأدب لا يثير الحسد ! وكان كل ناقد يحصي العوامل العديدة التي سببت نكسة الفن في أكتوبر - وهم على حق في رأيهم وفي أكثر الملاحظات التي أبدوها - غير انهم جميعاً نسوا عاملاً مهماً و أساسياً أسهم في الدرك الذي انحطت اليه الحالة الفنية ، ألا وهو مسؤوليتهم هم شخصياً عن هذا الحصاد الفني الرديء !

من الواجب تذكير النقاد بالخطأ النقدي البالغ الذي ارتكبهه - وما زالوا - منذ هزيمة ١٩٦٧ ، ذلك الخطأ المسؤول في نظري - ولو جزئياً - عن تدهور الفن « الملتزم » ، وبالاحرى عن تحوّل الالتزام إلى هاوية خراب في بدلاً من قمة عطاء... ان من يتابع النقد الفني الذي يُكتب في الصحف والمجلات « الملتزمة » وغير الملتزمة يلحظ إلحاحاً من بعض الذين نسميهم - تجاوزاً - بالنقاد على امتداح الاعمال ذات « المضمون التقدمي » بغض النظر تماماً عن قيمتها الفنية . كان هناك باستمرار انحراف مؤسف نحو القبول بالتقريرية والمباشرة والخطائية ، ولو تم ذلك كله في اطار من الركافة الفنية . ولما صدرت قصص هي أشبه بمحاضر الجلسات الحزبية صفقت لها جوقة نقاد « الالتزام » دون مراعاة الحد الأدنى من الاعتبارات الفنية التي يفترض توافرها في أي عمل فني .

وهكذا فسد جيل من الشبان الناشئين ، وصارت أنظارهم موجهة نحو تضمين أعمالهم أكبر عدد ممكن من الكليشيهات والشعارات المرضي عنها من قبل اولئك النقاد ، وكأن كل وطني هو فنان بالضرورة ، وكل تقدمي مخرج سينمائي ، وكل

حزبي مسرحي أو شاعر ! لقد تغاضى اولئك النقاد كثيراً عن المقاييس الفنية ، عن الموهبة ، عن الأصالة ، عن شرارة الابداع ، وصاروا يتحدثون عن الأدب كما لو كان خطبة في مؤتمر سياسي ! وشاعت مفاهيم كثيرة خاطئة . كان الخطأ الأساسي هو في سوء فهم معنى الالتزام ، وبالتالي العلاقة بين الأدب والحدث السياسي .

بعد ٥ حزيران ، صار كل فنان مطالباً بالتعبير عن ذلك الحدث الحزبي ، ولو بشكل فجّ ومباشر ، وإلا أنهم بعدم الانفعال مع قضايا الجماهير . بعد ٦ أكتوبر تمت إداة كل الذين « انفعلوا » مع القضايا الجماهير في هزيمة حزيران ، وصار مطلوباً منهم فوراً تبديل قناعهم الحزباني بقناع أكتوبري . ولدت تسميات لا علاقة لها بالفهم الصحيح لروح الفن ومهمته . فالفنان ليس مجرد « كومبيوتر » نحشوه بالمعلومات « الهادفة الملتزمة » ونتلقى منه فوراً الاجوبة المطلوبة . وعملية الخلق الفني قد تستغرق أعواماً طويلاً . والالتزام لا يعني بالضرورة التسجيل الحزبي لأحداث العصر ، بل المهم في العمل الفني هو أن يكون عملاً فنياً أولاً . فكل عمل فني جيد هو بالنتيجة ملتزم بموقف إنساني ولكن على طريقة الكاتب الفذة الراضية لكل الشروط المسبقة .

لنأخذ الكاتب الروسي العظيم نيقولاي غوغول مثلاً . ان كتابه « تراس بولبا » هو نموذج للأدب المقاوم الثائر ، المليء بالثورة على الاضطهاد والظلم وكل البشاعات التي تقف في وجه الحب والفرح والطفولة .

صدر الكتاب عام ١٨٤٣ ، وهو لا يروي حكاية « نكسة » أو « انتصار » حدث قبل صدور الكتاب بعامين أو خمسة أعوام ، بل اختار مؤلفه تصوير حقبة من تاريخ شعبه تعود إلى عام ١٥٦٩ (أي قبل ٣ قرون من ولادته) وقد وجد في نضال الشعب الروسي وفلاحيه الأوكرانيين ضد الاقطاع البولوني وتسلطه في ذلك الوقت الاطار الذي تدور فيه احداث قصته الهادفة ، دونما ارتزاق مدعي الثورة ، ودونما استجداء لتصفيق عملاء السلطة أو بعض نقاد العصر القصيري النظر النقدي .

فالالتزام ليس إلزاماً بأحداث معينة وانما هو روح ثورية تفيض من العمل المبدع الذي يمكن ان يكون قصة حب أو حكاية قط (كما في كتاب « جيني » لبول جاليكو) أو حكاية طائر (كما في كتاب « بجوناثان ليفنغستون النورس » لريتشارد باخ) ، وغيرها من الادب العالمي العذب الذي يستطيع حتى الاطفال قراءته والتأثر بروحه الثورية دونما قسر . والخطأ الاساسي الذي وقع فيه بعض النقاد الملتزمين هو التوهم

بأن من ضرورات الأدب الملتزم ما يلي :

- ١ - ان يكون البطل فدائياً أو مقاتلاً أو فرداً في حزب ثوري .
- ٢ - أن يتحاشى الابتسام أو الحب أو المزاح أو الضعف البشري ، حتى كاد يرسخ في أذهان القراء ان الثوري هو بالضرورة سمج وثقيل الدم وبليد العاطفة !
- ٣ - ان يكون حوارهِ باستمرار خطباً وطنياً ، ومن الضروري ان يلقي في المطبخ على زوجته باستمرار مواعظ فكرية عن استراتيجية المعركة وتكتيكاتها ومن الأفضل ان يباشر ذلك منذ ليلة العرس ! وفي اختصار ، وقع أكثر نقادنا في الخطأ الذي حذر منه ارنولد ويسكر ، المسرحي البريطاني اليساري المعاصر ، حين قال : « الهزء والسخرية ، اللذان صبغ « الأشتراكيون » بهما دراسة الآلام الشخصية في الحقل الفني ، ساعدا على خلق صورة للثائر غير إنسانية تعوزها حرارة القلب . وقد يكون هذا هو السبب في ان الكثير من اليساريين يظهرون حيال الفن والفنانين الموقف الطهراني (البيوريتاني) ذاته الذي يقفه عدد لا يحصى من البورجوازيين الصغار الضيقي الأفق . » وهكذا نجد ان أكثر نقادنا من « الملتزمين » صغروا افق الفن الرحب ، ورسما عليه إطاراً من الشعارات المسبقة بحيث ان كل ما يقع خارج هذا الاطار ليس فناً وكل ما يقع داخل هذا الاطار هو فن ، حتى ولو كان مجرد محاضر جلسات لنقاش فكري !
- وما هم اليوم يصبون جام غضبهم على مسرح وسينما اكتوبر وأدب حزيران والخطأ هو أصلاً في هذه التسمية أو حتى في المطالبة بوجود أدب حزيрани وأدب اكتوبري . هنالك إبداع أو لا إبداع ، وهذا هو الاصل وكل ما عداه يؤدي إلى نتيجة محتومة هي ذلك السيل من الافلام التافهة والمسرحيات المهلهلة « الاكتوبرية » .
- وما هم يشكون من حصاد اليوم ، ناسين أن من يزرع الشوك يحصده ، وان بذور السطحية لا تنبت السنديان ! لقد نحسنا الفن ولم نربح السياسة . والسبب لخصه ببساطة ماوتسي تونغ يوم قال : « الأعمال التي تنقصها القيمة الفنية ، حتى لو كانت ذات صبغة تقدمية ، تظل عديمة المفعول من وجهة النظر السياسية . »
- المطلوب ان يعي بعض النقاد مسؤوليتهم عن انحدار « الفن الملتزم » ، وحين يتسلم أحدهم كتاباً ولد مشوهاً من الناحية الفنية ، فليذكر مسؤوليته كأب من آباء خطيئة تنفيه الفن العربي في هذه المرحلة !

أوجاع ... أدبية !!

الموضحة الأدبية اليوم : الشعر الوطني ! ... وأبرز اخطاء المرحلة الأدبية التي نمرّ بها هو التوهم بأن كل وطني شاعر .. وفي مرحلة سابقة كان الخطأ هو التوهم بأن كل عاشق شاعر ...

وهكذا كان كل عاشق يظن ان حرارة انفاسه تكفي لتحويل كتاباته من فحم إلى الماس ...

واليوم تتكرر المهزلة ضمن الموضحة السائدة أي الوطنية ، وهكذا يتوهم كل مناضل انه شاعر . (كأنه يكفي المرأة ان تكون مبتورة الذراع لتصير فينوس) ...

وهذا خطأ يشجع على التماذي فيه فئة من الشبان ذات الاتجاه الوطني السليم تكتب « نقداً » ... وهذه مهزلة أخرى ، لانه لا يكفي ان يكون المرء فرداً في حزب أو منظمة ليتم تسليمه باب النقد الأدبي في المنشورة التي تموتها تلك المنظمة ... نعود إلى الشعراء ...

الوطنية شيء عظيم . شيء رائع ومهم وضروري .. يستطيع كل وطني ان يكتب منشوراً ، أو خطبة ، أو يخطط للأجيال الصاعدة . ولكن ما كل وطني شاعر بالضرورة .

الشاعر يجب ان يكون موهوباً ، وحسنُ الاتجاه السياسي ليس بديلاً عن حسن الموهبة ...

والسؤال هو : من الذي يستفيد من كل هذه المطبوعات السياسية التي تحمل اسم « شعر » على غلافها زوراً وبهتاناً؟ وهل التهاون في مجال القيم الشعرية لأجل القيم السياسية يفيد الجيل الذي يقرأ هذا الشعر ؟ ..

اقول لا . بل يساهم في « تنفيه وتضحيل » القضايا الوطنية .

* * *

ملاحظة أخرى... أو لنقل وجعاً آخر... لقد بدأت تسري في الآونة الاخيرة في عالم الشعر موضة جديدة وهي كتابة قصيدة غزل رديئة ثم تطعيم بعض سطورها بعبارات قومية وكلمات مثل (أرضي ، وطني . إلى آخره) والادعاء بأن الشاعر يقصد من ذلك إلى التعبير عن حالة شعورية يتحد فيها جسد الارض وجسد الحبيبة وبذلك (يغازل) الحبيبة دون ان يتورط بتهمة انه ليس شاعراً وطنياً ... وقد بدأت أعراض هذه المهزلة تسري مؤخراً .

وهذه الظاهرة أشع من الاولى ... ففي الظاهرة الأولى هناك شخص وطني تدفقت مشاعره وظن أن خصب المشاعر يعني انه « شاعر » ... اما في الحالة الثانية فلدينا طائفة من المستغلين الصغار ... إنهم يبيعوننا الوطن معبأ في علبة (كونسروة) الجسد ، ويدغدغون جوعنا الجنسي والوطني معاً ، ويمتصون دم براءتنا وحاجتنا إلى الاثنين : الوطن والجنس ...

إن تمازج جسد الوطن بجسد الحبيبة أمر يحتاج إلى موهبة حقيقية كبيرة كبيرة تتسع لوعي انصهار الاثنين معاً : الوطن والعشق ...

* * *

ومع ذلك ، يظل لأصحاب هذه الفئة الثانية عذرهم أيضاً ، فـ « النقاد » أيضاً مسؤولون عن ذلك بشكل غير مباشر .

النقاد الذين يدعون الغريبة باسم الثورية ، والذين نصبوا صراطهم للأدب في يوم قيامة الثورة ، يُبدون هذه الايام استخفافاً شديداً بكل الاحزان الصغيرة الفردية التي يحس بها الانسان ... انهم يحتقرون الحب : حب رجل لامرأة ، ويقدمون حب الرجل للارض مع ان الحب وحده لا يتجزأ والذي لا يجب امرأة لن يجب أرضاً ولا قضية ... وهكذا صار الكتاب يمارسون عملية « اسقاط » سطحية لمشاعرهم ، وبدلاً من مغازلة ذراع الحبيب مباشرة نجد الشاعرة مثلاً تتغزل بذراع الشجرة ، وبدلاً من نقل الاحاسيس الفردية الصغيرة بصدق وأمانة ، صار يتم تغليفها بأقنعة وطنية كبيرة ... وهكذا أيضاً نخسر الحب ولا نربح الوطن ولا الشعر . .

* * *

كلماتي هذه ليس المقصود منها جرح أحد ، وانما ايقاظ الجميع بحنانٍ قدر الامكان !

اقرأوا هذا الكتاب القدر !

ذلك المساء ، كان قلبي حزينا . أكثر حزناً من ان أبدأ إلى الاصدقاء أو المقاهي أو حتى المناشير الاحتجاجية ! فلجأت إلى اول مكتبة بحثاً عن كتاب بوليسي بخدر أوجاعي السياسية وغيرها ريثما ألملم نفسي الممزقة من على أرصفة الحلول السلمية غير العادلة ، والنظريات الكيستنجرية للقضية الفلسطينية ...

وفي رف الكتب البوليسية لفت انظاري هذا العنوان : « الوباء العربي (*) » ! هل كنت أملك إلا شراءه ، وعلى الغلاف ما يؤكد بأنه رواية بوليسية جاسوسية بيعت منها ٨ ملايين نسخة وتدور أحداثها في بلاد العرب ؟ وحين دفعت ثمنه لم أكن أدري اني اشتريت مجموعة من أقذع الشتائم الموجهة لي كعربية .

الرواية باللغة الانكليزية . اسم مؤلفها غير موجود — كأنه خجل مما اقرفته يداه حين كتبها ! — والرواية جزء من سلسلة تصدرها دار نشر اميركية هي (اوورد بوكس) ، وهي مهداة إلى رجال المخابرات الاميركية ! واسم بطلها « نيك كارتر » ، وهو عميل اميركي سري على طريقة جيمس بوند .

وتنبهت حواسي كلها وانا أرى ، منذ الغلاف ، عدوانية هذا الكتاب تجاهي كعربية . فعلى الغلاف صورة أوربية عارية يمين عليها رجل في اللباس العربي التقليدي (ابن المفر ، وكل ما حولنا استفزازي لعروبتنا ، وكل ما حولنا يحاصرنا بسوء فهمه لأمتنا ؟ !) .

اشتريت الكتاب ، وعدت به لأقضي ليلة مؤلمة ... إن نظرة الغربيين السطحية الخاطئة الينا موجعة . فان كانوا يدرون كم يسيئون إلينا بتلك الكتابات التي تسيء تصويرنا ، فتلك مصيبة . اما اذا كانوا لا يدرون ، فالمصيبة أعظم !

احداث الرواية تدور في إحدى العواصم العربية . والمفروض ان هذه العاصمة

(*) كتاب The Arab Plague من سلسلة العميل السري Nick Carter .

هي حالياً السوق الاولى لبيع الرقيق الابيض ، بل ومركز عالمي يتم استيراد الرقيق اليها من كل أنحاء العالم ! وفي هذه المدينة تتعاقب التكنولوجيا مع نظريات العصور الوسطى ، وهكذا يتم شراء النساء وتطويعهن بوسائل تكنولوجيا حديثة وآلات عصرية علمية لغسيل الدماغ ، ثم يجري استخدامهن في البغاء ، وبالتالي لأغراض التجسس ... كما لو ان كريستين كيلر عربية ، أو « ووتر - جيت » بدوية الموقع ! ..

ودونما نخجل ، يسترسل المؤلف المجهول (وحسناً فعل حين نخجل من ذكر اسمه) في ذكر « فظاغات » تلك العاصمة العربية المعاصرة ويشبّهها بهونغ كونغ من حيث الاتجار بالنساء والخمر والمخدرات والحاسوبية ، مع العلم ان هذه العاصمة العربية تمثل مركزاً دينياً اسلامياً له حرمة لدى العرب . وأحد مشاهد المطاردة البوليسية يدور وسط موكب الحجاج المسلمين ، حيث يتنكر المجرم بزي حاج ، ويتنكر العميل الاميركي بزي امرأة محجبة ، ويتم التشجيع على الحجاج المؤمنين في فصل كامل يسخر من شعائر المسلمين الدينية . كما يرسم الكتاب صورة غير حقيقية لعالم الاتجار بالرقيق في وطننا العربي ، صورة وهمية لعالم الحريم والحصيان عندنا ، صورة تقليدية طالما شاهدناها في افلام هوليوود الرديئة لكنها لا تمت إلى واقع الشعب العربي المعاصر بصلة ! والأسوأ من ذلك هو ان المؤلف السري يحاول ان يصنع الكتاب بصيغة الواقعية حيث يستعمل ألفاظاً عربية لأسماء الاماكن والالبسة والاعیاد ، بالإضافة إلى بعض الابطال (الاشرار) امثال الأمير العربي الشيخ حازوق والشيخ الحبيب حبا والشيخ عبد الله الكفا وغيرهم ...

وهو في هذه الرواية يحاول ان يرسم العالم العربي كوريث لتخلف العصور الوسطى ، وكحريص على تراث الاستعباد ومدافع عنه ومنظر عقائدي له ، بل ومستغل لوسائل التكنولوجيا المعاصرة لأجل تكريسه !
والنتيجة ...

صورة بشعة لحقيقة عالمنا العربي ، صورة بربرية همجية غير حقيقية ، ينجو منها البطل « الاميركي الجميل » وينتقد معه البطلة البريطانية وكل الاوروبيات « الراقيات البرينات » اللواتي كدن يذهبن ضحية ازدهار تجارة الرق والحصيان وتمركزها حالياً في العالم العربي !

والقارىء الاوروبي المحايد ، الذي لم تتح له معرفة العالم العربي عن كثب ، سيتأثر دون ريب بهذه الرواية البوليسية المسلية ، وستنغرس في لاوعيه صورة مفرطة

البشاعة عن انحطاط العرب في الشرق الاوسط ، وسيتعاطف بكل بساطة مع اخبار « اسرائيل المسكينة » التي تمثل الحضارة الغربية وقيمها وسط صحراء العرب القاحلة من كل القيم الانسانية والحضارية (على ذمة الكتاب) ! ..

وهذا النوع من الكتابات مؤذ أكثر من أية ذعاية مباشرة،لانه يؤثر في لاوعي القارئ الغربي ويجعله ينظر إلى العرب كما لو كانوا عرقاً مجبولاً على الضعة والحسة الانسانية .

وصحيح أن أمتنا العربية لا تخلو من امراض التخلف ، ولكن ذلك لا يرجع إلى خطيئة أصلية فيها منحدره من أيام آدم وحواء ، وانما لتلك السقطات أسباب واضحة محددة المعالم تعود بمعظمها إلى آثار الاستعمار الغربي في بلادنا ، وفضاعات السياسة الاميركية الامبريالية وانعكاساتها على تطورنا ، وإعاقتها لهذا التطور الخلاق .

وهكذا يجيء الجلاد إلى بلادنا ليلعب دور الضحية والمخلص في روايات بوليسية رخيصة الاثارة ! وهكذا تتكاتف المؤامرة الاعلامية الصهيونية مع خطأ بعض الروائيين الأميركيين في نظرهم إلى الشعوب النامية ! وهكذا تُرسم صورة غير حقيقية لنضال الشعب العربي من أجل الحرية والعدالة والقيم الإنسانية التي يكافح لأجلها الكادحون في انحاء العالم كله منذ عصور !

ان هذه الروايات تهدف إلى عزل كفاح الشعب العربي عن كفاح الكادحين العالمي (أم تراها أكثر غباء من هذا القصد ، وكل ما تبغيه هو اتخاذ عاصمة عربية كديكور لرواية جنسية بوليسية مثيرة ؟) . المهم ، ان النتيجة هي ، ببساطة ، تصوير العرب على أنهم خارج إطار الشعوب النامية ومجرد عصابات للتجار بالرقيق الابيض في الشرق الاوسط ، وبالتالي استدرار الشفقة على «اسرائيل» ، مبعوثه اميركا والغرب « والآلهة » لنشر الحكمة والعدالة والمحبة في العالم العربي المظلم !

وفي المقابل ، فان الغياب الاعلامي العربي عن اوروبا ما يزال مثالياً ، ونومة أكثر المسؤولين عنه كنومة أهل الكهف .

هذه الرواية « الوباء العربي » ابتعتها من احدى المكتبات في بيروت ، وهي موجودة بكثرة في أكثر من مكتبة ، كما تحققت من ذلك ...

أطالب بمنعها ؟

لا

بل اطالب بترجمتها وتوزيعها في بقية العواصم العربية على المثقفين العرب -

عجائاً - كي يعرفوا شراسة العدو واساليبه الدعائية متعددة الوجوه ، التي نواجهها بغياب تام وفراغ كامل... انني اطالب أيضاً بالسماح لكل الكتب التي تشوه حقيقتنا بأن توزع في الاسواق العربية كي نرى جيداً مختلف الاسلحة الموجهة إلى صدورنا وإلى صدر حقيقتنا ووضعنا التاريخي الراهن . من السهل جداً ان نسقط في فخ الاعجاب الذاتي والتغني بفضائلنا ، لكن المهم هو إيصال حقيقتنا إلى العالم الخارجي .

فلنخرج من غرفنا المغلقة على عقدة العظمة لدينا ، ولنطلق صوتنا في العالم الخارجي ... في عالم الشعوب الأخرى وملايين البسطاء مثلنا وفي اقطار العالم كله ... ان الأدب العربي والصحافة العربية تظل بلا جدوى - نسبياً - ما دامت محصورة داخل حدودنا العربية . وليس بيننا ، نحن العرب ، من هو غير واثق من حقه ومن عدالة قضيته . فلنطلق الصوت خارج الحدود إلى حيث شرقتنا اللامبالاة وسوء الفهم ترصداننا . والملايين التي فنقها على الاعلام الداخلي فليتم توجيه أكثرها لأجل الاعلام الخارجي ...

ان صوتنا في الغرب والشرق ما زال مطموساً ... معظم الفنانين والادباء والشعراء لدينا ما زالوا يفضلون عروشهم المحلية على محاولة الدخول من الباب الضيق إلى الأدب العالمي ... والترجمات لدينا تم باشراف « مؤسسات العلاقات العامة » التي تختار انتاج الذين يرتدون « السموكن » ويقدمون ولاءهم للمسؤولين (اولئك عادة ليسوا بمبدعين) ! ..

ان اعادة طرح قضية الاعلام العربي في الخارج ملحة واساسيه ... كفانا رقصاً في سيرك مؤتمراتنا الأدبية المحلية ! فمسيرة الأدب العربي إلى العالم الخارجي يجب ان تبدأ . انها مسيرة عذاب في درب الزحف فوق الزجاج المهشم ، حيث لا تصفيق ولا غرور ، حيث المقاييس تختلف والغرام بالذات يسقط ... متى نعي ضرورة البدء بهذه المسيرة ؟ ..

ومن يصمد من مثقفينا ، لتبدأ مرحلة العطاء الحقيقي دونما استعراضات ، ودونما طواويس ؟ :

فضيحة البروفسور الذي أعاد كتابة القرآن على هواه !

حين أشتري كتاباً شهياً ، أشعر بما تحس به النساء عادة أمام القراء والماس ،
ويسيل لعابي الفكري كجائع أمام رغيته .
اليوم ابتعت كتاباً بالانكليزية واسمه « صحارى »^(*) ، جميل الطباعة والصور
(ألبوم) ، يتحدث عن الصحراء الافريقية وما يقع منها في ليبيا والجزائر وتونس
العربية . ثمنه يفوق عدد صفحاته التي تربو على المائة . وابتعت « ألبوماً » آخر واسمه
« فانشينغ سبيشيز »^(**) ، من سلسلة « اللايف - التايم » . وحين دفعت الثمن لم أكن
أدري أنني أدفع ثمناً كي أقرأ الشتائم توجهها اليّ صفحات الكتاين .

* * *

ألبوم « صحارى » يتحدث عن « الظلام في بلاد الشمس » ، ويتحدث عن
المسلمين الذين يقطنون الصحراء بطريقة قذرة . وأصر على كلمة قذرة ، لان المؤلف
اختلق آيات قرآنية غير موجودة في القرآن ، وأحاديث شريفة مزيفة ، وافترى على
العرب والمسلمين ناعناً إياهم بصفات ليست حقيقية .

الروح العامة للكتاب تنعي بؤس المسلمين . في الصفحتين ١١ و ١٢ يقول :
« العقبة الأساسية هي في لامبالاة أولئك الناس الذين لا يقومون بأي محاولة لمحاربة
الأمراض ، ومساعدتهم يجب أن تم بالرغم عنهم . انهم يعيشون في أحضان
الأقذار والوساخات التي لا توصف . المراحيض والحمامات غير معروفة لديهم » .
والمؤلف يلقي اللوم في ذلك على الدين الاسلامي ! والسؤال الذي يجب أن يطرح عليه :
ألم يسمع بالوضوء وبالاعتسال الاسلامي ؟

وبصفته أوروبياً فرنسياً ألم يزر قصر فرساي وبقية القصور حيث كان يعيش

(*) كتاب Sahara تأليف René Gardi .

(**) كتاب Vanishing Species (فصائل تفرص) من سلسلة Time-Life Books .

ملوك فرنسا ويكتشف انها تخلو تماماً من الحمامات والمراحيض ، وكذلك قصر شون برن لابطرة النمسا ؟ وان الغرب نقل الحمامات عن الشرق وكان يجهلها ؟ ..

* * *

ويتابع رينيه جاردي افتراءاته على روح الدين الاسلامي . ففي الصفحتين ١٥ و ١٦ نجده يقول : « ما لا يستطيع الغربي احتمالاه هو استسلام المسلم للأمر الواقع كقدر لا يرد ... المسلم يفتقر تماماً إلى استعمال الارادة والاوروبي يحس بالرغبة في صفع المسلم وهزه وإعلامه بأنه لا علاقة للرب بمرض الزهري أو البلهارسيا ، وان السبب يرجع إلى عيشهم في أماكن ملوثة بفضلاتهم وارتداء بعضهم ثياب بعض ، وعدم غسلها إلا نادراً » . ونجد المؤلف يتمادى في افتراءه فيخترع آيات قدرية مزيفة تؤكداً لكلامه ! ومن الواضح أنه لم يكلف نفسه عناء قراءة ترجمة للقرآن ليفهم المعنى الحقيقي للقدرة الاسلامية ، ولم يسمع « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، و « كل نفس بما كسبت رهينة » ، ولا قول الرسول للبديوي حول ناقته « اعقلها وتوكل » .

وهو يجد في حجر الرحي لطحن الدقيق في البيوت دليلاً على ان المسلمين ما زالوا يعيشون في العصر الحجري ! ويدعي ان هنالك طبقة اسلامية . وانه في « عين صالح » بالجزائر تحدث مع الناس بسهولة في حين عجز عن محاوره أي شخص من قبيلة « الزواعنة » الذين يتحدرون بنسلهم من الرسول !

* * *

والمؤلف لا ينجل من اختلاق آيات قرآنية لا وجود لها . ففي معرض حديثه عن الحمل (الصفحة ٢٩ إلى ٣٤) يدعي ان القرآن يقول « الحمل حيوان الله المفضل » و « أهم شيء للمسلم هو اقتناء قطيع من الجمال » و « من يطعم جملة طعاماً نظيفاً وجيداً يسجل الله اسمه ويسجل له حسنات بعدد قشاش التبن التي أطعمها لجملة ! » و « من يحرم جملاً وصاحبه من شربة ماء حُرْم رحمة الله يوم القيامة » . ويتناول أيضاً على الاحاديث النبوية فينسب إلى الرسول قوله « من حفر بئراً كوفىء عليها بعدد الجمال التي شربت منها ! »

هذه أمثلة بسيطة من هذا الكتاب الذي يزيغ الحقيقة . والغريب أن عدداً من الدكاترة شارك في تأليفه بينهم : دكتور كارل سوتر – دكتور هانز روترت – الكسندر واندير – اولريخ شويتزر ... ترى أليس بينهم من قرأ ترجمة للقرآن وكلهم

يدعون العلم بالصحراء وسكانها والمسلمين وأحوالهم ؟ والمؤلف رينيه جاردي ، ألم
يخطر بباله ان بين « المسلمين المتخلفين » من يقرأ لغة أجنبية وانه قد يحاسب حساباً
عسيراً على أكاذيبه ؟ ثم كيف تسمح له البلاد العربية بالتجول فيها وهو الذي يشوهها
عامداً مختلفاً (يحدثنا في مقدمة كتابه عن رحلاته المتعددة والمستمرة إلى شمالي
افريقيا) ؟ .

* * *

أما كتاب « فانسينغ سبيشير » لمحري « اللايف - التايم » فنجده يقدم دعابة
مجانية لاسرائيل اذ تقول الصفحة ١٢٠ منه - في معرض الحديث عن الغزلان وغيرها
من الحيوانات العربية المهتدة بالانقراض بسبب الصيد العشوائي : « عام ١٩٤٨ كانت
حيوانات فلسطين في شبه حالة إبادة .

ومنذ تأسست «اسرائيل» استعادت هذه الفصائل الحيوانية النادرة عافيتها وعادت
إلى التكاثر لان الدين اليهودي يحرم أكلها . وعام ١٩٦٩ قررت «اسرائيل» اعتبار النقب
مكناً محجوزاً للعناية بالحيوانات المذكورة في التوراة والتي حملها نوح في سفينه .
ورغم ان كثيراً من هذه الحيوانات المذكورة في العهد القديم - والتي سبق لنوح
انقاذها - موجودة في البلاد العربية المحيطة باسرائيل ، فان الاسرائيليين يأملون في
انهم ذات يوم سينجحون في صنع سفينة نوح المعاصرة ... !
(أي ان اسرائيل هي سفينة نوح المعاصرة لانقاذ حضارة المنطقة وكائناتها من
البرابرة العرب) .

هذا بعض ما جاء في أطلسين جميلين أنيقين يباعان في مكتبات بيروت ويوزعان
في الغرب بملايين النسخ .

* * *

حذار من منع هذه الكتب . دعونا نعرف أعداءنا ، ونعرف مدى شراسة الاعلام
الصهيوني وتغلغله في المجالات كافة ، حتى في مجال الحديث عن الغزلان !
الحل ؟

ان تقدم للسوق العالمية البديل . أن يقوم العرب بالكتابة عن بلادهم بانفسهم أو
يشرفوا على ذلك اشرفاً مباشراً وواعياً ، وعدم السماح لأسطورة تفوق الأجنبي
بالتحكيم بنا ، وضرورة فضح الاعمال التي تشوه حقيقتنا كعرب ، ليس دفاعاً عن الدين
بل دفاعاً عن الحقيقة التاريخية .

* * *

وطننا العربي الكبير ، حتمًا نترك تاريخه للمستشرقين و « البروفسورات » يشوهونه
ويختلقون حوله ما شاؤوا من الحكايا ، ويبدلون سطور كتبه المقدسة وهم الذين يدعون
الأمانة الفكرية والعلمية وحمايتها من « المسلمين البرابرة » ؟ ..
ومتى نتولى نحن اصدار « الالبومات » والكتابة عن أرضنا وتاريخنا ؟ وحتمًا
ننفق الأموال على السلاح الحربي ناسين السلاح الفكري ؟

وفضيحة المخرج الذي شوّه روح القرآن !!

يسود أوروبا حالياً جو من الرغبة في إعادة اكتشاف العرب . فبعد أزمة النفط ، وانتشار صيت ثراء العرب ، وقضية فلسطين وخطاب عرفات في الامم المتحدة ، بدأ الفرد الاوروبي يلحظ أن معلوماته عن العربي (كهمجى بدائي) ليست كافية لتفسير ظواهر كثيرة يُفاجأ بها ! .. والفرد الاوروبي اليوم مثل نشافة مستعدة لامتنصاص أي معلومات جديدة عن العرب ...

في مثل هذا المناخ ، سرتني أن أقرأ على باب إحدى دور السينما اللندنية الكبرى بساحة « لستر سكوير » ، اسم « الليالي العربية » إلى جانب اسم المخرج الجيد بازوليني . قلت لنفسني : مخرج كبازوليني لا بد أن ينصف العرب . ليس مطلوباً من أحد أن ينحاز إلينا . ولكنه كمبدع ، « خادم للحق » ، وبالتالي فإنه بحكم إبداعه مرغم على نقل صورة صادقة عنا .

كان الناس يُقبلون على الفيلم ، وبصعوبة استطعت الحصول على تذكرة ومقعد ...
وصدمة !

فقد كان الفيلم اسوأ دعاية عنا ، وعرضه في هذا الوقت بالذات طعنة حاذقة في جنب العرب الذين لم يتعلموا بعد ضرورة الحزم مع « العباقره » الغربيين !
فمن الواضح أن بازوليني قد لقي تسهيلات كبيرة من سلطات البلد العربي الذي تم تصوير الفيلم على أراضيه . من الواضح أن الفيلم قد تم تصويره (أو تصوير أجزاء كبيرة منه) في بلد عربي ما في شمالي افريقيا ، لا أدري أين ! ومن الواضح أن إمكانيات كبيرة وضعت تحت تصرف « العبقرى » بازوليني . فماذا قدم بازوليني للملايين في الغرب عن الليالي العربية ؟

الهيكل العظمي للفيلم (الذي ظل هيكلاً عظيماً فقط لا غير) هو مجموعة حكايا حب ساذجة أبطالها من العرب وتدور في مناخ عربي ، وعلى طريقة « ألف ليلة وليلة » ؛

فان كل شخص يروي حكايته ، ومجمل الحكايا يسهم في رسم صورة عن الجلو العربي العام . وحكايا الحب تلك تافهة ، قدرة ، سطحية ، يغلب عليها في استمرار عنصر الشذوذ (زعيم القبيلة يتزوج صبيياً وزوجته تعاشر فتاة ويتم ذلك من نظرة استلطاق أثناء مرور القبيلة بواد ما . الصبيان مكرسون للشذوذ ويتم تدريبهم على ذلك على يدي استاذ اختصاصي في الحمام !) وعنصر الميلودراما المبتذلة (الحب من أول نظرة عبر النافذة يؤدي إلى انتحار الخطيبة المهجورة ومعاقبة العاشق بقطع النساء لعضو « مهم » من جسده كان سبب المصائب !) كما يبرز الفيلم عدم الوعي السياسي لدى العرب (يتم اختيار الزعيم وفقاً لطقوس اعتباطية منها تنصيب أول شخص يدخل المدينة بعد موت الملك ملكاً عليها !) ، وذلك يرجع إلى قدرية العرب التي شوهاها الفيلم وركز عليها في الوقت ذاته . فالله هو الذي أرسل اليهم الغريب ليكون ملكاً عليهم (!) ولذا فهم يتوجون أول غريب ! وفي الفيلم تبلغ المهزلة ذروتها . فـ « الغريب » هو جارية متكرة في زي رجل ! وهكذا فالحكم لدى العرب عبث ومجون ، وفكرة القدرية السلبية تتحكم بحياتهم . وكل المصائب التي يتسبب العرب في وقوعها يرمون بمسؤوليتها على الله طوال الفيلم . بل إن هنالك مشهداً حشره بازوليني حشراً ليزيد الاوروبي اشمترزاً من قدرية العرب : فبينما كان أحد العشاق (عزيز) راكضاً في دروب القرية وقد جن حياً ، يطارده أطفالها بالحصى (في الفيلم أولاد العرب لا يتعلمون ومهمتهم الوحيدة هي الركض في الازقة كالكلاب ، وحصب العشاق ، أو ممارسة اللواط !) نجد أباً يلاحق عزيز طالباً منه أن يقرأ له رسالة استلمها من ابنه المسافر (اشارة إلى أمية أكثر العرب) ، ومضمون الرسالة هو حرفياً ما يلي : أبي العزيز . لم أجد عملاً . لا أكسب شيئاً ولا أفعل شيئاً لأنها ارادة الله !

شخصية النساء في الفيلم قبيحة ، بذئثة ، مخجلة . لا هم لهن سوى اغتصاب الصبيان جماعياً بعد اختطافهم والانتقام من الرجال الخائنين بطرق أخجل من تعدادها وأتركها لخيال القارىء !

أما شخصية الرجل العربي فقد رسمها بازوليني على الوجه التالي : مستسلمة للكسل والقدر والذباب الذي يغطي الوجوه (استرسلت الكاميرا في رصد العلاقة الحميمة بيننا وبين الذباب) واتكالية ترمي كل شيء على الله وترمي بنفسها في احضان البكاء ونحدر الجنس .

في اختصار كانت « الليالي العربية » صورة لمجتمع يقضي نصف وقته عارياً تماماً

بمارس الجنس ، ونصفه الآخر يحيك المكائد ، والفقر يفرسه والمرض يطارده .

ونحن كعرب لا نستطيع أن ننكر اخطاءنا ، لكننا لا نجد مبرراً لإبرازها فقط من دون الاشارة (ولو إشارة) إلى بقية جوانب الشخصية العربية . فالليل العربي ليس مأوى لجرائم الشهوة الرعناء فقط ، بل هو أيضاً ليل الكادحين وليل المفكرين وليل الطبيعة البشرية بكل سموها وسقطاتها ، ولكن الفيلم يرصد الشخصية العربية كما لو كانت فريدة في حقارتها وتفاهتها ورخصها الإنساني .

جريمة اخرى ارتكبتها بازوليني بحق العرب والحقيقة ، وهي تشويه القرآن .

ففي الفيلم حكاية فتاة حبسها جني تحت الارض وحيدة في كهف لا ترى نوراً ولا إنساً . والجني يأتي إليها ليضاجعها مرة كل أسبوع . وحين تريد استحضار الجني لأمر ما ، فكل ما عليها ان تفعله هو أن تلمس اللوحة النحاسية العتيقة . وبينما هي تخون الجني مع شاب ، تنتقل الكاميرا عن المشهد الجنسي العاري للعاشقين في الفراش إلى اللوحة المعدنية ، والمتفرج العربي يستطيع أن يقرأ عليها بوضوح عبارة: بسم الله الرحمن الرحيم ، تليها آية قرآنية ! ويتم تدنيس مقدساتنا حينما ينهض العشيقي عارياً تماماً (لا تعف الكاميرا عن نقل عريه كاملاً) ليلمس الآية القرآنية فيحضر الجني الشرير الذي ينتقم من المرأة شر انتقام بتقطيع جسدها بفأس قطعة قطعة تتناثر في وجه المتفرج !

ولا بد لي من الاشارة إلى أن جميع الذين يتحاملون على العرب يتحاملون على القرآن لا باستخدامه فولكلورياً فحسب بل بتحويله ، وهنا عدم الوفاء للحقيقة . وبازوليني في حكايته الرمزية هذه يعتدي على روح القرآن وعلى مدلول ذكر الله وصفات الله كما هي في القرآن .

وفي كتاب « فصائل تنقرض » ، الذي يتصدر واجهات المكتبات في لندن وهو من تأليف فريق « التايم – اللايف » ، نجد في الصفحة ١١٦ العبارة التالية : « أسهمت القبائل المسلمة في انقراض الحمار الوحشي إذ إن القرآن يصف لحم الحمار كدواء يشفي من الامراض » ! .. هذا الكتاب الذي يتوخى الدقة العلمية في كل صفحاته نجده يتخلى عنها حين يتعلق الامر بالعرب والقرآن ، تماماً كما فعل بازوليني . فلماذا هذا الاستخفاف ؟ السبب ، في بساطة ، هو اعتماد الغربيين على إهمالنا لحقوقنا وعدم مطالبتنا بها . فلو عُوِّب كل كاتب وسينمائي يتعرض لنا بغير حق لاضطروا إلى توخي

الدقة في ما يعرضونه من شؤوننا كما يتوخون الدقة في شؤونهم الاخرى، حتى التافه منها !

المطلوب : ١ - ارغام كل مخرج يأتينا أو كاتب يهرع إلينا لعمل ما ، على دخول دورة تثقيفية بشؤون العرب ، من أسسها الاولى اطلاعه على تاريخنا وعلى حياتنا المعاصرة ومختلف نواحيها ، لا الجنسية فقط .

٢ - ارغامه على استلام نسخة مترجمة للقرآن بحيث يعود إلى النص الاصلي إذا رغب في الاستشهاد به بدلاً من اعادة كتابة القرآن على هواه ومن دون رادع ، أو التعرض غير العادل لروح الدين سواء كتاريخ أو كفولكلور .

٣ - معاقبة أي « عبقرى » يتعرض لنا من دون حق ، سواء تم ذلك عن حسن نية أو عن جهل أو عن سوء نية ، ما دامت الحصيلة واحدة . والمقاطعة تكون ضد انتاجه شخصياً وانتاج الشركة أو المؤسسة التي يتعامل وياها .

٤ - المطلوب عقد مؤتمر يبحث جدياً في قضية تشويه صورة العرب في الغرب وترصد له الاعتمادات اللازمة للقيام بحرب مضادة في حرب التشويه الناشطة ضدنا في حالة السلم والحرب معاً . وحبذا لو اهتمت مؤتمرات الادباء العرب بذلك !
وبعد ،

فان أمة لا تفرض احترامها على « عباقرة » الغرب ولا ترغم العالم على فهمها ، هي أمة تغري الناس بانتهاك حرمتها . فمن مد جسده على الارض أغرى النعال بالدوس عليه !

المرجو من الدولة العربية التي سهلت للسيد بازوليني تصوير هذا الفيلم وتسجيل الأغاني العربية الشعبية على الطبيعة - كأغنية « يا حمام يا مروح بلدك متهمني » - أخذ العلم بما كان من أمر « الضيف الكبير المتهمني » الذي أكرمت وفادته فشوهنا ، وإجراء المقتضى بشأنه ..

المهم ألا يمر تطاول الغرب علينا بعد اليوم من دون حساب ، وأن نعلم الغرب ألا ينظر إلينا بعد اليوم عمودياً فقط ، بل أفقياً أيضاً.

فلينفجر القلب من آن إلى آخر ! ..

من وقت إلى آخر لا بد للقلب من أن ينفجر ...
لا بد للقلب من أن يخلع أقنعتة وقفازاته وياقات التهذيب البيضاء المنشأة، ويترك
ابتسامة « التفهم » الصفراء تسقط عن شفثيه كورقة خريف ... ويدمر كأس المجاملة ..
من وقت إلى آخر لا بد للقلب من أن ينفجر ...
لا بد للقلب من ان يركض في الشوارع عارياً من كل شيء إلا من جرحه ...
صارخاً من مدينة عربية إلى أخرى كسيارة اسعاف أسطورية الجنون ...
من وقت إلى آخر ، دعوا القلب ينفجر ... يشهر في وجه الغرباء أحزانه ،
ويتركها تعوم في قلب الليل نحو صدورهم كباخرة محملة بالجرحي وأنينهم الدامي .
من وقت إلى آخر لا بد للقلب من ان ينفجر ...
الليلة دوري أنا ... جرح صغير من جراحي سيلعب لكم دور الحكواتي ! ! ..

* * *

حينما قرأت الكتاب الأول قلت : ربما كانت مصادفة . حين قرأت الثاني قلت :
هفوة .

حين قرأت العاشر قلت : التسامح و« التفهم » و « السلوك الحضاري » ضرورة ...
حين قرأت الواحد بعد الألف ، انفجر قلبي شاهراً مخالبه وأظافره ... وغضبه
الحزين ...

* * *

كتب كتب كتب ... وأنا فأرة مكتبة ، ألتهم من الصفحات أكثر مما ألتهم من
الحب ...
وقلما أطلع كتاباً غريباً لا يتعرض للعرب ويشهر بهم بصورة مباشرة أو غير
مباشرة ...

هذا الاسبوع كنت اقرأ لروجر زيلاتي كتاباً فائزاً بجائزة أدبية مهمة اسمه « هذا الخالد » ومؤلفه الاميركي من افضل كتّاب القصة العلمية الخرافية الحديثة (على ذمة الموسوعة البريطانية) ...

احد ابطل القصة عربي يدعى حسن . ولما كانت الرواية رمزية ، وبطلها الاغريقي رمز لمدلول الاغريق التاريخي والحضاري ، فان الأمر نفسه ينسحب على العربي حسن . فماذا نجد . نجده (في الصفحة ٢٦) قاتلاً مأجوراً محترفاً وعميلاً لاعداء كوكب الارض ، انه يعمل حارساً لشخص ما ، ثم يقتل الشخص الذي كان يحرسه لان هنالك من دفع ثمناً أكبر . ويقضي أوقات فراغه بتعاطي المخدرات . في صفحة ٢٧ يقول المؤلف « يسمونه حسن القاتل المحترف لأنه آخر مرتزقة القتل على كوكب الارض ! » . جيوبه منتفخة باستمرار بالسكاكين والخيال الدقيقة والشفرات والعقاقير والسموم « السوبرتكنولوجية » وله من « الجيمسبوندية » صفة الاغتيال دون الطرف أو خفة الروح (صفحة ٤٢) . اما عن عدد ضحاياه ، « فلو وضعت في فمك حبة شيكلتس عن كل رجل قتله ، لا نتفخ فمك ولبدوت كالسنجاب (صفحة ٤٠) ، في صفحة ٤٥ يشير إلى حسن باسم (البدوي) ، أي انه عربي صميم لا من الاقليات ، ومع ذلك نجده في (١٢١) يشير إلى انه يعبد ابليس الشيطان ! ... ولكنه في صفحة ١٥٣ يسمي بالله قاتلاً : « بسم الله » - (حرفياً) ، ولا نفهم من هذا الخليط الفكري « الديني » أكثر من أن المؤلف يجهل كل شيء عن معتقدات الاسلام .

ما يؤلم في الموضوع هو حسن نية المؤلف . فحسن في نهاية الرواية يتحول إلى بطل شهيم ، ويساهم في انقاذ العالم ، ومن الواضح ان المؤلف لا يحمل حقداً شخصياً ضد العرب ، وانما هو فريسة الجهل التام بهم وبالاسلام .

* * *

قلت لقلبي الغاضب ، تعال نبحث عن ابتسامة في كتاب آخر .. ذهبنا ، قلبي وأنا ، إلى المكتبة واشترينا كتاباً اسمه « القمر بالون ! » لمؤلفه الممثل الفكاهي المعروف دافيد نيفين ، ومجلة أخرى ساخرة اسمها « مجنون » Mad تصدر في اميركا ايضاً .

في الصفحة ٦٨ من كتاب دافيد نيفين ، وهو كتاب قرأه الملايين أيضاً ومن أكثر الكتب مبيعاً منذ اشهر نجده يتحدث عن امير عربي من المقروض انه كان يتدرب معهم في فرقة عسكرية (وهو عم لأحد الحكام العرب) فيسخر منه ومن العرب ... ويكرس نصف صفحة ليؤكد لنا أن الامير العربي كان لا يميز يده اليمنى من اليسرى

وانه كان يدور إلى اتجاه معاكس باستمرار عن اتجاه الجنود فيصطدم بهم وجهاً لوجه
وغير ذلك من الترهات ...

* * *

هذا بعض حصيلة هذا الاسبوع ... لكنني لا اقرأ كتاباً صادراً في الغرب إلا
وفيه نوع من التحقير للعرب . التماذج التي ذكرتها هنا تتضمن الكثير من « الجهل »
بالعرب وبالتالي « حسن النية » .. وهذا أخطر ما في الامر ... فأكثر الكتاب الذين
يشوهون صورتنا ، لا يفعلون ذلك بالاتفاق مع « الصهيونية العالمية » التي يخلو
لنا باستمرار تحميلها وزر كوارثنا كلها ، وانما يكتبون ذلك لأن المعلومات عنا
وردتهم هكذا ... فنحن ما نزال أفراداً وجماعات ومؤسسات « اسوأ محامين لأعدل
قضية » وصورتنا في الغرب هي أبشع قناع لأنبل وجه ... ونحن مشغولون عن التحدي
العالمي الكبير وعصرنا والزمن الذي يجري بحرب « داحس والغبراء » فيما بيننا ...
وبافتراس بعضنا بعضاً ... اننا كقبيلة تتشاجر حول « جنس الملائكة » فوق مركب
يغرق ...

* * *

أكرر اقتراحي بضرورة بحث « صورة العربي في الإعلام الغربي » في مؤتمرات
الأدباء العرب أو إنشاء مركز دراسات خاص بالرد على الاقتراءات وتوعية حسي
النية ، ومتابعة البرامج الدراسية في الغرب وما الذي تدرسه للأجيال الطالعة في كتبها
عن العرب .. وغير ذلك من عشرات الحلول الواقفة على ابواب المسؤولين .

* * *

ملاحظة : بعد ان انفجر قلبي قليلا وكتبت هذه السطور قررت الهرب إلى مجلة
MAD - أي « مجنون » - الساخرة ! ...
وفوجئت بأن السخرية في غلافها الاخير مركزة على العرب .. وهي تلقبهم باسم
رواية اميركية مشهورة « كاربتيجرز » تتحدث عن الوصلية الحقيرة الرقيقة والجشع
للمال ، وتطلق هذا الاسم على العرب .. وفي الصورة نجد ثلاثة من العرب يركبون
بساط الريح فوق ناطحات السحاب ، وبساط الريح هو من ورقة المئة دولار والعباءات
مقصفة والحواتم والاساور تزين معاصم الرجال ! ... وتسميهم المجلة « اثرياء الوصلية
الجشعة ... الجدد » ! ..

* * *

مشروع أسطورة : ترى هل كانت النعامة امرأة تقرأ كثيراً وتخزن كثيراً لفضاعة
ما تقرأ واللامبالاة من حولها بذلك حتى دفنت رأسها ذات يوم في الرمال وتحولت إلى
نعامة ؟ ...

* * *

بروميثيوس أو نعامة ...
قدراڻ لا ثالث لهما ؟ ..
فلينفجر القلب من آن إلى آخر !

احشوا فم جون باييز بالثياب الدامية لفدائي !

كل تلك الأسماء الملونة كالبالونات ... كل تلك الاسماء الأجنبية الكثيرة الضجيج كطبل الأعياد ، الضخمة كمنخل وحش أسطوري ... كل تلك الاسماء الغربية التي تبهرنا ، لماذا تبهرنا ؟ وماذا نعرف عنها حقاً ؟ ..

مأساة بعض العرب أنهم يعشقون الأسماء « الكبيرة » ، أسماء « النجوم » في الغرب ، دونما معرفة واعية بحقيقتها على صعيد العطاء الفني ...

الشهرة – أي الفقااعات – هي المقياس الأول لتقييمنا للآخرين . أما معرفة العطاء – أي الحقيقة الصلبة – فما أبعد البعض عنها ... والمؤسف أن هذا الكلام لا ينطبق على السلوك الجماهيري العام في لبنان ، وإنما ينطبق أيضاً على سلوك مثقفينا ، وعلى السلوك الرسمي لأكثر دولنا العربية ... والنتيجة هي باستمرار فضائح وخيبات أمل ... لنأخذ على سبيل المثال المغنية جون باييز التي جاءت بها لجنة مهرجانات بعلبك لتغني في لبنان في الصيف الماضي ...

شرفتنا الأخت جون باييز محفوفة بإعجاب أكثر الصحافيين والمثقفين ، وغنت عارية القدمين في هيكل بعلبك محفوفة بالآهات ، ورافقوها من المطار إلى السوق إلى الفندق وأحصوا انفاسها « الطاهرة » واختبأوا على أطراف وسادتها في محاولة لتسجيل حتى أحلامها ، وتزاحموا داخل خزائنها وعلى كم قفطانها الاحمر الوسخ وصفقوا وكتبوا وعتبوا عليها عتب العاشق حين رفضت إلحاح « الجماهير » بأن تنشد المزيد ... ولقبوها بالكاهنة و ... و ... وعتب عليها البعض لأنها لم تنشد أغنية لفلسطين صارخين بها : « جون باييز ، أين أغنية فلسطين » ؟ ولكن الست جون سكنت عن الغناء المباح حين ورد اسم فلسطين ، دون إبداء أي تفسير ! ورحلت عن بلادنا الطيبة الساذجة على جناح آهات عشاقها الكثيرين ... وهجم العشاق على دكاكين باعة الاسطوانات والأشرطة المسجلة لشراء كل ما يحمل اسم الأخت جون باييز ... ولكن ، يبدو ان

أحداً لم ينصت حقاً إلى ما تقوله في اغنياتها . ولو فعل لطالب بطردها فوراً ولا تمتنع عن الاستماع إليها ! .. ولكن المفجع أن بعض « فزاليك » النقدهم الذين يفرضون الذوق العام عندنا ويمنجل الباقون من الاعتراف بأنهم لم يستمعوا أو يسمعون بيجون بايز ، ويفضلون الادعاء بأنهم سمعوا وأنهم من المعجيين بها ، ويقنعون أنفسهم – قبل الآخرين – بتلك الاكذوبة ! ولو كانوا يحبونها حقاً لأنصتوا إليها ، ولصعقتهم المفاجأة ! وهي ، ببساطة ، ان جون بايز صهيونية تكسر أكثر أغانيها لمجد «اسرائيل» وعزة هيكلها ، وأن أكثر أشراطها التي تباع في أسواق بيروت تحمل اغنيات اسرائيلية روحاً ولفظاً ، موسيقى وكلمات ! ..

إليكم الترجمة الحرفية لثلاث اغنيات من شريط « كاسيت » واحد يباع في أسواق بيروت ، استمعت اليه مصادفة لدى صديق ، واسم الشريط « جون بايز مع بيل وود وتيد » نستمع إلى الاغنية الثانية على الوجه الاول للشريط ، واسمها « يا لها من مدينة جميلة » وفيها تقول عن القدس :

« يا لها من مدينة جميلة ... »

١٢ باباً للمدينة . هاليلويا .

٣ ابواب شرقاً – ٣ غرباً – ٣ شمالاً – ٣ جنوباً . هاليلويا (تنشد هاليلويا على الطريقة الاسرائيلية) .

انظر إلى اولئك الاطفال هناك .

لأنهم يرتدون اللون الاحمر (الأحمر لباس الحانام أثناء خدمة الهيكل ، وهي تؤكد ذلك حين تتابع) :

لأنهم بلا ريب الاطفال الذين قادمهم موسى .

حينما أذهب إلى السماء .

سأراهم هناك يضيئون ! ..

١٢ باباً للمدينة .. هاليلويا

من يستطيع إخراجه منها ؟ ..

يا لها من مدينة جميلة ... »

الاغنية باختصار هي اغنية في تمجيد عودة الصهاينة إلى « اسرائيل » ! ..
وإذا كنت حسن الظن « جداً » ، كالمثقفين العرب الذين احتضنوا ذات يوم سارتر وجعلوه فيلسوف العصر لكنه طعنهم حين كشف عن انحيازه العنصري

لاسرائيل ... المهم ، اذا كنت حسن الظن ، تابع معي الاستماع إلى شريط جون بايز المسموم . في الاغنية الثالثة من الشريط نفسه تنشد لحناً حماسياً هو « لا تبك من اجلي » . تقول «الأخت» فيه على لسان « مناضل » صهيوني مهاجر إلى «اسرائيل» ليقاتل فيها لاجل مجد صهيون :

« حين أموت وأدفن ، لا تبك من أجلي .. لا أريدك ان تبكي لأجلي ... وانا أبحر المحيط لا تبك لأجلي ... وانا أركب سفينة صهيون لا تبك لأجلي ... وانا أبحر المحيط على سفينة صهيون العظيمة لا تبك لأجلي ... الملاك هو الملاح فلا تبك لأجلي .. وأنا أنظر إلى ما وراء نهر الاردن ووجهتي هناك ، لا تبك لأجلي ... وحينما أقتل وأدفن هناك لا تبك لأجلي » ! ..

المهم أنها أغنية اسرائيلية حتى العظم ! .. اغنية تحمل رداً على روح حائط المبكي وتبشر بالصهيونية المسلحة المقاتلة المصممة على القتل حتى النصر ! .. واذا أمعنا في « حسن الظن » وتابعنا الاستماع إلى بقية الشريط المسجل ، ستطلع علينا « المناضلة » جون بايز بأغنية « قريباً يطل الصباح » ! ..

وهي اغنية اسرائيلية الروح والكلمات ايضاً . والصبح الذي تنتظره « الأخت بايز » (التي زحفنا للاستماع اليها في بعلبك) هو صباح النصر الاسرائيلي ، اذ تقول على انغام موسيقى حماسية بوليسية الايقاع :

« ها انا واقف في المحطة ، وفي يدي بطاقة للذهاب إلى : « الارض الموعودة » . اني آمل ، وأثق ، وأنتظر طوال الليل ... للذهاب إلى الارض الموعودة » ! وبعد ،

إنني لا أطلب بمنع اغنيات جون بايز ، بل اطالب بتعميمها لعدة أسباب :
(١) لتعدينا كلما استمعنا اليها ولتلقيننا درساً عن اعجابنا الأهوج بداعي «السنويزم فقط» ، وعن واجبنا الوطني والفني في عدم إبداء الاعجاب بنجوم نجمل كل شيء عنهم غير شهرتهم المدوية التي قد تكون الصهيونية قد ساهمت في صنعها .

(٢) أغنياتها الوطنية الاسرائيلية جيدة وجميلة – للأسف ! – وأتمنى بإخلاص لو يغني مطرب غربي للقضية العربية بهذا الاخلاص الكبير الذي تخدم به جون بايز قضية «اسرائيل» ... في أغنياتها الحماسية الشيء الكثير الذي يجب ان تتعلمه الاغنية العربية المتخلفة في هذا المجال .

(٣) جون بايز نموذج للعمالة الذكية ذات المستوى الفني الراقي الذي تعجز الأموال

العربية عن شراء ما يماثله ... ومن واجبتنا رفع مستوى إعلامنا العربي في الغرب كي يكون قادراً على إقناع الفرد الغربي ، فنانه وعاديه ...

(٤) لا أطلب بمنعها لاني من أنصار « اعرف عدوك وتعلم من أساليبه » . فهل تعلمنا جون باييز الحقد على الاقل ؟ الحقد على صيادي النجاح في مياه اعجابنا الضحلة والمعكرة ؟ ! .

هذا العام ، حين تختار لجنة مهرجانات بعلبك أو غيرها من اللجان العربية نجومها الغربيين ، يستحسن ان تطلع على نتاجهم لا على صورهم فقط ... ولا مانع من دعوة الصهاينة منهم شرط محاورتهم و « كشفهم » في فضيحة علنية ، بدلاً من حشوهم بالكبة النية والتبولة واطلاعهم على رقصة الدبكة واعمدة بعلبك والسيقان اللبنانية والقفطان ، وتقبل شهادات التركية منهم بكل فخر ...

والآن، هل عرفتم لماذا ابتسمت جون باييز ابتسامة صفراء حين صرخوا في وجهها : « أين أغنية فلسطين » ؟ ! .

لعلها كانت ابتسامة الدهشة لأننا لم نسمع من قبل ما هو معروف عنها في الولايات المتحدة : كونها من أكبر المؤيدين للصهيونية وتعتبر قتلى الاسرائيليين ضحايا ! .. إذا عادت جون باييز إلينا ، فاحشوا فمها بالثياب الدامية لفتاى قتل في محاولته العودة لأرضه وبيته في فلسطين التي هي فلسطين لا « اسرايل » ، وفي القدس التي هي القدس لا أورشليم .

والإنسان طائر أيضاً

خبر صغير مرمي في زاوية مهمة بإحدى الصحف ، يلخص أحياناً مأساة الانسانية
بأكملها ...

انك تقرؤه ولا تصدق عينيك . وربما لذلك تقتطعه ، كي تعود إليه كلما
شككت في حواسك ...

تعالوا معي نقرأ هذا الخبر الصغير المنشور في إحدى الصحف العالمية تحت
عنوان « مظاهرات من أبل الطيور » ، والذي لا أذكر متى اقتطعته ، وكم من المرات
عدت اليه اقرؤه غير مصدقة
أترجمه لكم .

يقول الخبر : تظاهر عشاق الطيور في نيويورك محتجين على جيش الولايات
المتحدة الاميركية بعد قراره بإبادة حوالي ٣ ملايين طائر من الطيور المحلقة والمعششة
حول القاعدة العسكرية الاميركية في « ميلان » بولاية تنيسي .
هذا هو الخبر الصغير .

انك لا تملك وانت تقرؤه إلا الغضب المدهوش .

إذن فالشعب الاميركي يتحرك من أجل مصرع الطيور – ضحايا القاعدة
الحربية الاميركية – ومع ذلك لم تقم ثورة من أجل ضحايا القنابل الاميركية في كل
مكان ...

نعم . الغضب والدهشة ...

وربما الدهشة قبل الغضب ... الدهشة من هذا الكائن العجيب المسمى الانسان ،
الذي يبكي مصرع الطيور ولا يبالي بمصرع ملايين من الشعوب البريثة ...
انه يحتج على جيشه اذا تسبب في مصرع قبيلة من الطيور ... لكنه لا يحرك ساكناً
أمام مصرع شعوب بأكملها على يدي جيشه نفسه ...
صحيح ان مظاهرات اميركية كثيرة خرجت من أجل إيقاف حروب السلطة

هناك في أكثر من مكان ... ولكن ، إذا كان مصرع الطيور يستحق مظاهرة ، ألا يستحق مصرع الشعوب أكثر من مظاهرة ؟ ثورة على الاقل ؟ تمرد ؟ عصيان ؟ أم تراهم يكفرون عن خطاياهم بالخروج في مظاهرات لحماية الطيور وربما لتأمين نظام ضمان اجتماعي للكلاب ؟ ...

عشاق الطيور الذين احتجوا على قسوة الجيش الاميركي ومحاولة إبادة ٣ ملايين طائر ... ترى لو أحصوا عدد ضحايا الجيش الاميركي منذ هيروشيما وكوريا إلى فلسطين وفيتنام ، ألن يفوق عدد الضحايا البشرية الثلاثة ملايين طائر ؟ ... على أية حال ، انني اتقدم بالعزاء من عشاق الحيوانات والطيور ، على أمل ان يأتي يوم تعي الشعوب فيه عار المجزرة الاميركية التي ذهب ضحيتها - وما يزال - أكثر بكثير من ٣ ملايين طائر مقصوص الجناح اسمه البيولوجي : (هوموسايان) ، واسمه الفني انسان ! ..

الكرة حين تنفجر

في ملعب الجامعة الأميركية في بيروت قدّم « ملك » كرة القدم بيليه استعراضاً لمهارته في التعامل معها ورميها وتلقيها وترقيصها تارة برأسه وتارة بقدميه . وذهل جميع المتفرجين لمهارته وصفقوا مسحورين لعبقريته في هذا المجال ، بمن فيهم بعض رجال السياسة .

ولكن ...

لو جلس « الملك » بيليه في مقاعد المتفرجين ، ونزل الى الملعب بعض رجال السياسة اللبنانيين والعرب ، وأدوا أمامه استعراضاً في مجال بهلوانياتهم بالكرة (كرة الشعب المسكين) التي يتقنونها أكثر مما يتقنها حتى هو ، لوقف أمام أساليبهم في « التمير » ، والشوط « على الرأس » تارة وبالقدم تارة أخرى مشدوهاً ، ولعاد من جديد تلميذاً في مدرسة « اللعب » ! ..

ولكنها الحياة ... دوماً هكذا ! اللاعبون الصغار غير المؤذين يستعرضون ، واللاعبون الكبار يتسللون الى المرمى متى شاؤوا ، حتى ولو اشتعلت الكرة ، أو انفجرت ! .

هراوة ، وزى فضائي !

لا تصدقوا صور الفروسية الأميركية في فيتنام ، التي يطلع بها علينا إعلامهم ! ..
لا تصدقوا صور « الأبطال » الاميركان وهم « ينقذون » الأطفال اليتامى
الفيتناميين بطرق دراماتيكية ، تارة يرفعونهم في السلال وتارة بالحبال .. وتعمم الصور
على العالم ! ..

لا تصدقوا صورة رئيس جمهوريتهم فورد وهو يضم الى صدره طفلاً يتيماً
فيتنامياً ويقبله قبلة يوضاس ! ..

لا تصدقوا بسالة ذلك الجندي الأميركي الذي تدلى في الصورة حتى نصفه ليسحب
طفلاً من ساحة المعركة ، فهو نفسه كان يقصف قرية الطفل بالقنابل ، ولعل رصاصة
أطلقها رشاشه بالذات سبق لها أن قتلت أم الطفل ! ..

لا تصدقوا الشهامة الأميركية لإنقاذ يتامى فيتنام ، وكل العبارات العصرية التي
يستعملها الإعلام الحديث لتغطية الأمر ! ..

أولئك الأطفال المساكين ، أميركا صنعت بؤسهم ... جنودها أنبتوهم في رحم
السبايا الفيتناميات في ليل اللعنة والبؤس ... جنودها قتلوا الرجال الفيتناميين الذين
كان يفترض أن يكونوا آباء لهم ... جنودها أحرقوا زرع الأرض التي كان يفترض
أن يكبروا فيها وهدموا بيوتها ... وما فعلته أميركا بفيتنام لا يختلف عما كانت تفعله
أي قبيلة في العصر الحجري حين تغزو قبيلة أخرى : تقتل رجالها وتسي نساءها
وتربي أبناء زنا الحرب ليصيروا عبيداً وخصياناً ! ..

ولكن المنطق الإعلامي الأميركي يسبغ على الهيكل العظمي البشع لهذه الحقيقة
أثواباً مزركشة ويغطيها بالمساحيق اللغوية ... فتتحول الجريمة الكبيرة الى عملية انقاذ
ميلودرامية ... تصفيق ! (ولو خلع الرئيس فورد بزته الفضائية لخرج من تحتها حاملاً
هراوة وعلى جسده جلد نمر كأبي محترف حرب همجي) .

تلك الطائرة الأميركية التي تحطمت وهي تقل بعض اليتامى من أرض وطنهم الى مستقبل التشرّد ، هل كان سقوطها وموت أكثر أطفالها كارثة جوية أم حكمة إلهية ؟ . ١٤ .

ودموع الأطفال الفيتناميين الذين ودعوا بها بلادهم المحترقة ليلة السفر ، هل يمكن أن تتبخر في فضاء التاريخ كأن شيئاً لم يكن ؟ . ١٥ .
ولو جمعت دموع الأطفال التي تسببت أميركا في ذرفها في أقطار العالم كله ، ألا تكفي لتكون نهراً يجرف أكثر ساستها ومجرمي حربها ؟ ..

أنطوانيت معلوف : محاكتك إدانة لهم ؟

الدكتوراه انطوانيت معلوف رئيسة لجنة الأمهات في لبنان ستقدم الى المحاكمة .
لماذا ؟

لأنها كانت أما بحق لجميع اللبنانيين ، ولأنها كانت الحنجرة لشكاوانا جميعاً من ذلك الوحش الذي أنشب أنيابه في حياتنا جميعاً والمدعو : الغلاء .

بوحى من علمها ومن مسؤوليتها كأم وكواطنة ، قالت هذه السيدة علناً ما يقوله بقية الناس همساً وما سيقولونه ذات يوم صخباً وانفجاراً... انتقدت ارتفاع الأسعار واهتمت المسؤولين في وزارة الاقتصاد بالتقصير وبالتواطؤ مع المحتكرين ومصاصي دم الشعب الكادح . وبدلاً من أن يسارع المسؤولون الى التحقيق في شكاواها التي هي شكوى كل مواطن لبناني سارعوا الى إخماد صوتها .. كأن قطع لسان المتوجع ليكف عن الصراخ هو العلاج لأوجاعه ! ...

الغلاء حقيقة لا يلغيتها تقديم الدكتوراه معلوف الى المحاكمة ، (بل ربما يلغيتها تقديم سواها الى المحاكمة) .

وقد تكون الدكتوراه معلوف على حق في تشخيصها لأسباب الغلاء وقد لا تكون ، ولكن محاكتها ليست أبداً من طرق معالجة الغلاء ..

والدكتوراه معلوف حين أبدت وجهة نظرها حول قضية الغلاء لم تتدخل فيما لا يعينها . ففي بلاد العالم الراقية من المتعارف عليه أن ربات البيوت - بحكم عملهن - هن أول من يطلق صيحة الاحتجاج على الغلاء ... بل هن يتخذن أحياناً قرارات بمقاطعة بعض أصناف المواد الغذائية مقاطعة تامة لمعاقبة التاجر المستغل ، كما يخرجن في التظاهرات ضد تقصير المسؤولين في مراقبة الأسعار .

ليس مؤملاً أن تمثل الدكتوراه معلوف أمام المحكمة ... المؤلم هو فكرة تقديمها الى المحاكمة .

المؤلم هو رفض كل محاولة واعية للإصلاح تقوم بها امرأة في مجتمعنا .
المؤلم هو موجة محاولة لإخماد أصوات النساء الجديات العاملات ، ومحاولة
مكافحة هذه الظاهرة ، ظاهرة المرأة المسؤولة .
مجتمعنا ما يزال يحتضن « المرأة - الدمية » ، و « المرأة - السلعة » ، ويصاب
بالخوف أمام ظاهرة المرأة المفكرة والمسؤولة .
المرأة الدمية التي تقف أمام واجهة تستعرض فستاناً ثمنه ٢٠٠٠ ليرة دون أن يرف
لها هذب هي التي يجب أن تقدم الى المحاكمة ، لا المرأة التي تتحسس مشكلات
الأسرة أمام أخطبوط « الغلاء - الكابوس » الذي يجثم على صدر كل مواطن
ومواطنة ...
وليست المفاجأة أن (ثور) الدكتور معلوف ، المدهش هو انه لم تنشب حتى
اليوم (ثورة) ! ...

هل السرقة من السارق سرقة ؟

في « بيونس ايرس » عادت أسطورة « روبن هود » حية الى الازهان .
فقد أقدمت جماعة على التهديد باختطاف ، أو قتل ، مديري شركة « فورد »
الأميركية في الأرجنتين إذا لم تخضع الشركة لشروطهم . وأعلنت هذه الجماعة أنها
ستصرف مبلغ المليون دولار المطلوب (كسلفة فدية) على بناء مستشفى ومساعدات
أخرى للفقراء ...

وكما كان « روبن هود » يسرق من الأغنياء ليعطي الفقراء ، وأرسين لوبين
و« عصابة بونو » وغيرهم من أبطال تحقيق العدالة الرومانسية ، خلال القرون الماضية ،
نجد أن (العدالة الرومانسية) تجد وريثها المعاصر في تنظيم ما ، والفارق البسيط بين روبن
هود و (التنظيم) ؛ هو اعتماد العصور الماضية على صورة الفرد البطل لتحقيق العدالة ،
وانتقال ذلك الدور في عصرنا الى جماعة وذلك تمشياً مع سقوط الفرد البطل وانتقال
دور البطولة الى كورس انساني جماعي .

فرق آخر بسيط ... هو أن تهديدات أرسين لوبين التي كانت في روايات
(موريس بلان) مجرد بطاقات زيارة عليها توقيعها صارت أيضاً أكثر عصرية
وتحولت الى أشرطة تسجيل عليها محاضرات فكرية . فقد اقتحم سبعة من تلك
الجماعة مكاتب شركة « فورد موتورز » وأجبروا الموظفين على الاستماع الى حديث
يحمل على زيارة « وليم روجرز » وزير الخارجية الأميركية للأرجنتين ! .

لقد بُعثت من جديد حركة فرض « العدالة الرومانسية » ، وما خطف الطائرات
إلا صورة معاصرة لعملية (روبن هودية) ... كانت فيما مضى حركة أشخاص
ضد أفراد أثرياء .. واليوم تحولت الى حركة جماعات ضد دول ثرية مستغلة
سارقة ... والسؤال الذي يفرض نفسه : هل السرقة من السارق سرقة ؟ أم هي
(استعادة) ما سبقت سرقة من الجماهير ؟

في بيروت مدينة الفقر والتخمة ، يفرض السؤال نفسه :
حين تتعطل الدوائر (الشرعية الرسمية) عن تحقيق العدالة ، أليس مشروعاً
تحقيقها بأية وسيلة حتى ولو كانت (غير مشروعة) ؟ ...
كل ما أعرفه هو أن عصرنا العلمي المتوهج بالاختراعات ما زال يغط في ظلمات
العصور الوسطى على صعيد العدالة ...
لذا فكل اختراعات عصرنا (شريرة) ، و « الكومبيوتر » والصاروخ والديناميت
شريرة أيضاً لأن الإنسان ما يزال يوظفها ضد تحقيق العدالة البشرية ...
ولذا ، ليس غريباً أن يلجأ عالمنا المعاصر الى حلول القرون الماضية ما دامت
العدالة من يومها لم تخط خطوة واحدة في أكثر من بلد .
ويبقى السؤال : هل السرقة من السارق سرقة ؟ ...

الطلاق بين التلفزيون والفكر !

يبدو ان التلفزيون اللبناني مصر على تكريس الطلاق بينه وبين الثقافة والفكر ... وهو يحرص في كل مناسبة على تأكيد احتضانه لكل ما له علاقة بالرخص والعجالات والابتذال ، وتجنب كل ما له علاقة بالعمق الإنساني وإثارة القضايا الجادة ... وإذا تصادف أن تعثرت الخطى بأديب كبير مثل الأستاذ بولس سلامة ، ووجد نفسه في ستوديوهات القناة ٧ حاملاً كتابه الرائع « في ذلك الزمان » معتقداً أنه جيء به ليتحدث عنه ، فإن المديعة اللبقة ستتجنب توريط المستمعين بحديث راق كهذا ، وسوف تدير دفة الحديث لتسأل الأديب سؤالاً واحداً واحداً : كم هو عمرك ! .. نعم ! ... كما لو كان راقصة هز بطن ينقضي أجل إبداعها الفني مع بلوغها سن الرشد ! ...

قلت لنفسي : حسناً . ربما كانت تحاول أن تجد وسيلة تبدأ الحديث بها .

لكن الحديث مع الشاعر الرائع والفنان الكبير بولس سلامة انتهى هنا ، وانصرفت المديعة عنه الى ما هو أهم وأعظم من ضروب (التسلية الكومبيوترية) مع المراهقين الذين كانوا يجيبون على اسئلة البرنامج والكومبيوتر وهي تجمع النقاط وتطرح ، والكل لاه عن « ضيف البرنامج » الذي استغل اسمه الكبير ، وانتهى منه البرنامج

تأملت وجهه المضيء بسبعين عاماً من العطاء الإنساني ، وتمنيت لو أن المديعة تدرك ولو لثانية أن هذه الدقائق قد تكون أهم وأجدي دقائق عمرها ... أن تكون مع مبدع وقادرة على أن تسأله وهو راض بأن يجيب ... كم كانت قادرة على أن تملأ بيوتنا ونفوسنا بالحب والفرح الإنساني لو مدت جسراً من الحوار الى عالمه وتركت كلماته المضيئة تعبر إلينا ...

ولكن الحلم تبدد ... والأديب لم يكن أصلاً موضع اهتمام البرنامج .. والأدب - أو كل ما هو جاد وعميق وقادر على نبش الذات - لم يكن قط موضع

اهتمام التلفزيون ... وبرنامج (التسالي) العظيم قد يكون اكتشاف طريقة مبتكرة كومبيوترية في النقد الأدبي ومدرسة لم يتوصل إليها أحد بعد ، لكن الأديب خليل تقي الدين الذي أعلنت المديعة عنه ضيفاً للحلقة المقبلة أعاد الاعتبار الى عبارة (أديب) حين أعلن رفضه للظهور في البرنامج بعد أن رأى بعينه « بشس المصير » الذي ينتظر الكتاب وصاحبه ...

لإني أدعو الأدباء الذين يحترمون أنفسهم الى مقاطعة التلفزيون الذي يقاطع الفكر والثقافة منذ بدايته — إلا في ما ندر — والرد على القطيعة بمثلها ... وأعتقد أن تصرف الأديب خليل تقي الدين يجب أن لا يظل موقفاً فردياً بل من الضروري تحويله الى موقف عام والى اداة للضغط على التلفزيون وارغامه على إظهار الأعمال الأدبية في إطار جاد ، ورفع مستوى البرامج بصورة عامة بدلاً من تنفيه الأدب والأدباء ...

فقد يأتي يوم نجد فيه التلفزيون يسأل ميخائيل نعيمة اعطاء ارشادات في الطبخ ، وسلمى الحفار الكزبري تقديم وصلة غنائية ، وسعيد عقل في مونولوجات ونكات متنوعة ! ! ... هزلت ! ! ...

وأما الأديب الجليل بولس سلامة ، الذي لا أظن أن أحداً اتصل به من التلفزيون للاعتذار ، فإني أعتذر اليه عن عصري وعنهم وعننا جميعاً وأقول له : سيدي اغفر لهم فانهم لا يعلمون ما يفعلون ..

أين لجنة الصحة العقلية للسياسة العربية ؟

لا علم الاقتصاد ولا التاريخ ولا الجغرافيا ، ولا حتى الفلك والسحر والأدب والشعر كلها بقادرة على تفسير ما يدور من تناقضات وفضاعات في بعض عالمنا العربي ... وربما كان ذلك ما دفعني للتفتيش عن تفسير لدى الأطباء النفسانيين ! .. ووجدت لديهم الكثير مما يمكن قوله عن الشعب العربي وعن حكام الشعب العربي ...

يوم كانت هزيمة حزيران - التي ما تزال قائمة - ذهبنا الى الخبراء الحربيين والاقتصاديين والتاريخيين والعقائديين فقالوا وقلنا وقالوا وقلنا وقالوا وقلنا ثم أعدوا تقاريرهم عن كيف ولماذا وماذا بعد ... وبقي كل شيء على حاله، وبقيت كيف ولماذا و « ماذا بعد » على حالها ...

ولم يخطر ببال أحد يومئذ الذهاب الى الأطباء النفسانيين ولا خطر ببال ذلك ... ولكن الأعوام التي مرت بعد الهزيمة ، وما حملته من أهوال ومناقضات تدفع بنا الى القول بكل بساطة : سلوك بعض الشعب العربي حكاماً وافراداً ليس سلوك مجتمع يريد حقاً أن يجارب أو أن يدخل، لا في حرب هجومية ، ولا في حرب دفاعية. وتناقضات حكام الشعب العربي ليست من نوع التناقضات التي تعبر عن خصب حيوي وتنوع ، تتصف به عادة الشعوب التي تتطور بسرعة ، وانما أكثرها تناقضات مرضية سلبية من النوع الذي يعرف أعراضه جيداً كل من قرأ كتاباً نفسانياً ولو بالمصادفة .

إن من يطالع الصحف ، ويتابع أخبار الإذاعات ، ويشهد التلفزيون لا بد أن يصاب بالذهول - إذا لم أقل بالحقد والرفض والاشمئزاز واليأس - ... والصورة التي تنعكس لحياتنا في مرآة وسائل الإعلام مذهلة بما تحويه من تناقضات ... فلنمسك بأية صحيفة من صحف اليوم ... هنالك أبناء عدوان إسرائيلي على الأرض اللبنانية أي على أرض عربية ما ... وهنالك اعلان كبير ملاصق عن انتخاب ملك جمال

(الشوارب) الشارين . وبعدها صورة فدائي قتيل . وبعدها بيان من جمعية الرفق بالحيوان . ثم صورة فتاة جريح في مظاهرة طلابية . ثم بيان لأحد ساستنا المحنكين . ثم صورة عن الطرق التي شقتها «إسرائيل» في جنوب لبنان على الحدود تمهيداً لاحتلاله . ثم صورة أحد (بكوات الجنوب) في حفلة كوكتيل يراقص إحدى (سيدات المجتمع) . ثم خبر عن فتاة ذبحها أخوها من أجل نقاء العرض . ثم صورة لنازحين فقدوا الأرض . ثم خبر عن سجن مدمن حشيش تم القاء القبض عليه ، وكان يحشش هرباً من بؤسه لأنه عاطل عن العمل وعن السرقة . ثم حديث صحافي مع أحد كبار مسؤولي الدولة وآخر من كبار « مسؤولي ! » تجارة الحشيش يدلي برأيه في (أنوثة) المرأة . ثم تهرب من الجريدة الى التلفزيون . ها هو مسؤول آخر يتحدث عن الاعتداء الإسرائيلي على جنوب لبنان . يقول نحن أذكاء لأنها لم تكن مفاجأة ! لماذا لم نرد العدوان؟ استسمع واحدة من كليشيات الهرب من المسؤولية . تهرب الى قنال آخر إذا وجدته ، ستجد مسؤولاً آخر يتحدث عن فضائل السجن الحديث مثلاً . عن ذلك الانجاز العظيم و (مفخرة المسؤولين) . وتهرب من ذلك كله الى شجار عائلي ممتع يخدرك عن أحزانك القومية ويمتص ما تبقى من طاقاتك المهدورة لتنام ، أو تذهب الى مسرح (انتقادي) يفرغ أحزانك وأحقادك كلها في قهقهات كالفقاعات على سطح برك القهر الاجتماعي والرشاوى والتجاوزات وسارقي الدولة – (وحاميها حراميتها) – وصفقات السلاح والخوة ومؤتمرات الجمعيات الخيرية ومؤتمرات القمة العربية وغير القمة وغيرها من الأحزان التي ليست لبنانية فقط وإنما هي أحزان عربية ... (وهنا أترك لقارئ في أكثر من قطر عربي أن يستجمع في ذاكرته – وما أسهل ذلك – التناقضات اليومية حوله في ممارساته وممارسات من حوله لقضاياه القومية والإنسانية ابتداء بداره وعمله وانتهاء بأحزانه الوطنية والسياسية ، وحرقة القومية التي لا بد أن تفجرها فظاعة التناقضات التي تدور على مسرح اللامعقول في عالمنا العربي كله) أو أتركه يبتلع قرصاً منوماً ليبدأ يوماً قد يكون مختلف الأحداث من حيث التفاصيل لكن لا جديد فيه من حيث الروح العامة التي يمكن تلخيصها بما يلي : ليس هنالك سلوك مسؤول ، سلوك من يريد أن يحارب حقاً ، أن يدافع عن وجوده حقاً ، وأن يسترد أرضه الضائعة حقاً ... وليست هنالك خطة واضحة المعالم للحل أو حتى تصور لخطة .

إن لحظة صدق واحدة ينظر بها الإنسان العربي الى ما يدور حوله – لحظة نادرة ينتزع خلالها نفسه من مستنقع التفاهة والزيف العربي الذي بعضنا جزء منه ، وكلنا

مسؤول عنه شاء أم أبى – لحظة صدق واحدة تدفعه الى أن يغمض عينيه لهول ما يرى ويسد أذنيه ويصرخ ، ويصرخ بلا صوت ... ويركض مثلي لا الى علماء الاجتماع والسياسة والعقائديين وحتى ثوار الأرصفة والاقتصاديين والمنجمين وإنما الى أول طبيب نفسي يلقاه ليسأله عن ذلك المستشفى الكبير غير المسور الممتد من المحيط الى الخليج والذي لا يعي مرضاه مرضهم ولا يعون ان بعض مدراء هذا المستشفى الكبير ومسؤوليه وقبضياته والقيمين عليه هم أشد الجميع مرضاً وهم الذين يتسببون في نشر « الوباء » ... وإذا كان عالمنا العربي بحاجة الى شيء فهو بحاجة الى طبيب نفساني بقدر ما هو بحاجة الى القائد والاقتصادي والعقائدي ... ان ما يدور حولنا لا تفسير له سوى أن هنالك (خللاً) ما قد أصاب الشخصية العربية النبيلة الفذة ، وانه لا بد أن يكون لهذا الخلل اسم في الطب النفسي ! ...

لقد ظلت خواطري هذه حبيسة صدري ، ولكن كل كتاب نفساني أقرؤه – وهو فرع تسحرني قراءاته – كان يزيدني يقيناً بأن فكري هذه تستحق البحث علناً على الأقل ... وبعد قراءتي الثالثة لكتب الدكتور « لينغ » الذي يعتبر اليوم من أكبر أطباء علم النفس المتخصصين في مرض ازدواج الشخصية (الشيزوفرانيا) وبصورة خاصة كتاباه (النفس المشطورة) و (مبادئ الخبرة وطيور الجنة) صار لدي ما يشبه اليقين بأن مرض ازدواج الشخصية يتهدد بعض شعبنا العربي إن لم أقل قد تفشى فيه كالوباء الساري ...

هذه الازدواجية المروعة بين ما نقوله وما فعله ... بين ما يصرح به أكثر حكامنا على المنابر ، وبين سلوكهم ليلاً بين الموائد ... هذه الازدواجية في السلوك يجب أن يكون لها تفسير ...

حينما قررت انكلترا مثلاً أن تحارب المانيا بالمدافع وأن تصمد وترد الهزيمة ، جمع أبناء الشعب كل ما لديهم من طناجر ليُصار الى صهرها وتحويلها الى مدافع ... نحن نخطب عن الحرب . نتغزل بالحرب . نصفق لفكرة الحرب . . نفعل كل شيء من أجل الحرب ما عدا أن نحارب . ما اسم هذا السلوك إذا لم يكن ازدواجية في الشخصية ؟ ...

ازدواج شخصية ؟ يا ريت

التقيت منذ أسبوع مصادفة بالدكتور عبد الرحمن اللبان الطبيب النفسي كما هو معروف للجميع ، والفنان الكاتب المرفه كما هو معروف لأصدقائه القلائل فقط ...

ونقلت إليه آرائي هذه كلها ... قتلها له همساً ، لا لأنني خائفة من العقاب إذا أتت أكثر حكام الشعب العربي وأكثر أفراده - وأنا منهم - بمرض الشيزوفرانيا ، ولكن لأنني خائفة من التجني على مرض الشيزوفرانيا 1 .

قلت له اني واثقة من أن هنالك « خللاً نفسياً جماعياً » ما تعاني منه الشخصية العربية ولكنني لست واثقة من التشخيص . فقد يكون لذلك « الخلل » اسم آخر .

وقال لي الدكتور عبد الرحمن اللبان : شيزوفرانيا ؟ انفصام شخصية ؟ يا ريت ... ربما كانت الأقلية ، الأقلية المثقفة والحساسة لدينا هي التي تبدي سلوكاً شيزوفرانياً بمعنى (الشيزوفرانيا الفكرية) الذي يكون في مراحل الأولى دليل إخلاص إنساني لأنه احتجاج الأقلية التي هي على حق إنسانياً ضد الأكثرية وطوفان انحرافها وعالمها خاطيء القيم والاتجاهات الذي بات لا يحتمل ...

إن الخلل الذي أصيبت به الأكثرية والذي تحسّن بوجوده احساساً غامضاً وتجهلين اسمه ، هذا المرض اسمه (سايكوبات) . سيدتي . أكثرية حكامنا وشعبنا العربي هم (سايكوباتس) . بعض الصحف الغربية تطلق على سلوكنا السياسي هذه التسمية وهي للاسف على حق أحياناً .

يا أمة ضحكت من « سايكوباتها » الأمم

سايكوباتس .

ماذا يعني ذلك ؟

الدكتور لبان يقول بحدة وحسرة : صفات المريض بالسايكوبات هي ما يلي (وكل صفة منها تؤدي الى الأخرى) .

- ١ - عدم نضج الشخصية .
- ٢ - أناني . فاقد للمفهوم الإنساني لكلمة « مصلحة » . يجدها فقط في رغباته الدنيا .
- ٣ - لا يتحمل مسؤولية ما يقول ولا ما يفعل ، ويهرب من مواجهة الحقيقة ويتحايل عليها بكافة الأساليب الواعية وغير الواعية .
- ٤ - يستعجل اللذة الفردية الحسية والمادية .
- ٥ - لا يتعلم من خبرته .
- ٦ - غير قادر على اتخاذ قرار ، وعاجز عن تنفيذه .
- ٧ - عاجز عن تقبل النقد ، أو الحوار الحر .

٨ - فاقد تماماً للطموح بمعنى إيجاد هدف والتطلع الى تنفيذه عبر العمل الشريف الشاق الطويل المدى .

٩ - فاقد للانسجام مع الواقع والتطابق مع معطياته الموضوعية .

١٠ - فاقد للقدرة على المرونة ، والتكيف ، متكل على معطيات بدائية غريزية في سلوكه كتقديم الولاء العشائري على الولاء الوطني حينما يتضاربان مثلاً .

١١ - عاجز عن تصور امكانية وجود أية وجهة نظر غير وجهة نظره .

هذه هي الصفات التي تميز مرض (السايكوبات) النفسي .

ومرة ثانية أترك لقرائي تطبيق هذه المبادئ العلمية على سلوك أكثر مسؤولينا ، وعلى سلوك بعض شعبنا العربي الذي يستغل كثير من حكامه أمراضه هذه بدلاً من محاولة تجاوزها وشفائها ... وأترك لقرائي تحديد النسبة المثوية لاصابتنا بها ... والضحايا المرتقب سقوطها ما دام كل ما يدور يدفع بنا بطريقة ما الى السقوط في براثن هذا المرض ... أو العقاب . الكاتب الحر الذي يرفض التدجين ويرفض أن يصير سايكوبات - أو نصف سايكوبات على الأقل - يلقي ضغوطاً اجتماعية وسياسية وارهائية وتهديدات بالسجن ويقطع رزقه وترغيباً وترهيباً .

وقلت للدكتور لبان : هل تذكر حكاية كلب بافلوف ؟ ألا تظن أن الشعب العربي مر بتجربة مماثلة عام ١٩٦٧ ؟

وحكاية كلب بافلوف تتحدث عن عالم روسي اسمه بافلوف لديه كلب يجري تجاربه العلمية عليه ، منها تلك التي درسناها في المدرسة . بافلوف يقرع الجرس كلما قدم للكلب طعامه . يكرر ذلك مرات . ثم يقرع الجرس دون أن يقدم للكلب طعامه . لعاب الكلب يسيل . لقد «تطبع» وصار يتوقع الطعام كلما سمع الجرس... هذه التجربة وتجارب أخرى كثيرة أجراها بافلوف على كلبه بحيث صار حيواناً نادراً وكتراً علمياً من حيث قوانين «تطبيع» الأحياء وخلق ردود فعل معينة لديهم . ذات يوم ذهب بافلوف لقضاء إجازة آخر الأسبوع وترك كلبه في قفصه الزجاجي . وتصادف أن تعطل صنوبر المياه وبدأت المياه تغمر مختبر بافلوف وتغمر قفص الكلب حتى كادت تخنقه ، وبفعل غريزة البقاء صارع الكلب المياه حتى أبقى رأسه فوق سطحها ونجا من الموت باعجوبة إذ وصل بافلوف فجأة وأنقذه قبل ثوان ...

واكتشف بافلوف يومئذ أن كارثة علمية وقعت اسمها «غسيل الدماغ» . لقد تم «غسل دماغ» كلبه الذي كان كترأ علمياً فعاد كلباً عادياً غيباً لا يهتز ذنبه ولا يسيل لعابه لقرع جرس بافلوف ولا جرس انذار ! ...

إن الموت الذي واجهه الكلب مسح عن دماغه كل شيء غير الرغبة في البقاء
سألت الدكتور لبان : ألم يكن في ه حزيران نوع من غسيل دماغ للفرد
العربي ؟ ...

قال : ليس تماماً . قلائل وعوا الكارثة ، فالسايكوباتس الذين من أبرز صفاتهم
عدم النضج الإنساني لا يعون خطر السكين إلا بعد أن تغمد في صدورهم .
— والذين وعوا ه حزيران ، وتم غسيل دماغهم بطريقة ما ، وصار ذهنهم
صفحة بيضاء ، هل يمكن زرع خطة مدروسة فيها للنار واستعادة الأرض والكرامة ؟
رد الدكتور لبان بحرقه : لم يتبدل شيء تقريباً للأسف بعد ه حزيران ... ولقد
تمت إعادة غرس الأمراض العربية كلها والتخلف العربي كله « والسايكوباتيه » في
أي ذهن تم غسله ... لقد وظفت الهزيمة لغرس مزيد من أمراض الهزيمة ! ...
— لنعد الى القضية منذ البداية . لماذا أصيبت الأمة العربية بمرض السايكوبات ؟ ...
— مأساتنا هي الخروج من مجتمع بدائي الى مجتمع عصري دون المرور بمرحلة
الحضارة بمعنى بنائها اليومي عاماً بعد عام ... لقد انتقلنا من البداوة الى مجتمع
الاستهلاك المستورد دون المرور بالحضارة . اليك هذا المثال : سعيد عقل يظل يكرر
ان ثمن السيارات التي استوردها لبنان في — كذا — سنة يكفي لإنشاء معمل سيارات .
لقد نسي انه لا يستطيع شراء الحضارة وانما يستطيع شراء نتائجها ، وإن معمل السيارات
ليس رأسمالاً تقديماً احصائياً وانما هو أولاً رأسمال انساني يتطلب درجة معينة من
الحضارة ابتداءً بالعامل وانتهاءً بمدير المصنع ونظام الحكم و ... و ... ما جدوى
الدبابه التي تستورد إذا حاربنا بها وكأننا نركب دابة لا دبابه ؟ ...
نحن ما زلنا غارقين في أنماط سلوكية تقليدية في فكرنا وقيمنا ، هذه الأنماط
تمنعنا من مواجهة الواقع ، وتمزيقها الواعي هو وحده بداية الخلاص ...

تنوعت الأمراض والاجماع واحد

بعد لقائي بالدكتور لبان سميت للقاء أكثر من طبيب نفسي ... كانوا جميعاً
يجمعون على وجود « خلل » في الشخصية العربية وإن اختلفت تسميتهم لهذا الخلل بين
السايكوبات والشيزوفرانيا وغيرهما من الأسماء العجبية الغريبة الموجهة ... بل إن
بعضهم بيّن لي كيف أن الحاكم (فلان) هو نموذج لمرض جنون العظمة وانه دونما
شك يعتقد انه نابليون ... والمسؤول (فلان) مصاب بلسادية ... والماسوكية ...
والدليل سلوكه العملي ... والمسؤول (علان) مصاب بانفصام الشخصية وأولى صفاته

عدم الوعي بظروف العالم الخارجي الموضوعية . والدليل ؟ تصريحاته وخطبه . وهنا اسمعني الطبيب شريطاً سجله لمريض نفسي يتحدث فيه من ذات الموقع الذي يتحدث منه المسؤول ... موقع غير الواعي لوجود أحد سواه في العالم ... موقع الذي يخاطب نفسه وعالمه الداخلي المغرور دون أن يكون لديه أدنى وعي بما يغلي في صدور الجماهير ...

عفو الشيزوفرانيا ...

وحدثوني عن أمراضنا العربية ... وحدثوني وكان حوارنا نوعاً من تشاكي المرضى ... أحسست ببعضهم ، أولئك الأطباء النفسانيون مرضى معذبون أكثر من جميع مرضاهم ... فالجنون هرب نهائي من عالم الواقع وقطع نهائي للخيوط التي تربط بينهم وبين عالم المجانين الحقيقيين الأشرار - الأكثرية التي تطلق على نفسها اسم العقلاء - أما نحن ، الأطباء النفسانيين وأنت يا قارئي ، ويا الآف المعذبين ، فكلنا لم نرحل بعد الى قارة الجنون المخدر ، وكلنا ما نزال على التخوم بين العقل والجنون ، بين الاستسلام النهائي لفظاعة ما يدور والانضمام الى قطيع جلادينا الذين حولونا الى أصنام مخنطة ذليلة في متحف التاريخ ، وبين التمرد الواعي على هربنا النهائي الى تخوم الجنون النهائي ... من هذا الموقع المعذب ، من أرض الجحيم ، من أرض الزجاج المسحوق ... علينا أن نرحف ونثور .

ماذا نفعل ؟ ...

ولكن ، هل هذه ملحمة ندب للعقل العربي ، ومرثية أخرى تلقى على تكاياها ؟ ... لا . هذا الكلام كله حملته لأكثر من طبيب أسألم : ماذا نفعل ؟ ... لقد سألتنا المسؤولين الحزبيين والاقتصاديين والسياسيين وحتى العرّافين ماذا نفعل ... ونسيناكم أنتم أيها الأطباء النفسانيون ... ونحن أحوج ما نكون اليكم قبل كل شيء ... نسيناهم ولكن يبدو أنهم لم ينسوننا ...

قال لي الدكتور أحمد ذروي : عام ١٩٦٧ - بعد الهزيمة - الميت محاضرة في نادي خريجي الجامعة العربية تحدث فيها عن « الأزمة النفسية لدى الإنسان العربي » ... وتحدثت فيها عن الهوة الخطيرة بين الحكام وبين رغبات الشعب ، وعن انعكاسها على نفسية الشعب وأمراضه . وعن الازدواجية القائمة بين الأمة العربية وأكثر حكامها ، وبدون وجود تطابق بين الحاكم والمحكوم لا يمكن للأمة أن تنهض من

كبوته... وحذرت من خطورة التفكير القبلي العربي والسلوك العشائري... وحذرت من خطورة الاعلام غير الصادق... وتحدثت عن مأساة الإنسان العربي الذي لا تنظر اليه لا الدولة ولا الأسرة كقيمة إنسانية قائمة بحد ذاتها. اننا نعي جيداً العلاقة الخطيرة القائمة بين الهزيمة وبين الأمراض النفسية العربية... ولكن...

وقلت له : ألتست معي في ضرورة إتاحة الفرص لعلماء النفس كي يلعبوا دوراً نحن بأمس الحاجة اليه في عالمنا العربي ؟ ...

قال لي الدكتور ذروي بتواضع يُحسد عليه: سنة ١٩٦١ اقترحت في مؤتمر الطب العربي تأسيس لجنة قومية عربية تسمى « لجنة الصحة العقلية للتخطيط والتوجيه ». ووجدتني أكرر شبه منومة : وبقي كالعادة حبراً على ورق ... ولم يجب . وفهمت .

المطلوب الالتجاء اليهم

إذن . لا أخترع البارود إذا طالبت باحياء هذا الاقتراح للدكتور أحمد ذروي... بل وبتوسيعه ، بانشاء مؤسسة دراسات للأمراض النفسية العربية ...

تُرى هل من الضروري التذكير بأن مثل هذه الدراسات قائمة في «إسرائيل» ؟ انهم يدرسون هناك الشخصية العربية وأمراضها وكيف يحاربون العربي ويأتونه من نقاط ضعفه ... وفي المؤتمرات الدولية ، بالضبط في مؤتمر جنيف الدولي الذي عقد منذ شهرين حول المخدرات بدأ المندوب الاسرائيلي، استاذ الحقوق في تل أبيب، كلامه بقوله : إن بلدي يقع في الشرق الأوسط بين أحد أكبر البلدان المنتجة للحشيش وأحد أكبر البلدان المستهلكة للحشيش ! ..

ولكنه لم يقل أن أكثرنا يحترف التخدير عن الحقيقة ، تخدير أنفسنا ...
يا نحن ...

الثورة ...

أيها الأصحاء القلائل في عالمنا العربي ... أيها المعذبون أنصاف المرضى النفسيين (لأن من لا يمرض منا - قليلاً - يكون بلا شبكة عصبية أو احساس) لم يبق أمامنا إلا الشيزوفرايا الكاملة ... أو الثورة الكاملة ...

بطاقة دعوة إلى الثورة !

استيقظت صباح الاثنين ١٩ نيسان بطريقة لا أستطيع أن أقول انها ممتعة . كانت هنالك يد تفرع باب غرفتي بشدة شرسة . الساعة ٧,٣٠ . تذكرت أنه يوم عطلة الفصح الأرثوذكسي ، لا عمل . لماذا يوقظونني ؟ ماذا حدث ؟ عادت اليد تفرع الباب يرافقها هذه المرة صوت شبيه بالصراخ : الشرطة .
الشرطة ؟ ماذا تريد الشرطة ؟ كنت واثقة من انني لم أرتكب - بعد - أية جريمة (يطالها القانون) ، فماذا حدث ؟ ...

متعرة بالاثاث ، وبقايا شهوة النوم في رأسي ، سارعت ذلك الصباح البوليسي أسأل ماذا حدث . قالت لي : جارنا البقال جاء يكلمك بشأن السيارة . يقول ان الشرطة سوف ترفعها من مكانها إذا لم تتولي ذلك فوراً ! ...

الشرطة ترفع سيارتي من مكانها ؟ ولماذا ؟ أذكر جيداً انني أوقفتها ليلة البارحة أمام البيت وفي مكان غير ممنوع ، ولم أصدم بها انساناً أو سيارة ولم أنقل فيها سلاحاً غير مرخص أو حتى حاملاً لسلاح غير مرخص . وليس في سيارتي حشيش أو افيون أو مناشير ... (رغم ان كل ما يدور حولنا يخرضنا على استعمال السلاح لانتزاع حقوقنا ، والمناشير لإذاعة صرخاتنا بحرية ، وربما الحشيش والأفيون لننسى !) .

أذكر جيداً ان كل ما في سيارتي هو معطف منسي ، وعدة أوراق (من روايتي الجديدة) لا تهم احداً سواي ، وعلبة كلينكس ، ومظلة ، ورواية « البيضاء » غير الممنوعة .

وهكذا ظننت أن هنالك من يمارس هوايته في تضخيم الأخبار ونشر الدعر ...
بيرو دلت : سأعود لأنام ، لا توقظوني ولو حدث زلزال .

ومع ذلك لا أدري لماذا مررت بالشرقة قبل أن أعود الى النوم ، ولم أكد أطل منها على الشارع المواجه لدارنا (شارع عمر الداعوق) حتى طار النوم من عيني تماماً ،

ربما لأيام ...

فوجئت بمشهد لا ينسى . طريف بقدر ما هو مفرح ! ...
كان هنالك ثلاثة من رجال الشرطة يفتحون بطريقتهم الخاصة (وهي طريقة ليست خاصة جداً لأن سارقي السيارات يمارسونها غالباً بنجاح) ، بسلك أو بمفتاح خاص، رأيتهم يعالجون باب (فولكزفاجن) بيضاء ، ثم يفتحون بابها ، ويرخون فراملها ويتولون دفعها حوالي ٦٠ متراً الى محطة « البنزين » القريبة ! ... تلفتت بحثاً عن مخرج سينمائي أو مصور لا بد أن يكون قد أخرج مثل هذه اللقطة لأحد أفلام العصابات المتكررين بزي رجال البوليس . لم أجد أحداً ، وإنما رأيت سيارة رافعة ضخمة قابعة في أول الشارع خلف رتل السيارات النائمة مثل وحش يتهددها بالتكسير والتخليع هكذا فجأة ، ودون مبرر ...

رجل (بالبيجاما) خرج راكضاً الى سيارته يزيحها الى شارع جانبي ... ويعود أيضاً راكضاً الى فراشه . صبي جارنا البقال جاء راكضاً يناديني : الرئيس يريد أن يمر ... ارفعي السيارة وإلا رفعتها الشرطة « بالونش » ! ...

حينما قال لي « الرئيس » فهمت . فأنا أعرف كبقية المواطنين أن المواكب هوايته . حسناً فليمر هو وموكبه ، ولتتقدم سيارته دبابة أو مهرج أو فرقة طبالين وموسيقيين على الدراجات النارية ... وليسرح وليمرح كما يشاء ، ولكن لماذا يريد أيضاً أن يخلي الشوارع ولماذا يوقفنا من نومنا يوم العطلة بهذه الطريقة المهينة ؟ ...

وبدأ رتل السيارات تجاه شرقي يتناقص . بعضها تطوع البقال بازاحتها للجيران والزبائن . بعضها خرج أصحابها بالبيجاما . البعض القليل ما يزال واقفاً و (الونش) يتهدده . صارت سيارتي هي الأولى أمام (الونش) . قررت أن أرضخ للاذلال ، ورميت بالمفتاح من الشرفة راجية من أولاد الحلال إزاحتها . وهكذا كان . وتولى أحد (أبناء الحلال) بناء على طلبات الشرطة صفها بعيداً عن طريق الموكب في أول نزلة شارع فينيقيا .

وعدت الى الفراش لأنام ولم أستطع . أحسست بأن يداً مجهولة قد صفعني على وجهي دونما مبرر ، وانني لو وقفت أمام المرأة لرأيت على خدي الملتهب آثار أصابعها المستفزة الجهنمية ... أحسست بالإهانة وبالأحرى بقطرة الإهانة الأخيرة التي جعلت الكأس تطفح ، وبالشعرة التي قصمت ظهر بعير الصبر . أحسست بالحزن يخنفني . شعرت بأن أنيابي بدأت تطول وكذلك مخاليبي ، وامتلات بحقد بريء وحشي - هو

الحقد الذي يفجر الثورات عادةً ويطيح بالحكام ، إنه الحقد الذي حده القاطع مقصلة ... تذكرت بحسرة حقيقية أنني منذ شهر ونصف شاهدت في بلد أوروبي رجلاً يدخل بهدوء الى أحد دكاكين باعة الهدايا ويتقي عدة كرافات ويخرج بالهدوء نفسه ليقود سيارته ، وبصاحب الدكان يقول لي بفخر : هذا هو رئيس جمهوريتنا ...

وأخيراً وبعد ساعات (حوالي العاشرة والربع) سمعت الصفارات التي تتقدم المواكب (بصوتها الذي ينوح كما تنوح سيارات الإسعاف التي تكنس القتلى من الشوارع) ... وسارعت الى الرصيف يدفعني فضولي ... ومرت السيارات ... مرت السيارات بسرعة ، لكنني كنت واثقة من أنني رأيته ، وأنه لم يكن يتسم . صفق للسيارات بعض الصغار ، الكبار لم يصفقوا كانوا ينظرون بوجوم وبشيء يشبه خيبة الأمل السرية في عيونهم ... لم أبتسم ولم أصفق . حزنت باخلاص ، وعدت الى البيت متوعكة النفس والصحة ... كنت أعرف أن مئات المواطنين !! الذين تمت إهانتهم سيصمتون . بعضهم لأنه اعتساد لامبالاة السلطة بالحريسة والكرامة الشخصية في بلادنا ... وبعضهم ليس لأنه اعتاد ، ولكن لأنه ثار أكثر من مرة دون جدوى ، وقرر اعتزال الثورة واعتزال الغضب والانضمام الى الأكثرية الصامتة في هذا الشعب الحزين ... وهناك فئة أخرى ، صمتت لأنها وجدت في هذا التصرف من السلطة مظهراً من عشرات المظاهر المعبرة عن حقيقة أساسية تعاني منها أكثر أقطارنا العربية : هي استهتار الطبقة الحاكمة بالناس ، وانفصالها عنهم ... والحل لا يكون بالثورة على مظاهر هذا الاستهتار ثورات صغيرة متقطعة ... الحل هو في ثورة كبيرة تنسف جذور اللاعدالة القائمة وتقتلعها تماماً ليزول بزوالها كافة الظلم الذي ينوء تحته الشعب ، والاستهتار بحريته وكرامته ما هو إلا من بعض مظاهر هذا الظلم . من الفئة الثالثة كنت أنا . لذا لم أقل شيئاً .

وفي صباح اليوم التالي - يوم الثلاثاء - حينما غادرت الدار الى سيارتي في طريقي الى العمل ، وجدت أن (ابن الحلال) الذي تولى انقاذها من براثن الشرطة ، وكلبهم المتوحش (الونش) ، عبث بازرارها على غير هدى ليحركها وظل زر نورها مشتعلاً حتى فرغت البطارية تماماً ... والحقيقة أن الذي أثارني لم يكن فاتورة البطارية الحديدية التي بلغت المئة ليرة ، وإنما كان ورقة صفراء تفضل رجال شرطة السير مشكورين بلصاقها على الزجاج الأمامي لسيارتي : ورقة مخالفة لوقوف السيارة في مكان ممنوع (!) هو المكان الذي أيقظوني مع الفجر الباكر وأرغموني على نقل

سيارتي اليه ! ...

هذه المرة انفجرت ضاحكة بمرارة ... هذا هو مسرح اللامعقول ! ... دوماً ينتقدني الرفاق لأنني انتقيته موضوعاً لأطروحتي ويقولون لي أنه مستورد . بلادي هي موطن اللامعقول ، وكل ما يدور في شوارعها وأزقتها ومكاتبها وحاناتها ودوائرها الرسمية هو فصول لم تخطر ببال بيكيت أو جينيه أو ألي ، أو غيرهم من عباقرة مسرح اللامعقول ! .. في أوروبا اللامعقول مسرح ، وبلادنا هي مسرح اللامعقول المنصوب من المحيط الى الخليج ...

ظننت أن القصة انتهت عند هذا الحد . لم أتوقع كما لم يتوقع سواي أن يرتفع صوت مسؤول بالاحتجاج ، مستقطباً بذلك أصواتنا المهمة بالاستياء ومشاعرنا المهانة المستفزة . وقررت : مثل هذه الأشياء تحدث في عالمنا العربي منذ زمن طويل ، وستظل تحدث حتى ... (ليس سراً حتى ... حتى نثور !) ...

المهم أن لا يكون الاستجواب الذي قدمه أحد النواب حول المواطنين الذين امتهنت كرامتهم يوم اثنين الفصح هذا ، من بعض صمامات أمان بوتقة الغضب الشعبي العارم وإلا لكان في موقفه هذا ما يزيد في إلهاب نار الثورة ، ثورة الشعب العربي المقبلة في لبنان والتي لن يستعر لهيها حيثئذ (من فوق) فقط على صعيد استجواب نائب ما ، وإنما من الأفق الى الأفق والى كل مكان ! .

وشكراً لشرطي السير الذي حرر لي بطاقة المخالفة وتركها على زجاج سيارتي المستباحة ، فقد ترك لي دون أن يدري بطاقة دعوة الى الثورة ! ...

دق مسمار في تابوت شاعر !

منذ أيام أعطاني شاعر شاب مخطوط ديوانه الشعري الأول . قرأته . أعدته اليه بصمت . لم أقل له كم أحببت سطوره ، فقد وجدته شاباً وفي مقتبل العمر ، وتشجيعي له على ارتكاب الشعر هو تماماً كتشجيعي له على الانتحار ... ففي اليوم الذي قرأت فيه مخطوطته قرأت النبأ التالي: (يحتفل قطر عربي - هو نفسه القطر الذي قدم منه الشاعر الشاب - في مهرجان كبير بذكرى شاعره، وتخليداً لذكراه أرسلت الدعوات إلى عدد كبير من الشعراء والمفكرين العرب لحضور المهرجان ، ولتأيينه ولازاحة الستار عن تمثاله ...) ...

الشاعر المذكور مبدع عاش فقيراً وحزيناً ومهملاً ومات حزيناً وفقيراً ومهملاً... ظل طيلة أيامه يتزف شعراً رائعاً ، ويتزف (عملياً) لشدة المرض ، وكان عليه أن يتسول من سلطات بلاده ثمن الدواء والعلاج ، ولعل ما نخر رثيته كان اجحاف السلطات واهمالها له أكثر مما تأكلنا لمرضه ...

يومئذ كان أصدقاؤه يتسولون له بطاقة الطائرة ليرحل بحثاً عن العلاج ... واليوم تنثر بطاقات الطائرات المجانية بالعشرات كي يأتي الشعراء للوقوف على أطلاله ! ... أيام كان حياً لم تكن لتوافر له أبسط وسائل الراحة الضرورية لإنسان يحتضر ، واليوم يدعو قطره الناس إلى فنادق لم يكن ليحلم بالاسرخاء فيها مرة في حياته ... وكان وجهه يتشقق خزيًا وأسى ، فالفنان يفضل أن يموت بصمت دون أن يريق ماء وجهه (يومها لم يأبه أحد لتمثال العذاب الذي كانه وجهه) ... واليوم بعد مماته يرفعون الستار عن تمثال برونزي لوجهه، نصف تكاليفه كانت تكفي لرسم ابتسامة على وجهه وهو حي ...

متى تدرك السلطات في الأقطار العربية كلها أنها مسؤولة عن الفنان أثناء حياته مسؤولة ايجابية بمعنى ان تساعد على الحياة بكرامة كي يظل ينتج ، وأنها ليست

مجرد وكالة لدفن الأموات وإقامة الصلوات الاحتفالية تكريماً لهم؟ ... متى تكف عن هواية اضطهاد المبدعين أحياء ثم إقامة مهرجانات تأبينية لهم بعد موتهم؟ .
الخطيئة التي ارتكبتها السلطات يومئذ في حق الشاعر لا تصلحها السلطات الحالية بإقامة مهرجان (كلام وأكل وشم هواء) ...

هذه النقود يجب أن تصرف لا على الضيوف وإنما على كل شاعر موهوب حي شاب بيننا ... هذه النقود هي من حق أولئك الذين يعيشون اليوم ما عاشه ذلك الشاعر بالأمس والذين ينتظرهم مصير مشابه ما دامت سلطاتنا تهمل بناء البيوت للمبدعين لتبني قبوراً فخمة لهم بعد مماتهم ... هذه النقود كان يمكن أن ترصد لنشر نتاج الشعراء الشبان الذين يكافحون (ككل الشعراء الشبان في كل قطر عربي) بحثاً عن اللقمة ، وعن الكلمة ... الذين يتمزقون في صراع مزدوج لا يرحم : صراعهم مع ضروريات الحياة ، وصراعهم من أجل الابداع ... وحتى تعي أكثر حكوماتنا العربية مسؤوليتها أمام المبدعين الأحياء قبل الأموات ، سأظل أعيد لكل شاعر شاب مخطوطه بصمت ... كي لا أشارك في دق مسمار في تابوته ! ...

... لأنه كل ما تبقى لنا ؟!

أترك للارقام المجردة أن تروي لك هذا النبأ .
أمس ، أطلعني صديق مسؤول في منظمة فدائية فلسطينية على رسالة تلقاها من صحافي سويدي ، ضمن رسالته تلك شيكاً بمبلغ (١٥٠٠) دولار متبرعاً بها للعمل الفدائي !! (أي ما يقارب ٤٠٠٠ ليرة لبنانية) .

١٥٠٠ دولار !!

الشيك رقم « ٢٢٨٩٨٣٦ » ، المؤرخ في ٣١ - ١ - ١٩٦٩ المسحوب على « سكاندينافيسكا بانكن » !

الصحافي المتبرع اوروبي سويدي أباً عن جد، وليس مغترباً، كما انه ليس معتوهاً... كل ما في الأمر انه زار معسكرات الفدائيين ، منذ عدة أشهر كأبي صحافي أوروبي آخر .. أقام بين اولئك (المندورين) للموت برهة من الزمن ريثما ينهي مهمته الصحفية . كتب ملاحظاته . التقط مجموعة من الصور . عاد إلى بلاده كما يعود أي مراسل أدى مهمته ...

ما الذي يمكن أن يدفع به إلى مثل هذا التصرف المفاجيء ؟ ما هو الخيط الذي ظل يشده إلى أرضنا ؟ ما مدلوله ؟ أترجم لقارئ بعضاً من رسالة الصحافي السويدي المرفقة بالشيك ، وفيها يقول :

« عزيزي ..

امس نظرت في ميزانيتي للعام الماضي ، واكتشفت اني أدخلت إلى هذه الميزانية مبلغاً كبيراً من المال ، هي حصيلة ثمن المواضيع التي صورتها وكتبتها عن الفدائيين . أنبني ضميري وشعرت بالعبء ، فكأنسان لا أستطيع ان أعتبر معركتكم النبيلة مناسبة للكسب الشخصي المالي ، انني أبعث لك مع هذه الرسالة شيكاً بمبلغ ١٥٠٠ دولار اميركي تبرعاً متواضعاً مني للرجال الذين رأيت بعيني عظمة المعركة التي يخوضونها

وعظمة استعدادهم للتضحية في سبيلها .

لماذا دون أي الزام خارجي ، دون أي ترغيب أو تهيب ، أو أية مصلحة شخصية، يقدم انسان غريب على إعادة ما يعتبره كسباً ليس من حقه ، واثراء غير مشروع ، هذا بينما لم نسمع مثلاً ببادرة مماثلة من أية مؤسسة صحفية ... أو غير صحفية عربية ، كان في (موضوع الفدائيين) مادة تجارية رابحة لها ؟ ؟

لماذا كان هذا الغريب أكثر قرباً إلى العمل الفدائي من بعضنا ؟ ... أليس لأن هذا الرجل قد التقط الرسالة حقاً ووعاها ... ولأن وعيه بها كان حقيقياً ، فان ولاءه للقضية كان بالتالي من بعض ولائه لذاته .. وتلك أعلى مراتب (الانتساب) حين (يختار) الانسان حقيقة أو يكتشفها بمزول عن أي إلزام أو ترغيب ، وليس لأنه وجد فيها موضحة العصر أو شريعة الحزب الحاكم . ولأنه التقط الرسالة الحقيقية للمعركة فان ولاءه بالتالي لم يكن ولاءً نظرياً ، وانما تحول إلى سلوك ، أي إلى موقف عملي ...

لماذا هذا الرجل السويدي الذي يعيش على بعد آلاف الاميال من أرضنا ، استطاع أن يلتقط الرسالة الحقيقية للمعركة التي يخوضها الفدائيون لاسترداد الارض ، وبيننا رجال على مرمى حجر من تلك الارض — ان لم أقل يرونها — ما زالوا عاجزين عن التقاط الرسالة للمعركة التي هم أصحابها ؟ سلوكه هذا الذي فسره في رسالته بقوله أنه ثوري ، ألا يرغمنا على إعادة النظر في مواقف بعض الذين يدعون أنفسهم ثوريين في بلادنا ، وليسوا في سلوكهم أكثر من « مرتزقة ثوريين » ؟

لماذا كان ذلك الثوري القادم من آخر الدنيا قادراً على تحويل التزامه الفكري ، إلى سلوك عملي منسجم مع قناعته ؟ ترى هل يرجع السبب إلى أنه، انسانياً ، أكثر رقياً مما نحن عليه ، وهو بالتالي أكثر وعياً لقناعاته ، وأكثر نزاهة مع ذاته ، وأشد قدرة على الالتزام الداخلي الانساني الحر ؟ ؟ ...

رسالة هذا الصحافي السويدي وقدرته الجادة الحرة على محاسبة الذات تفتح العين على أكثر من جرح عربي ، وتلفت النظر إلى طبقة من (المرتزقة الثوريين) التي تكونت لدينا في الاعوام الاخيرة ...

هذه الطبقة من (اقطاعي التقدمية ومدعيها) لم يكن استغلالها للقضية هو كل خطاياها ...

الخطيئة التي لا تغنر هي أنها بحجة « الحرص » على العمل الفدائي ، أحاطته بهالة

من المحرمات : تحريم البحث حوله ، وتحريم أي نقد إيجابى حيادي وبناء ، وذلك لتستر عورات استغلالها وتناقضاتها خلف قدسية العمل الفدائي الذي هو كل ما تبقى لنا في زحام التهريج الذي نعيش ...
الفدائي هو انسان حكم على نفسه بالموت مع وقف التنفيذ ، ريثما تم لحظة التنفيذ المناسبة .

انه فعلاً ما تبقى لنا ... ولذا فاستغلاله - حتى ولو بحسن نية - جريمة لا تغتفر ، وطعنة في جسد الثورة موجهة من قبل بعض حراسها والقيمين عليها !! ...
انها للأساسة في بلادنا ان لا نجد لدى بعض مناضلينا من الثورية سوى بطاقاتهم الحزبية من دون السلوك الانساني الحق ...

شيء لا يقال

على أرصفة بلادي ، هنالك من يصرخ باستمرار :
صمت . ممنوع . عيب . حرام . صمت . اهتفوا أو اسكتوا . صفقوا بأيديكم .
يد الكاتب اقطعوها ...
لكل كمامة ورغيف ... من لا يرتدي كمامته فلا رغيف له ...
(خطاف لكل حنجرة تصرخ لا) .
خطاف لحنجرة من يقف ضد « الدفاع عن التخلف باسم الاصاله الاجتماعيه
واسم المحافظه على الشخصيه الشرقيه » .
(العار) الوحيد الذي يفوق عار (انتهاك عنصريه) بنت في الشرق ... هو
(انتهاك عنصريه) الفكر المقدد عندنا .

* * *

وكما يتسبب تفجير اصبع ديناميت في اشعال فتيل الديناميت المجاور ، كذلك
الكلمة الثائرة .

* * *

هاتوا خطافاتكم واتبعوني سأقول لكم مزيداً من الاشياء التي لا تقال ...
رغيفي أرمي به في وجوهكم ، وكمامتي ايضاً ...
الشيء الذي لا يقال ولا مفر من ان يقال هو ان معظم ما في حقل حياتنا ليس
جديراً حتى ببرك الوحل . كل شيء عندنا بحاجة إلى نفس كلي لأن منطلقاتها كلها
في حاجة إلى إعادة نظر . مناهجنا الدراسية . أشعارنا . تراثنا . أجهزة حكمنا . علاقاتنا .
مواقفنا . كل شيء .

* * *

الشيء الذي لا يقال ، والذي لا مفر من أن يقال هو انه لم يعد هنالك محل « للاجناد الغيبية » ...

لقد هدّنا اعتقادنا بأننا (لو نزلنا عنك يا جبل بتنهد) ، ومع ذلك ما نزال ندرّس لأولادنا نصوصاً من نوع : (بيض صفائحنا . سود مطايانا) . كل شيء عندنا «موقف خطائي» يستمد وجوده من (مكرسات) ومسلمات لا تناقش ، واذا نوقشت يُنهي النقاش فوراً بـ (قفلة خطائية) ! ... وقد يكون صاحب (القفلة الخطائية) على حق ، لكنه لا يستطيع ان يقنع انساناً آخر بموقفه ... لنأخذ هذا الحوار الذي قرأت جانبا منه في تحقيق لزميلة اسبوعية .

بنت الجامعة : لا نسمح بالمطالبة بحرية المرأة المطلقة . نحن ضد الكتابات الاباحية والفاسدة التي تطالب بحرية المرأة ! .
المحررة : لماذا ؟ (كن أربعاً أو خمساً ، أكثرهن وجدنها مناسبة لإعلان انا هنا يا ابن الحلال انا بنت كويسه ومتعلمة) .
بنت الجامعة : لأن تقاليدنا الشرقية لا تسمح بذلك (ختام . تصفيق حاد) .
انتهى الحوار بهذه القفلة الخطائية .

(قد يكن على حق أو على خطأ) . ليس هذا ما أناقشه . أناقش اسلوبهن في النقاش . ليس بينهن من عرفت ما تعنيه بـ (التقاليد) أو (التحرر) . كل ما يملكه رغم سنواتهن الجامعية هو استنادهن إلى مسلمات ومنطق (أيام سفربرلك) . الجامعة منبر لاستعراض الأزياء وإعلان (أنا هنا يا ابن الحلال) ..

كل ما في حياتنا يدفع بنا لأن نقول « أشياء لا تقال » ، فللسياسة عندنا (تاناتها) أيضاً . ترى ذلك الذي يرتدي (قميص ماركس بدلا من قميص عثمان) ويتجول به واذا ولد له صبي اسماه عبدالله الستاليني الماركسوفسكي . يحاضر في التقدمية . و(يقطع) رقبة ابنته اذا تأخرت عن اسطبل الاسرة ، حيث البنات يأكلن ولا يعملن ... هو يعملهن كضريبة من أجل (عرضه) ... عرض البنت قبل عرض الوطن ... واذا قلنا له : ابتك في حال قيام حرب لا تستطيع ان تحارب .

يقول : بأستاننا ندافع عن العرض .

نقول : واذا هزمتنا وتشردت كيف تدبر رزقها وهي التي لم تحمل المسؤولية يوماً ؟

يقول : لها الله . يكفي انها شريفة . (ختام . تصفيق حاد) . قفلة خطابية ...
ولكنه ليس على استعداد لأن يقول لك ما هو (الشرف) .

* * *

سادتي انا لا أفهم مثلاً جدوى ان تقضي امرأة يومها كله في صرع (كعك العيد
والتقاليد) حينما تنوء الامة تحت ديون استيراد الدقيق لصنع هذا (الكعك) ويقضي
زوجها ليله في معالجة معدته من امراض أكل الكعك بالادوية المستوردة . بدلاً من
أن يعمل كلاهما لزرع القمح وايقاء الديون ؟ ...
لماذا ؟ العادات . (قفلة خطابية) .

* * *

سادتي أضحي لسان الفرد العربي هو زائدته الدودية الحقيقية ... استعماله مباح
لأي شيء الا للغرض الاساسي الذي وجد من أجله في الجسم : الحوار ...
اللسان مسموح استعماله للثقافة . (تمسيح الجوخ) . للتفاهة . لمسح زجاج
المقاهي . لمسح دمع العيون . لأي شيء الا الحوار ... سيسجل التاريخ الطبيعي أنه
كان للفرد العربي المعاصر زائدتان دوديتان ... واحدة يستأصلها الطيب . والاخرى
في فمه يستأصلها الحاكم ، أو يتنازل عنها المواطن المتخلف راضياً حامداً شاكراً ..
المجد لرجل القضاء في الأعلى ، وللتخلف على رصيفنا الذي لم يعد جديراً حتى
بأغنية رثاء .

وإلى اللقاء معكم حاملين خطافاتكم لحنجرتي . مزقوا حنجرتي : صوتي سيبقى ا

أشياء لا تقال

ألسنا خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(بكتابه في يساره ، بثياب مهترئة ، كان أحد الطلاب يروح ويحيي تحت عمود من أعمدة كهرباء شارع الرملية البيضاء كما يفعل كثير من اولاد الفقراء أيام الامتحانات ، توفيراً للكهرباء وهو يكرر هذا البيت ويستظهره . وخلفه كانت الابنية الفخمة التي ربما كان والده بواباً لاحداها ... وحزنت : يخدرونه ... منذ البداية يخدرونه ... على كل صعيد وبكل وسيلة يخدرونه) .

ألسنا خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح

(كان ياما كان ! ! ..) ...

للأمة التي ما يزال بعضها يباهي بركوب المطايا في عصر ركوب الصواريخ ، ويباهي (بالأخلاقية الخطائية) ، ويباهي براحات أكف تقبض بناصية (الكرم التقليدي) ولكنها لا تقبض بتلك الاكف حتى على مصيرها وهويتها ووجودها ، لهذه الامة نكتب وأكتب .. في رتبة شخير « أهل الكهف » الكبير من المحيط إلى الخليج من المفروض اننا نصرخ ... اننا نؤدي دور الفنان التاريخي المفترض : الشهادة والاستشهاد ...

ولذا ، يوم أصدر مبدع يدعى طه حسين كتابه « في الشعر الجاهلي » ، (دبت الصرخة) ، وهاج كهنة معابد التحنيط على كل صعيد ، وطاردوا حنجرته بخطاف ، وقلمه الحر بكمامة ..

فقد كان الكتاب يطالب « باعادة نظر » في أوثان ادبية وفكرية تم نصبها منذ العصر الجاهلي ولم يجرؤ ناقد أو قارئ على النظر بعين جديدة اليها ، على ضوء عصر جديد، ومعطيات حضارية جديدة (هذا مثال بسيط ، لتحذ بسيط تم فيما بعد تدجينه ، ولذا لم يمت صاحبه خنقاً في سرداب ما) فنحن ما تزال نعيش في عصر

(هبل ، واللات والعزى) في عصر عبادة الاوثان السياسية والاجتماعية : ذلك هو التخلف .. ان يتقلص الانسان أمام مسؤولياته ، ويرمي بها على كاهل وثن من ما وراء الطبيعة – وثن . تابو . صمت . لا تناقشوا . لا تسألوا . لا تفتشوا عن هويتكم ، توارثوها أباً عن جد بطاقات صفراء مهترئة ، كتباً صفراء مهترئة . اعادة النظر إلحاد . ولأن الفنان هو ذلك البريء من رجس التحجر ، فقد كان الفنان العربي الأصيل هو دوماً الكبش الذي يُنحر في أعياد تخلفنا ، ويسفح حبره في مذابح أوثاننا .

يُنحر .

أو يَنْتحر .

يُهاجر .

أو يبقى ، ويهاجر عن موهبته . واذا كان العالم لم يتوصل إلى زرع القلوب بنجاح حتى اليوم ، فان عالمنا العربي نجح في (زرع العيون) منذ عصور... زرع عيون الأجداد في وجوه الأحفاد .. لكن الفنان هو عين جديدة ، رافضة ، ثاقبة ، متحدية ، وهو بالتالي العدو الأول لعبادة الاوثان : التخلف ... وهو الرفض لتمجيد التخلف على أي صعيد ...

والمهزلة أن بقاع الارض التي شهدت مولد الديانات التوحيدية – وكانت هذه الديانات يومها ثورة حقيقية – ، هي وحدها التي ما تزال تتابع عبادة الاوثان ...
الكلمة ؟ الكلمة معجزتنا ؟ ...
لا . الكلمة افيوننا أيضاً .

فالكلمة الحرة هي وحدها التي تستطيع ان تكون معجزة ...
الكلمة الحرة في بلادي لقيطة ، خلقتُها اثم ، ويَجِب أن تقال سرّاً بحذر اللصوص ، وإلا ... خطاف لخنجرة الفنان : رحم الكلمة الصادقة ...

* * *

دقت طبول أهل الكهف بعد هزيمة الخامس من حزيران ...
وخرج المنادي في الناس يصرخ : ثورة ثقافية يا ناس ... ثورة ثقافية يا متعهدي الأدب ... مناقصة لتلزيم بناء ثورة ثقافية ...
وتعالى الهتاف : تعيش الثورة الثقافية ... تعيش تعيش تعيش . (تصفيق . ايها المواطن الصالح عد إلى الشخير) . أسدل الستار .

* * *

وكانت المهزلة ... ثورة ثقافية .. ثورة ثقافية ... يا للفضيحة ... صارت الثورة الثقافية وثناً جديداً ..

امدحوا الثورة الثقافية ، تحدثوا عنها خطايا ، للتكسب أو للهجاء ، أما كضمون فهنا المهزلة . اما زلوا يصرخون .. حذار من انتهاك (المحرمات) و (المسلمات) ، حذار . حذار . عيب . حرام . تقاليد . أمجاد يا عرب أمجاد . وهكذا أضفنا إلى رف محنطتنا جسداً جديداً محنطاً أسميناه « ثورة ثقافية » .

* * *

والذين ثاروا حقاً — بالاحرى تابعوا ثورتهم فالمبدع لا ينتظر هزيمة وجوازاً وتأشيرة لرحلة بحثه عن الحقيقة — ، عادوا يواجهون الخطافات العتيقة ذاتها ... الكلمات ذاتها ...

بالنسبة للأديب ، الكمامة كمامة سواء كانت من مصنوعات بكين أو لسوس انجلوس أو محلية الصنع ...
الوثن وثن حتى ولو كان اسمه الثورة .
اطلاق رصاصة على حرته لا يُغتفر سواء كان مطلقها يحمل بندقية باليد اليمنى أو اليسرى .

* * *

والمفجع ان للمأساة ابعاداً اخرى ..
قالأديب العربي شاء أم أبى هو من بعض أهل الكهف ... وفي شرايين موهبته من الصدا والتآكل والضعف امام (الوثنية) ما يجعله أبدأ في نضال متعدد الوجوه :
نضال ضد الازدواجية داخله وخارجه ...
ونضال ضد معدته التي لا يرتبط توقيت ثورات جوعها مع توقيت ثورات قلمه الرافض ... ونضال ضد ضعف الطين في عجينته البشرية ... ونضال ضد قوى ما وراء الطبيعة في مرحلة تاريخية اكتشفت أمتنا خلالها ضياع بوصلتها ونجوم مجرتها ...
والأهم من ذلك كله ، نضاله ضد المفهوم الجاهلي لفكرة الاديب التي ما تزال مسيطرة على الأذهان : الاديب لدينا وثن أو طريد .
الانسان ، ذلك الشيء العظيم الرائع ، أديباً كان يشق الورق بقلمه ، أو فلاحاً يشق التربة بسكة محراثه ، لا تقدره المجتمعات (الوثنية) كما تفعل المجتمعات التي نشتمها لأنها (آلية) .

الفنانون نجوم على الارض ؟

لا .

بل من بعض بحارة مركب أمتنا التائه في محيط العصر ... بل من بعض حملة المجاذيف (بأكف شققها لفتح الماء المالح والريح العاتية ، وتعنت الربان ، ونعيق المدعين حاملي أوسمة الادب !) كل منهم يجسد في سموه وفي سقطاته بعضاً من تطلعات وسقطات مجتمعا العربي المعاصر ... لكننا أبدأ نصنف موهوبينا في أحد أرشيفين : أرشيف الاوثان ، وأرشيف الطريدين . ويتم التصنيف وفقاً لأوثان ومسلمات بالية أضفنا اليها مؤخراً وثن تخلف بالممارسة المتخلفة له أسميناه « الثورة الثقافية » ...

* * *

سادقي ، أنا من نسل ذلك الاعرابي الذي أكل وثنه المصنوع من التمر يوم جاع . (كان ياما كان ... كان هنالك شاعر عربي ورث أباً عن جد إلهاً في ركن الدار مصنوعاً من التمر . جاءت المجاعة . لم يصل . لم يتحر . أكل إلهه ، واكتشف ساعتها الإله الحقيقي : أن (يكون) ، لا أن يسلم أمره للاوثان) .

* * *

لا أوثان . لا طريدة . لا تقديس . لا إداة سلفاً ...
بجوع أجيال في دمي إلى اليقين ، وبجوع جيلنا الباحث عن حقيقة ليعيشها ، لا ليصفق لها ، كلي حزن ومرارة ، لانني أعرف ان أصواتاً كثيرة مبدعة لم تصلنا ، لأن كتاباتها كنت حفرأ بأظافر مقلوعة على جدران زنانات سجون وسجون ... أولئك كم كنت أتمنى أن أكتب عنهم وأتحدث اليهم .
وبعد ، فلنا كل آهتنا التمرية ، ولنمزق هالات القداسة التي نرهق كتابنا بوطاتها ، ولنعد النظر في « الوجه الانسان » للجميع ، فهو وجههم الحقيقي الذي يعكس لنا مآسينا الحقيقية .

أليست العودة إلى الانسان هي الثورة الحقيقية على الوثن ؟ ...
أليست اعادة النظر هي العتبة إلى الثورة ؟
أليس الحوار الحر - بلا تجنب لمحرمات الدين والجنس والسياسة - هو الوسيلة الوحيدة لاعادة الالتحام في قوى الرغبة بالتبديل ؟
أليست مهزلة أن أول أبجدية في التاريخ كانت من صنع أجدادنا ، ولكننا نحن الاحفاد ما نزال عاجزين عن الحوار منذ عصور ؟ ! ! ...

فكر قتيل أم فكر مقاتل ؟

عن الفكر ، يقول نازي كبير : « كلما سمعت كلمة ثقافة ، شهرت مسدسي » .
وعن الفكر ، يقول خليفة عربي كبير هو عمر بن عبد العزيز : « ان الرجل
ليكلمني في الحاجة يستوجبها ، فيلحن ، فأرده عنها ، وكأني أقضم حب الرمان
الحامض ، لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب ،
فأجيبه اليها ، التذاذاً لما أسمع من كلامه » !

وقد يطرب القارئ للوهلة الاولى لكلام الخليفة العربي الذي ينطوي ظاهرياً على
تقدير لا حد له لأهل القلم ، ويثور على « النازي » الذي يريد أن يشهر مسدسه على
الثقافة ويطلق رصاصه على الكلمة ...

ولكن موقف الخليفة العربي من الثقافة هو أسوأ من موقف ذلك النازي ...
والموقفان في رأيي رغم تباينهما ظاهرياً ، يؤديان مهمة واحدة : إبادة الفكر الابداعي
الحقيقي .

والفكر العربي يعاني من كلا الموقفين !

فموقف النازي من الفكر لا يثير الدهشة لاننا تعودنا ان نجد الارهاب الفكري
صنواً للارهاب العسكري ، بل انه موقف ينطوي على الاقل على وعي بأهمية الفكر .
فالنازي لو لم يفهم المعنى الحقيقي لكلمة (ثقافة) ويعي مهمتها لما تنبه إلى خطرها ...
أما حكاية الخليفة هذه فتعبر ببساطة عن وجه آخر من وجوه التخلف العربي الفكري
عاني منها على طول تاريخه وما يزال : هي خلط العرب بين عشقهم للفظظة لذاتها
وبين استعمال اللفظة كأداة للتعبير عن فكرة ...

فقد ظلت « الكلمة » وثن العرب الاثير ... وبـ « الكلمة » في أبلغ صورها
(أفصحها) وأجملها كان العربي يواجه كل ما في حياته من أفراح وأتراح : إذا جاع
أنشد شعراً قبل أن يستل سيفاً أو يزرع قمحاً ، وإذا أحب أو اغترب أو حارب أعمل
لسانه في القريض أكثر مما أغمد سيفه في العدو ... وإذا عرضت له حاجة وقف

على باب الخليفة عارضاً فصاحته قبل عدالة قضيته ... والأدهى أن ميزان العدالة كان -
باعتراف أعدل الخلفاء - يتأثر بجمال اللفظة قبل عدالة المضمون ... وأكثر تراثنا العربي
يدل على اهتمام العرب بما اسماه الدكتور « زكي نجيب محمود » : « حضارة اللفظة »
قبل « حضارة الاداء » .

بعد هزيمة ٥ حزيران ازداد الوعي أكثر من أي وقت مضى بأنه لم يعد هناك
مفر من الانتقال من حضارة اللفظة إلى حضارة الاداء ، بعبارة اخزي (المطلوب
ثورة في المضمون وتشفافاً في الشكل - الناقد الاردني محمود ريموي) ...
والمأساة أن في داخل كل فرد عربي - شاء أم أبى - بعضاً من ذلك الخليفة الاعرابي
المعرم باللفظة .. الجماهير ما تزال تسقط صريعة أفيون الكلمة في خطبة أو أدعية أو
أغنية .. والكاتب ما يزال عشق اللفظة يعاوده .. وكما في داخل كل مفكر عربي ،
أعرابي يعيش عصر « صناعة الكلمة » بدلا من عصر « صناعة الحديد والصلب » ،
فإنه في داخل بعض الحكام العرب نازياً يشهر مسدسه أمام كلمة ثقافة ، ويرتاع لكلمة
فكر ! ! ..

إلى أي حد استطاع المفكر العربي خلال العامين الماضيين أن يعي هذه الحرب
المزدوجة المفروضة: حربه مع ذاته من أجل عطاء الأفضل ، وحربه مع بعض الانظمة
الحاكمة من أجل انتزاع مزيد من حق حرية التعبير والتفكير ؟ وإلى أي حد نجح في
خلق مناخ من الوعي الثقافي والانساني ، ووعي جديد وحده قادر على انقاذ التنظيمات
الثورية من التحول إلى منظمات تفتقر إلى المضمون الثوري ؟ ..
على تلك « النازية الفكرية » التي ما تزال مأساتها مستمرة يفتح النار غسان كنفاني
صارخاً :

« المشكلة التي تواجه الفكر اساساً هي جريمة ترتكبها بعض الانظمة العربية حين
تعتنق تلك النظرية التي تنتسب إلى العصور الوسطى والتي تؤمن بان هنالك علاقة بين
حرق الكتاب وحرق الفكر .

إن الحشاش أو النشال يلقي في البلاد العربية عقوبة أقل من تلك التي يتلقاها مواطن
يخبيء تحت قميصه كتاباً ممنوعاً . والانظمة العربية التي هي نوع شبه عصري لمحاكم
التفتيش والتي تمارس هذا النوع من تعميم الشلل الفكري لا تستطيع أن تنتصر . إن
الذي يخاف من الحبر والورق لا يستطيع إلا أن يخاف من الرصاص والقنابل .

مناخ فكري متوهج

رغم نازية بعض الحكام العرب في موقفهم من الفكر الحر، ورغم (أعرابية) الكاتب والقارىء في مفهومه للعلاقة بين اللغة والفكر ، فهناك ملاحظات حول المناخ الفكري العربي منذ ٥ حزيران ١٩٦٧ تستحق التسجيل ...

عن المناخ الفكري في لبنان يتحدث منح الصلح : « المناخ الفكري في لبنان أفضل منه في أي قطر عربي آخر... فالبحث حول القضايا السياسية والفكرية والاجتماعية، وكل ما أثارته هزيمة ٥ حزيران من قضايا، يدور بجديّة وجزارة في كل مجال، في الصحف جميعاً بمختلف اتجاهاتها ... في لبنان اليوم مناخ فكري نادر ... هنالك ظاهرة الندوات والمحاضرات التي تصاعدت بعد ٥ حزيران ... وهنالك ظاهرة اشتراك الطلاب ورجال الدين وفئات أخرى لم نعتد رؤيتها على المنابر ولم نألف مشاركتها في مناقشة قضايانا المصيرية ... أليس في اصدار رجال الدين من مسيحيين ومسلمين بيانات حول العمل الفدائي ظاهرة تستحق التسجيل ؟ »

أقاطعه : صار الحديث عن فلسطين موضحة الموسم . صارت الكتابة عن الفدائيين الموالم الذي يردده كل صوت ، قليلهم مبدع وأكثرهم نشاز . صار الكثيرون يخلطون بين حبههم لفلسطين حتى الفداء وبين نحر القيم الفنية للأدب على مذبح هذا الحب ... يناقش : « ولكن تلك المأساة هي من مخلفات ما قبل ٥ حزيران ! لدى العرب عقدة أدب المناسبات ، وشعر المناسبات ، وحتى قبل ٥ حزيران كان لا بد من إدخال بيت ما يتحدث عن فلسطين ..

من الضروري ملاحظة أن موضوع فلسطين فريد في التاريخ الانساني لذا لا يجوز النظر بهذه القسوة إلى ردود فعل الناس أمامه ... في قضية فلسطين عاشت النفس العربية ذروة مشاعرها كلها : الندم ، الخزي ، الطهر ، النقص ، العار . انها قضية مؤهلة للعب دور خاص وليست قضية عادية ... تختلف عن حرب بين فرنسا والمانيا مثلاً ، أو ثورة ضد حاكم طاغية في كوبا .

ان طبيعة المعركة الفلسطينية مختلفة وبالتالي امكانيات التعبير متباينة بقدر ما هي متعددة ...

رحلة الادب في موضوع فلسطين حتى ولو كانت احياناً مفتعلة لكنها شيء ايجابي ... ربما ايجابي سياسياً وليس أدبياً ... ولكن يجب أن لا يثيرنا ذلك .. وأن لا نعطي غضبنا حجماً أكبر من حجم الحقيقة الثانية الأهم في هذه المرحلة : وهي ان هذه

الرحلة شيء ايجابي » .

عن « الادب القليل في موجة الرغبة بالقتال » ، و « الادب المقاتل » ، يقول
غسان كنفاني بجماد الفنان :

« ما يسمى « بالادب المقاتل » يشبه الجنس بالنسبة لشباك تذاكر السينما . وهذه
ظاهرة بقدر ما هي طبيعية ليست سيئة نهائياً . العنصر الاساسي لنجاح أي عمل فكري
هو « الموهبة » قبل (النية الحسنة) ... الموهبة مزيج فريد من الاصاله الانسانية التي
تجعل الالتزام قضية اختيار ذاتي ولبس قضية « ركوب موجة » .
ولكن لا نستطيع ان نقيس دور الادب الفلسطيني الآن بمعزل عن مكانه كجزء
من حركة تطور الادب العربي » .

الأوركسترا في درب التناغم

وباختصار ، الاوركسترا الفكرية العربية قد انفجرت تعزف منذ ٥ حزيران
متلاحمة ومنفردة بما فيها من عباقرة وعاديين من طبالين وعازفي كيان وحاملي
عصي مايسترو ذهبية أو من خشب زيتون فلسطين... المهم كل من في الاوركسترا
يعزف ، وكل على طريقته ، بعضهم ملتزم بحكم موهبته وأكثرهم ألزم ذاته بالالتزام
من باب ركوب الموجة ...

وهكذا وجدنا أنفسنا خلال عامين فقط نضيف إلى المكتبة العربية رفاً كبيراً من
الكتب التي استولدتها المعركة في ضمير الكتاب العربي كما يستولد الرعد الكمأة ...
واسأل الناشر أحمد عويدات : أليس بين منشوراتك لهذا الشهر شيء عن
الفدائيين أو فلسطين ؟ يرد بغضب أو افاقه عليه : سيدتي ، ليس المهم ان ندغدغ مشاعر
الجماهير الوطنية .. المهم أن نجعلها عميقة وأصيلة ومشدودة كالوتر في انتظار اللحظة
الحاسمة . إن أي كتاب جدي هو كتاب يهيه الانسان العربي للفداء ما دام يساعده
على اكتشاف المزيد من ذاته .. انا ضد أثرياء الحرب الفكرين ، وضد ركوب الموجة
الرابحة والانتجار بالكلمة عبر الاثارة ..

نحن الموجة

في الحوار مع الدكتور بشير الداعوق (دار الطليعة) ما يلقي كثيراً من الضوء . بابتسامته
الجيوكوندية نصف الساخرة ، يقول بصراحة : لم يرتفع مبيع الكتب الجلدية بعد ٥
حزيران ! . تعرفين أن هذه الدار كانت تصدر قبل ٥ حزيران الكتب الجلدية الملتزمة

كما بعد ٥ حزيران . نحن لسنا من الذين ركبوا الموجة .. نحن الموجة ! – ولكن لم ينشأ – حتى الآن – قارئ عربي جديد بعد ٥ حزيران . القارئ العربي الجديد الوحيد الذي نشأ هو « المنظمات الفدائية الفلسطينية » . وحدها وعت ضرورة التنظيم السياسي للجماهير وضرورة تنمية الوعي لديها ، الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر إلا عن طريق الثقافة .. وأن ما نواجهه ليس حرباً فقط ، وإنما قضية ثورة شاملة .. الجبهة الشعبية الديمقراطية مثلاً تقبل على شراء مثل هذه الكتب الجدية .. في الحقيقة هنالك شبه تنافس بين المنظمات الفدائية لتوعية أعضائها .. انهم يقبلون على الكتب التي سبق لنا نشرها خلال الاعوام الماضية ، الكتب التي تطرح نماذج للثورات وحروب التحرير .. كتب لا نستطيع فصلها عن التراث الفكري للثورات الاشتراكية .. »

ما هو التفسير لهذه الظاهرة ؟

ظاهرة ان يظل الفرد العادي شبه معزول عن هذا المناخ . نعود هنا إلى الانظمة والمسؤولين !

أليس من المدهش انه لم يجر نسف البرامج المدرسية العتيقة نهائياً بعد ٥ حزيران ؟ . أليس من المفجع والمدهش أن المذيع والتلفزيون ، أي أدوات الاعلام الرسمية ما تزال تتابع بث تفاهاتها ، وما تزال أسيرة (موظفين) يؤمرون ، لا مفكرين يوجهون ويخططون لسياسة الدولة ؟ ..

ولذا فان التناج العربي الجدي – إن وجد – لا يجد للأسف التربة التي تحرض بذوره على النمو وتحتضنها ، ولا التي تغذيها وتتلقف ثمارها .. وأياً كان رأينا في مستوى أصوات اوركسترا الفكر العربي ، لا نستطيع أن ننكر أن افرادها ظلوا يعزفون بهمة ودون انقطاع طيلة العامين الماضيين وكما لم يعزفوا قط .. وانهم يطلقون صرخاتهم عبر منابر الندوات وأعمدة الصحف والمجلات والكتب كما لم يفعلوا من قبل .. وان فكر ما بعد الهزيمة وان كان لما ينجح بعد في انتزاع مكاسب ومنجزات فكرية كبيرة الا انه قد (خلخل كثيراً من الافكار المتخلفة الماضية ومواقع نفوذها – انطوان الفرزلي) ، ودق المسامير نهائياً في تابوت الأدب الغيبي والأدب اللفظي ..

يتميز « الادب الفلسطيني » المقاوم في الارض المحتلة بتجاوزه لهذه العقبة بالذات ، وبطرحة لنموذج فكري شعري لم يعرفه الشعر العربي من قبل . فيه التحام نادر بين الكلمة والحياة ... والسبب يرجع كما يقول الناقد عفيف فراج إلى « الخلفية الحضارية التي يستند اليها شعراء المقاومة ، ليست تقوقعاً قومياً اعتدنا أن نرى أورامه الادبية السرطانية

في التبجح المهش ، وانما سلاح حضاري انساني يُرفع في وجه حضارة آلية شرسة تهدف إلى محو كل معالم الانسان العربي ونجد ان الالتزام السياسي بحركة التقدم يقود شعراء المقاومة للانفتاح على تراث الشعر التقدمي العالمي ممثلا بناظم حكمت ، ولوركا ، ونيرودا ، واراغون . ولعل النغمة الانسانية الالامية الحارة في شعر محمود درويش وسميح القاسم هي من أدفأ النبرات وأعمقها . ولهذا الالتزام العقائدي التقدمي يرجع ظهور القضية الوطنية بأبعادها الاجتماعية والالامية . لقد بقيت هذه القضية في شعرنا الرومانسي مبتورة مجزأة ومنفصلة عن هذه الابعاد ، يلفها ضباب الرومانسية الذاتية . وكان شعر صلاح عبد الصبور وأحمد حجازي ، وحتى البياتي ، من ذلك النوع .»

أين الطحين ؟

وبعد ، يجب ألا ننسى أن كل هذا الضجيج ما زال عاجزاً عن تجاوز حدودنا .. وأن ليس بين أصوات أوركسترا ما بعد ه خزيان صوت استطاع أن يتعدى النطاق المحلي ويحمل وجهة نظر عربية إلى بلاد الغرب . ليس بيننا حتى اليوم صوت عربي واحد استطاع أن يتجاوز دور التحضير إلى دور البلورة ، لينطلق إلى رحاب العالمية حاملاً راياتنا وجثث قتلاتنا وحكاية تاريخنا ..

ليس لأن صواريخ مواهبنا الادبية قاصرة .. ولكن .. لان قاعدة الصاروخ في الارض مخلخلة ..

وعن قاعدة من الرمل المتحرك لا يمكن لصاروخ حضارة أن يقلع ..

لا ... للاقليمية ، نعم لـ « نازك الملائكة » !

رغم انني عادة سيئة الحظ ، مرصودة للمآثم ، مندورة للوقوف بين الأطلال ، فإنني لم أكن من الذين حضروا مؤتمر الادباء العرب ومهرجان الشعر الذي انعقد مؤخراً في بغداد .. لم أذهب ، ولم أبعث برسالة اعتذار كي لا أقول لهم اني أفضل أن أظل حيث أنا ، أكتب على حقيبة سفر فوق كومة من الثلج في لندن ، حيث لا مهرجان ولا مصنفين ..

ورغم انني لا أبيع لنفسي عادة الكتابة عن كتاب لم أقرأه أو مهرجان لم أشهده ، أجدني فيما أسلفت من قول انما أنقل وجهة نظر الكثيرين ممن شهدوا المؤتمر ، وحزنوا (وبعضهم انسحب) ، وبعضهم لم ينسحب وانما (سحب) ثقته علناً مما يدور في (سوق عكاظ) السنوية تلك ، وكتب نقداً كان يتراوح بين (المهادنة الناقدة) - كما في نقد للأديب الاستاذ عبد الرزاق البصير - جريدة اليقظة الكويتية - وبين الهجوم العنيف وتمزيق أقمعة المهرجان دونما مهادنة - كما في العدد ٢٦ - ٤ - ٦٩ - أخبار اليوم القاهرية .. مقال الأستاذ أنيس منصور « الأدباء يلعنون أنفسهم في بغداد » وفيه يصف حال الادباء في المؤتمر بطريقة مباشرة يربط فيها بين تصادف انعقاد المؤتمر في فترة شهر محرم الحرام، أي فترة احتفال الشيعة بذكرى مقتل الحسين ، وبين ما دار في المؤتمر كضمون ، وظاهرة (الندب) التي سادت ، إذ يقول :

« هذا موسم البكاء على هؤلاء الشهداء الأطهار . موسم الدموع والدماء .. والصراخ والعيويل والندامة .

وكان الشعراء والادباء « الواقعيون » جميعاً قد عكسوا البيئة التي ألقوا فيها أبحاثهم وقصائدهم .. وبكوا وتباكوا .. وندبوا ومزقوا ملابس بعضهم البعض . وجف ريقهم . وشربوا الماء .. ولم يكن شرب الماء بسبب حرارة الجو . ولا حرارة اللقاء ، ولا حرارة الايمان ، وانما أكثرهم يعاني مشكلة فنية نفسية : انه يستعين بالماء على أن يبلع ما يقول فكيف يبلع الناس ما يقول ؟ ! .

ان العراق قد فعل كل ما يستطيع من أجل راحة أعضاء الوفود . أعطى أحسن ما عنده . وقدم ورحب . بحكومته وشعبه . أما ما فعله أعضاء الوفود فهم وحدهم المسؤولون عنه .. أو الأدب ، أو الشعر ، أو المزاج العربي .. أو العرب ! .
لقد انعقدت الاجتماعات والمحاضرات والندوات تحت شعار « كل شيء من أجل المعركة » .. كل شيء . ولم يمد الأدباء شيئاً الا الكلام طبعاً : أقصى ما يستطيعون وأقل ما يستطيعون ! .

ولم يتفق أعضاء الوفود على معنى هذا الشعار . بعضهم قرأ الشعار هكذا : قل أي شيء من أجل المعركة .. وكثيرون قالوا أي شيء ، ويا ليتهم ما قالوا ! ولو تنبه الناس الى مدلول ما دار في مؤتمر الأدباء لبكوا بدلاً من أن يضحكوا ، ولأحنوا رؤوسهم بدلاً من أن يصفقوا ، ولشنتوا الشعراء .. ولكنها المآثم ، فلا أحد يضرب النادبة ، ولا أحد يدفنها مع الميت ... ان الناس يستأجرونها ويختارونها .
والمقال حار اللهجة ، فيه موقف واضح . ولذا كان من المؤسف أن يقع كاتبه في الخطأ نفسه الذي يأخذه على المؤتمر أي « الندب » ، وكانت مفاجأة مستفزة لي أن أبحث عن تنمة المقال (في الصفحة ١٥) فلا أجد سوى هذه الخاتمة السلبية المقتضية :
« وكان الشاعر العراقي الكبير الرصافي يسخر من القيود على الكلام .. ويطلب من الناس جميعاً أن يسكتوا ويناموا . يقول الرصافي سنة ١٩٢٢ :

يا قوم لا تتكلموا ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز الا النوم
وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانبا فالحير ألا تفهموا !

ولو عاش الرصافي لطلب الى أكثر الأدباء والشعراء ألا يتكلموا لانه لا أقلّ من أن يفهموا .

ولأني مع الاستاذ منصور في اشمترازه من (موجة البكاء على أطلال النكسة) ، فقد أحزنني ان لا يخرج مقاله عن كونه « بكاء » من نوع خاص « على البكاء » على اطلال النكسة ! ... بكاء على البكاء . وشم لظاهرة الشتم . وندب على ظاهرة الندب ! ! فالاستاذ انيس منصور ينقد في مقاله « سلبية » موقف الندب ، لكنه إذ يتخذ من مؤتمر الأدباء « موقف النادب » للندب ، فهو بذلك يقع في الخطأ السلبي الذي كتب أصلاً لينقده . فالادباء قد ندبوا تحت شعار « من أجل المعركة » ، وهو في معركته من أجل المعركة يندبهم لأنهم ندبوا ! والأدباء قد لعنوا أنفسهم في بغداد

وهو قد لعن لعنهم لأنفسهم ! والأدباء صرخوا دونما تخطيط موضوعي ، وهو في مقاله صرخ لأنهم صرخوا ، دون أن يخطط موضوعياً للموقف البديل : للصورة العملية أو الخطة الايجابية التي يرى انها يجب أن توضع موضع التنفيذ ، أو حتى مشروع خطة تجري مناقشته ...

والاستاذ انيس منصور نفسه يقول :

« ليس مطلوباً أبداً أن يقال إن النكسة قد وقعت ، وتقف عند ذلك . فنحن نعرف ان هناك نكسة . انتهى . نعرف ذلك . فما الذي فعله بعد ذلك ؟ .

لقد انهزمت الامة العربية كلها . هذه حقيقة . فما الذي يستطيع المنكرون : الشعراء والأدباء والكتاب والقائمون على كل صناعة الكلام أن يفعلوه ؟ . ما الذي ينصحون به ؟ كيف نتجاوز النكسة ؟ كيف نخرج من الندم ؟ كيف نتخلص من العار .

ولكنه في مقاله لا يبدأ بنفسه ، فهو لا يقول أكثر من أن (نكسة) الادباء في بغداد وقعت ، وقد وقف عند ذلك . وبمنطقة ذاته أسأله :

حسناً ... نحن نعرف ذلك . انتهى . ما الذي فعله بعد ذلك ؟ لقد انهزمت مؤتمرات الادباء العرب أمام الهزيمة . حسناً . هذه حقيقة . فما الذي فعله ؟ ما الذي تنصح به ؟ . وهو حتى حينما وصف لهم الدواء ، لم « يعالج » مقاله به . . .

فهو قد وصف لهم الوصفة التي لم يعد هنالك من يجدها - وهي العمل - و « العمل » ، دواؤه هذا ، ليس سراً وليس بجديد ، لكنه لم يلقح مقاله به ، فجاء المقال كربلاء أخرى تندب ... فيه من دموع البكاء على الذين لا يعملون أكثر مما فيه من التخطيط للعمل والمباشرة بتنفيذه ! ! ..

وإذا كان الادباء قد ندبوا ولطموا على طريقتهم ، فان الاستاذ انيس منصور قد ندبهم لأنهم ندبوا ، ولطم فيهم قافلة اللطامين دون أن يقف خارج القافلة - حيث يفرض عليه وعيه المفترض للمأساة - أن يكون .

لا ، للاقليمية !

يقول في فقرات من مقاله الكربلائي :

« ومن العجيب - وليس عجيباً - ان أكثر الذين يتحدثون عن النكسة وعن الهزيمة والبكاء عليهما مواطنون من بلاد بعيدة عن موقع المعركة بألوف الأميال . ولكي

يرروا هذا الغضب الذي يبعث على الدهشة يقولون اننا وضعنا كرامتهم في الوحل ،
لماذا ؟ لاننا نحن انهزمتنا ، « وهم » لم يكونوا يتوقعون ذلك »

كما لو ان الحرب مع إسرائيل هي حرب (اقليمية) لا تخص سوى المنتمين الى
موقع المعركة جغرافياً ، ولم يعان من هزيمة حزيران إلا قاطنو الجولان وسيناء والضفة
الغربية ، وكأن إسرائيل لا تتهدد الشعوب العربية كلها وانما تتهدد بعضها بينما يلعب
البعض الآخر دور (الجار) الذي (تصادف) وجوده في (قهوة الامة العربية) .
فهو يأتينا بمثال للشيء الذي أثار غضبه (كمصري) ودفعه بالتالي للتمييز بين (مصري)
و (لبناني) :

يقول :

« مثلاً الكاتب اللبناني د . سهيل ادريس .. هاجم وشم ، ولعن ، واتهمنا
بالجهل ، ولذلك انهزمتنا ، وليس في كل ما قاله جديد : نحن قد اتهمنا أنفسنا بذلك
واعترفنا ونعمل على أن نتعلم ونقف من جديد .. واذا كنا نحن جهلاء ولذلك
انهزمتنا ، فما الذي فعله هو ؟ .. ما الذي فعلوه هناك في بلده ؟ .. نحن الذين انهزمتنا ونحن
الذين نريد أن نسمح عارنا ، ونحن إذا كان قد مات منا ألوف ، فعلى استعداد أن
نصحي بألوف أخرى ..

فما الذي فعله هو .. وما الذي سوف يفعله ؟ انه هاجم كل الذين جاءوا
بتكلمون ، ولن يمضي شهر واحد حتى ينشر كل أبحاثهم في مجلته ! .

وفي القاهرة عرضت له مسرحية .. ويقال انه تقاضى عنها أجراً قدره خمسمائة
جنيه .. من أموال الشعب الذي انهزم .. الشعب الذي يراه هو جاهلاً ولا يستحي !؟» .

وأنا هنا لا أناقش فيما إذا كان على حق فيما يقوله عن الدكتور سهيل ادريس
بالذات أم لا ، لكنني ضد أن يقوده غضبه ضد فرد لبناني الى متزلق التعميم
والاقليمية ... وضد أن يتناسى الجذور الامبريالية لاسرائيل التي تجعل منها من حيث
المبدأ قضية كل ثوري في أية أرض ، وضد أن يتناسى ان قضية فلسطين ليست
حرباً اقليمية بين مصر وإسرائيل ، وبقية العرب جيران « الفقيد » المتطفلين على
الفجيعة ، المغتربين في دنيا معايشتها اليومية الفعلية ...

وإذا كانت هنالك شعوب عربية لم تشترك فعلياً في حرب حزيران الماضية فذلك
يعود الى عوامل كثيرة يجب استقصاؤها - منها مثلاً عدم التلاحم بين رغبات

شعوبها والأنظمة القائمة فيها - وهكذا فمن الممكن إدانتها بالتخلف عن اكتشاف الذات وبالتالي الثورة ؛ وليس إدانة القضية الفلسطينية ككل بأنها قضية اقليمية ...

الأديبات أيضاً ...

هنالك نقطة أخرى أثارها أنيس منصور في مقاله ، فكتب عنها بغضب المحب وليس بتفهم الموضوعي .. والتفهم الموضوعي نطالبه به قبل المحبة ، لانه العتبه للعمل الايجابي البناء الذي يدعو اليه ..

وأعني بذلك إثارته لقضية عمر المرأة الأدبي من خلال الشاعرة نازك الملائكة التي يقول عنها :

« أما شاعرة العراق نازك الملائكة فلا بد أن شيئاً غريباً قد طرأ عليها ، من المؤكد انها كبرت ، وانها أصبحت أمماً لعدد من الاطفال ، وانها عندما سهرت في المهرجان حتى الساعة الواحدة صباحاً قد ضاقت بذلك، فليس في المهرجان ما يستحق أن تترك له بيتها وأولادها وأهلها » .

ولا أدري لماذا يجد في (نعاس) نازك الملائكة في المهرجان دليلاً حتمياً على (نعاس موهبتها) .. ثم ، أليس المهرجان بشهادة الاستاذ أنيس منصور إعادة وتكراراً لعبارة نعرفها جميعاً هي « اننا انهزمتنا » ؟ فلماذا يأخذ على نازك الملائكة ضجرها من التكرار والندب ؟ ..

في مهرجان كهذا ، لا ألومها إذا كانت تفكر (بإرضاع طفلها) أو (بسعال رضيعها الآخر) بل وأجد في ذلك ظاهرة معافاة بناءة لا يوازها سوى انسحابها من مؤتمر بكاء الكبار البشع ، وعودتها الى البيت حيث بكاء الصغار أمر طبيعي وجميل ..

وقد تكون السيدة نازك الملائكة يومها مصابة بطوالع انفلونزا ، أو أي مرض آخر يصيب البشر من عباقرة أو عاديين . لكن خيبة الاستاذ أنيس منصور في الادبية التي أحب ثورتها دفعته لينطلق بغضبه هذا لا لينقدها فحسب ، وليس لتتناول غضبته الادبيات العرييات المعاصرات كلهن فحسب ، ولا لتمتد فتشمل فرانسواز ساغان فحسب ، وانما لتشمل (المرأة الادبية) في كل مكان وزمان ! ! .. بتعميم مجاني فكرياً ، وإطلاق تجريدي بيولوجياً ! .

فهو يقول عن نازك الملائكة : « الذي يراها لا يصدق انها الشاعرة الثائرة على

الشعر القديم » وأنا أقول اني لا أصدق أن أحداً ما زال يقوم مبدعاً آخر أو مبدعة ، انطلاقاً مما (يرى) في صورته الخارجية وليس انطلاقاً من نتاجه .. واية مهزلة أن قسيم التاج الأخير لتوفيق الحكيم أو برتراند راسل مثلاً انطلاقاً من ذلك .. ولا أصدق أنه يتحدث بالحملة عن الادبيات ، فيعمم انطباعه عن (شكل) نازك الملائكة في المؤتمر ، على انطباعه عن « أدب المرأة » في كل زمان ومكان إذ يتابع : « الذي يراها لا يصدق أنها الشابة الثائرة .. ولكن يظهر ان نازك الملائكة قد قالت كل ما عندها في السنوات الاولى من حياتها ، ولم يعد لديها شيء جديد تقوله : فالمرأة الأدبية قصيرة العمر من الناحية الفنية ، ومثلها فعلت أدبيات أخريات » .

اني هنا لا أكتب دفاعاً (بالحملة) عنهن .. ولكنني ضد المنطق الذي قاد أنيس منصور الى هذا التعميم .

والواقع أن تاريخ الأدب يدل على أن بين الادباء كما ان بين الادبيات من كان عمر موهبته قصيراً .. واتخذ لذلك مثلاً (تراجيدياً) في معاصر همنغواي ومنافسه سكوت فيتزجيرالد الذي انتحر في ذروة شبابه حين اكتشف أن موهبته قاصرة وأنه صار عاجزاً عن تجاوز ذاته .

إذن فالقضية لا تتعلق بالمرأة والرجل من حيث التمايز (البيولوجي) وإنما هي مرتبطة بعوامل أخرى كثيرة تتجاوزها ..

وقد يكون فيما يقوله أنيس منصور عن الموهبة العربية بعض الصحة فيما لو تم تعميمه على أدبياتنا وإدبائنا في هذه المرحلة من تاريخنا .. إذ هنالك شبه ظاهرة متفشية عربية معاصرة – ظاهرة الادباء الشهب – تدفعنا للتساؤل : لماذا – نجد غالباً – أن عمر الموهبة الأدبية العربية المعاصرة قصير ؟ ..

هل هي الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخائقة لأي برعم ابداع ، تلك الظروف التي تجعل من التحدي – والتحدي لما هو سائد وإعادة النظر بعين جديدة هو الابداع – ، أقول هل هي الظروف والانظمة التي تجعل من الخلق والتحدي مهمة تشبه مهمة العين التي تتحدى المخرز (فتقلع) أو تهرب من المحاولة بأسدال ستار جفون الصمت ؟ .

هل مرحلتنا بكل ما فيها من مخاز وكبت للحريات هي المسؤولة ؟ أم أن العبقريات الضخمة تستطيع أن تتجاوز اضطهاد القوى الخارجية أياً كانت ؟ .

عصفور من ليبيا

لما هتفت إليّ إحدى الصديقات ذات صباح ، وزفرق صوتها قائلاً : « وقع انقلاب في ليبيا » ، لم تكن في الخبر أية مفاجأة بالنسبة لي . بالضبط ، كانت المفاجأة هي أن هذا الأمر لم يقع قبل اليوم ! ..

فقد انتظروه طويلاً .. كافحوا لأجله طويلاً .. دخل مئات منهم السجن لأنهم كانوا يمثلون « ارادة التغيير » .. الارادة التي تحولت إلى « عمل » وتمت ترجمتها إلى « سلوك » ، الاسم الرسمي له « انقلاب عسكري » ..

أجل ! لم يكن في الخبر أية مفاجأة بالنسبة لي ، انا التي عايشت ما كان يدور في ليبيا منذ ثلاث سنوات .. ليبيا الحقيقية لا ليبيا (الملحقات الصحفية) ، والاعداد الخاصة الدعائية .. ليبيا المناضلين .. ليبيا السجن .. ليبيا الغضب ، والمناشير السرية ، والصحف التي تقفل وتصادر ، والرجال الذين يُساقون إلى السجن بتهمة : ثوار ..

ذلك كله وأكثر منه ، عرفته عبر صديقي الليبي « الثائر » السجين لأكثر من مرة ، والذي لم يعد اليوم سجيناً .. ولم يعد هنالك ضرورة لان يكتب اليّ من السجن سراً .. ولم تعد هنالك ضرورة لأن يتم تهريب رسائله إلى ايطاليا أو أي قطر أوروبي آخر لتودع البريد من هناك لأن بريد ليبيا بأكله مراقب ... ولم تعد هنالك ضرورة لأن أكتب اليه باسم مستعار وعبر عنوان صديق لم يُكتشف أمره بعد ، ليتولى نقل ردودي إليه داخل السجن بحذر شديد وتكتم تام كما لو كنا نخط رسائلنا على قنابل من البلاستيك ، لا بالخبر وعلى الورق ! ..

ولن أعيش شهوراً (على اعصابي) حينما تنقطع رسائله فجأة ، وأقضي ليالي وليالي وأنا أتساءل : تراه تهاوى تحت سياط الجلاد ؟ .. تراه سقط ؟ .. ما سر صمته ؟ هل التقطوا إحدى رسائله اليّ ولم تعد هنالك وسيلة لإيصال صوته إليّ أو صوتي إليه ؟ ولم تعد هنالك حاجة لأن أكتب إلى اصدقائه الذين صرت أعرفهم ، وأشعر بالامتنان

نحوهم لمغامرتهم بمصيرهم ومصير أسرهم من أجل استمرار حوارهم وإيابه حتى داخل السجن .. ولن أفتح بابي ذات فجر رمادي في لندن لأجد رسائله وقد جاءني مبللة بالمطر والرياح والضباب ، مرهقة كعصفور طار ألف عام تحت الثلج والعاصفه حتى وصل إلى بابي .

* * *

مع صدور كتابي « ليل الغرباء » صيف ١٩٦٦ ، تلقيت أول رسالة منه . رسالة عادية كأية رسالة يتلقاها أي كاتب إثر صدور كتاب جديد له ، ويفتح صدره لكاتبه المفضل .. ولكن صدره كان مليئاً بأشياء غير عادية .. رسالة من ١٤ صفحة مضروبة على الآلة الكاتبة تتحدث عن فجيعة بما يدور في وطنه ليبيا .

كانت رسالته أقرب إلى منشور حزبي سري منها إلى رسالة تهنئة .. وقررت ان متاعبي تكفيني ، ولم أجب على الرسالة .

بعدها وصلتني رسالة اخرى منه ، رسالة قلقة يسأل فيها عن مصير رسالته الأولى ؟ ويريد أن يتأكد من انها وصلت إليّ ولم تقع في يد السلطات ، خصوصاً أنه قد تم ايقافه واستجوابه أكثر من مرة خلال الايام العشرة الأخيرة .. كما جرى منه من مزاولة عمله أيضاً .. ووضعه تحت المراقبة .. وأجبت على رسالته .. ووصلني رده بعد أكثر من شهر ، وكانت رسالة ملتهبة غاضبة ، كتبها أثر جولة له في (مجاهل) ليبيا ، عاد منها محملاً بشحنة من الغضب النائر على بشاعة ما يدور ..

وعرفت أن هذا النائر لا بد وان يدخل السجن ! ! ..

ووصلتني اولى رسائله من السجن فجأة ذات صباح صيف ١٩٦٧ بعد صمت طويل .. كانت تحمل طابعاً إيطالياً ، وعنواني مكتوب بخط غير خطه ، ومعها رسالة أخرى عن كيفية الرد عليه ، وتحت اسم مستعار .. وعنوان غير عنوانه السابق .. وطال سجنه .. ولم أعد أسأل كل قادم من ليبيا عنه فأجده قد حملته سلاماً الي ، ولم أعد أحمل كل ذاهب إلى ليبيا تحية اليه .. صار اسمه من بعض اسراري .. ومقدساتي ..

ورحلت إلى لندن وأقمت فيها .. وظلت رسائله تصلني ، متقطعة وغالية ، كزخات مطر في صحراء قاحلة ..

ثم فجأة انقطعت اخباره تماماً .. وعبثاً كتبت .. وعبثاً سألت .. حتى كان ذات فجر حزين .. وجرس الباب يوقظني في رنين ملحاح غير عادي .. وسارعت أفتح .

وحين رأيت من في باب طار النوم من عيني لمدة شهر على الأقل ! ! .. كان هو ! .. لقد عرفته حتى قبل ان ينطق بكلمة واحدة .. بل وناديته باسمه حتى قبل ان يفتح فمه .. كما لو كنت قد شاركته زنزانتة - وقد فعلت عبر رسائله - ..

وتماماً كما في الافلام البوليسية أخفيته عندي ريثما يسترد عافيته .. ذلك العصفور الذي جاءني مبللاً بالدم والريح وقد طار الف عام تحت سياط الجلاذ ، أخفيته في غرفتي مع همساته : « أخت غاده استطعت الهرب هذه المرة . لكنني سأعود إلى ليبيا بعد أن استرد صحتي لأعمل في الداخل حتى ولو ادخلوني السجن ثانية ! » ، وعشت وإياه في قلق ننتظر وصول زوجته العروس ! ! .. وتصادف يوم وصولها ، مع يوم وصول خبير مرضي (المزعوم) إلى سفير من سفراء البلاد العربية ، ووصل في اليوم نفسه سعادة السفير لزيارتي فجأة ، ذلك كي تكون (اللفتة الكريمة) نحو ابنة صديق قديم له ، مفاجأة (سارة) ! ..

ولم يكن لغرفتي سوى باب واحد .. ونافذة واحدة تطل على رصيف الشارع وتحتها (ستة طوابق) ولا يمكن حتى لهرتي القفز منها ..

وكان موكب السفير يصعد الدرج الخشبي ، وصوت سائقه ومرافق آخر يزيدنا رعباً وقلقاً .. ترى هل عرفوا ؟ ترى هل جاءوا للقبض عليه ؟ .

وأخيراً دخل الموكب وفهمت سر الجلبة والمرافقين .. كان السفير يحمل اليّ هدية بمناسبة مرضي بالتهاب في الجهاز الهضمي وكانت الهدية صندوقاً من الويسكي وعشر (كروزات) سجائر !

لا . نسيت . قبل ان يدخل الموكب كان السرير . وكان المشهد التقليدي : ان يجتبيء صديقي الجريح تحت السرير ! .. ولن أنسى أبداً مشهد قطي التي كانت تموء وتنسل تحت السرير ثم تزعق هلعاً وتخرج وهي تتأملني بدهشة ، كما لو أن أحداً قد احتل موضعها المفضل تحت سريري ..

وصلت بحرارة لان القطط تموء فقط ولا تنطق ! .. وانتقل المواء إلى معدتي .. وبدأت بـ (وصال) مواء انفطر لها قلب السفير حتى أصر على نقلي إلى المستشفى وتملصت .

وبعد أن غادرنا مصحوباً بالشكر الجزيل (على مغادرته وليس على زيارته) ، لن أنسى غضبة صديقي الثائر وهو يرى زجاجات الويسكي ويقول : هذا هو مصير بترول بلادنا ! .. هل كان يمكن إلا ان ننهزم في هـ حزيران ؟ ..

وكما ليس في الافلام البوليسية ، وصلت العروس التي انتزعوها من بين ذراعي

حبيبها الثائر ليلة العرس ، وكانت سهرة فرح لا تنسى .. وتم توزيع زجاجات الويسكي
على الرفاق الانكليز الجيران الذين كتموا السر !
وعاد الثائر وعروسه .. وعادت رسائله تصلني من السجن .. وعدت أكتب اليه .
وكان حريصاً على متابعة كتي (ثورتي) ، التي ليست الا امتداداً لغضبة كل ثائر
في كل قطر من وطننا العربي ..
وبعد ..

ذلك كله أحبيت ان استعيده اليوم ليس من قيسل الذكرى وانما من قيسل
(التذكير) ..

لقد عرف وطننا العربي ثواراً ضحوا بكل غال حتى استطاعوا أن يصلوا إلى الحكم
ليكون من الحكم أداة لتنفيذ خططهم ، وتحقيق ما يبغونه من عدالة وحرية وكرامة
لابناء الوطن أجمع ..

وعرف وطننا العربي أيضاً كثيرين من الثوار الذين نسوا ، وهم على (الكراسي) ،
أحلامهم أيام السجن .. والذين صار الحكم لديهم غاية بعد ان كان وسيلة ..
انهم ثوار حكمهم الحكم .. حكمتهم شهرة الحكم فلم يعودوا ثواراً ..
أولئك (الأنبياء الصغار) في أكثر من قطر عربي صرنا نخاف عليهم .. واثاري
الليبي الذي عايش صراعه ، أحس بانه يحق لي ان أهمس في اذنه بهذه الكلمة ،
بنحوف الأخت على الثورة الوليدة من الاصابة (بشلل الكبار) ، شلل النسيان والاستغراق
في السلطة لذاتها .. ذلك الداء العضال الذي فتك بكثير من الانبياء الصغار في أكثر
من قطر عربي ثائر ..

ولى صديقي الثائر هذه الرسالة الأولى المفتوحة .. وغير السرية .. ومعاً على
الدرب ..

الهاربون من ذل الهزيمة إلى غيوبة الجنس والجريمة

في الأسبوع الذي تلا هزيمة حزيران ، سجلت الصيدليات في البلاد العربية كافة ، رقماً قياسياً في بيع الأقراص المهدئة والمنومة ، أي أدوات تخدير الأعصاب والعقل .

فقد كانت الصدمة فوق الطاقة البشرية على الاحتمال ... إذ بعد عشرين عاماً من التعبئة النفسية ، ضاع كل شيء أو انكشف كل شيء في أقل من فترة أسبوع ، رغم مكابرة أجهزة الاعلام العربية ...

وكانت صدمتان وهزيمتان : هزيمة الشعب العربي أمام مليوني صهيوني ، وهزيمة الشعب العربي في أنظمتة وحكامه وملوكه وقادته وذاته ..

وهكذا هرب الناس في الأسبوع الذي تلا الهزيمة الى شتى وسائل التخدير من أقراص منومة ومهدئة أو الى التخدير المؤبد كالانتحار أو الجثون أو الإلحاد الكلي بكل شيء ...

وكان اللجوء الى الأقراص المنومة والمخدرة في الأيام الأولى التي تلت الهزيمة أمراً طبيعياً وسليماً ، يهرب به الإنسان مؤقتاً من ذهوله السلبي المشلول أمام الفجيعة ، ريثما يهدأ برهة يللمم خلالها قسواه المتشتتة ، وحواسه الزائفة ، ليتماسك ويخطط من جديد ...

الأمر الخطر والمؤسف هو أن مرحلة التخدير تلك قد طالت ، وان تخدير المواطن العربي ما زال مستمراً ، يمارسه وهو يدري أو لا يدري .

صحيح أن الصيدليات قد سجلت هبوطاً في أرقام مبيعات الأقراص المنومة والمهدئة ، ولكن صيدليات أخرى من نوع آخر تتولى الآن مهمة تزويده بالمخدرات عن واقع هزيمته المفجع : صيدليات الجنس ، وصيدليات الجريمة ، وصيدليات المجتمع ، وصيدليات الإعلام وصيدليات الطائفية وغيرها .

تقول الاحصاءات العربية أن بيع الكتب الجنسية والمجلات الرخيصة والصور الخلية سجل ارتفاعاً خطيراً بعد فترة الحرب المأساة في خزينان ..
وأن الاقبال على مشاهدة أفلام الجريمة والإثارة الرخيصة قد تزايد ، وأن دور الستيريوهات ، التي كانت قد بدأت تذبل ، شهدت من جديد ازدهاراً غير متوقع ..

وتلك في الواقع ظاهرة نشهدنا عقب الحروب في أكثر بلدان العالم ، إذ يرافق الحرب انهيار في القيم ، ويفقد الجسد قدسيته لكثرة ما تكومت الأجساد الميتة في الشوارع والساحات ، فيصبح العبث بالجسد ، بالجنس أو بالجريمة ، على سبيل التخدير أمراً عادياً .. ولكن الأمم الحية تسعى الى إعادة المواطن الى قضيته عن طريق التخطيط لطاقاته الوطنية واستيعابها من جديد في تنظيم عملي إيجابي لاعادة البناء ...
الجرح في صدر المواطن العربي ما زال حاراً ، لكن تنظيمياً عملياً واحداً رسمياً لما يستوعبه بعد ، ويملاً ساعاته المزروعة بالمرارة ، والمسممة بالخبية ، بعمل إيجابي جماعي جديد ومنظم ، واضح الخطة والأهداف ... (أستثني من ذلك التنظيمات الفدائية وبعض الحزبية شبه السرية !) ...

ولكن ، هل نغلق الستيريوهات ونمنع المجلات الخلية والصور الفاضحة ونقطع القبلات من الأفلام وندعو السلطات الى تطبيق نظام (العفة الاجبارية) وهي التي لم تستطع حتى اليوم تطبيق نظام (الجندية الاجبارية) ؟ .

لا .. فذلك كله سيزيد الأمور تعقيداً . بل إن كبت المواطن العربي هو من أهم الأسباب التي تجعله مهيناً لالتقاط وباء التخدير عند أعتاب أية صيدلية جنس رخيصة .. وأعداؤنا يعرفون ذلك ... ويزودوننا - بكرم - بالمخدرات الأثوية التي يقبل أبنائنا عليها ... ما الحل إذن ؟ .

الدعوة الى ليبرالية الجنس المطلقة ؟ .. أم استيراد مئة ألف (راقصة) وتأميمهن لحل عقد الشعب العربي وتجاوز الكبت الجسدي ؟ ..

أعتقد أن مشكلة إقبال الفرد على صيدليات الجنس من كتب رخيصة وأفلام ممجوجة ليست بحاجة الى حسل ، لسبب بسيط : هو أن ذلك الاقبال المرضي ما هو إلا نتيجة للمشكلة العربية الكبرى الاولى ، وهي عدم وجود التخطيط الذي يستوعب الفرد العربي ويكون تعبيراً صادقاً عن رغباته القومية ، وبالتالي ينظم له أوقاته ويستنفر طاقاته في الطريق السليم للافادة منها ...

بوضوح أكثر .

لو وجدت بعد هزيمة حزيران تنظيمات جماعية عملية واقعية تخطط لها الدول العربية وتستوعب الأفراد وطاقاتهم ، وتحولها الى عمل بناء (سواء التدرج على حمل السلاح أو غير ذلك من ضرورات الاستعداد للحرب المقبلة وبناء ما أفسدته الحرب السابقة) لو تم ذلك ، لمضى الفرد الى البناء بدلاً من التخدير ...

الفرد العربي مشحون بالخيبة المتوترة والرغبة في عمل شيء ما ، ولكنه حائر لا يدري من أين يبدأ ، ولم يأت بعد من يقول له بوضوح وبالضبط من أين يبدأ وينظم طاقاته المخترنة ، ولذا نجده يهرب الى الجنس ، ويصرف طاقاته المعطلة كلها - بما فيها الوطنية - عن طريق التخدير الجنسي ... وحينما يعاد المواطن العربي الى حظيرة العمل الوطني الجاد ، يتوفر له التوازن النفسي ، ويعزف بالتالي عن صيدليات الجنس ، أو أنه يستغلها واعياً مسؤولاً لا مريضاً نفسياً هارباً ... وهكذا تفقد أقرانها الرخيصة مفعولها المؤذي سواء أعرض عنها أم لا .. فهو حينئذٍ يستخدمها دون أن تستعبده ...

والواقع ان عدم وجود التوجيه العلمي الصحيح للفرد العربي مسؤول أيضاً عن توجيهه نحو عوالم الجنس والجريمة ...

وبعد حزيران ، ما زالت حياة بعض أفراد الشعب العربي استمراراً لكل ما كان يجري قبل الهزيمة ...

لم يتبدل شيء من الأسلوب العام في التفكير لدى الطبقة المترفة ، ولم تتبدل للمسؤولين عن التوعية رؤى جديدة و لم يبدلوا شيئاً من أساليبهم ...

وظل كل شيء على حاله ...

وظللنا نعتمد المقاييس نفسها في استيراد الأفلام والمسلسلات الأجنبية .

والتلفزيون العربي من أبرز صيدليات التخدير .. فهو يرمي بالمتفرج في غيبوبة جيبيسيوندية الأحلام ، راسبوتينية الرؤى .. ويربى النشء في عالم من البطولة المزيفة التي لا علاقة لها بمشاكله القومية ، والمعنى الحقيقي للبطولة بالنسبة للفرد العربي المعاصر .. وحالة الاستنفار الفكري لم تتسرب دعوتها الى مختلف وسائل الاعلام وأدوات مخاطبة الجماهير ...

والأمثلة على ذلك لا تحصى ، أكتفي ببعضها .

من وقت الى آخر ننشر في الصحف صوراً لمجنندات إسرائيليات في (حالة حب) مع الزملاء المجندين ، نشرها دليلاً على فسق إسرائيل وانحطاطها. (الخلقى) الجنسي ...

وننشر أيضاً ربما في الصفحات نفسها صوراً لحفلاتنا الاجتماعية (الراقية) ، وفيها مشاهد عناق مشابهة وربما أكثر إثارة من صور المجنندات الإسرائيليات المحاربات والزملاء المحاربين .. أعتقد أن علينا أن نخجل من (لأخلاقية) عطالتنا عن الحرب أكثر مما عليهم أن يخجلوا من (لأخلاقية) جيشهم المحارب .
يثير بعض صحافتنا العربية أيضاً أن المجنندات الإسرائيليات يرتدين الميني جوب ... واعتراضهم على الميني جوب أكبر من اعتراضهم على عدم وجود مجنندات عندنا .
مثال آخر ...

نحن نسمح بمجلة «البلاي بوي» الأميركية وصورها العارية ، لكننا منعنا الأعداد الخاصة التي أصدرتها مجلات العالم الغربي بمناسبة انتصار إسرائيل وهزيمتنا ، والتي تروي لشعبنا نقاط ضعفنا ومخازينا ...

لماذا نروج التخدير بصورة غير مباشرة (تخدير البلاي بوي ومجلاتنا الجنسية الرخيصة) ، ونمنع الوعي ، الوعي الذي تحدثه صدمة مواجهة الإنسان لذاته في مجلة معادية ، أو في مقال محلي لصحفي حر نزيه يصور للفرد العربي نقاط الضعف في جسده الدفاعي والوطني ؟ ..

مثال آخر على أن الهزيمة مرت على قيمنا وكان شيئاً لم يكن ! ..

بعد الهزيمة بأقل من أشهر ، أقيمت في بيروت حفلة لتخريج فتيات المجتمع الحميلات اللواتي يبدأن حياتهن الاجتماعية (الزاهرة) ! .. ونشرت الصحف صور (المبتدئات) بالفساتين البيض الطويلة كفراشات التاريخ ، يرقصن الفالس مع فرسانهن على ألحان فالسات بلاطات أوروبا في العصور الامبراطورية وفي جو يشبه أجواء بذخ روسيا القيصرية ..

هذا في الوقت الذي يقبع على بعد أقل من مئة كيلومتر عدو أنزل بنا الهزيمة منذ أسابيع ، ويستعد لغزو جديد ... أي عار ! .. هل للأمم المهزومة فرسان أو بلاط أو حياة اجتماعية ؟ .. لو اشتروا هن بتكاليف الحفلة سلاحاً « ودربوهن » عليه بدل الركوع والرقص ، ربما كان ذلك أكثر جدوى هن ذات يوم ...
وفي الوقت الذي يموت فيه العشرات جوعاً وبرداً ، ما تزال لقاءات التخدير

الاجتماعية قائمة ، وما يزال الطعام الفائض عن كلاب الأسر الراقية يُرمى الى الخدم ،
بينما ينغرس وتد خيمة طارت في العاصفة في صدر الطفل الذي حاول التمسك بها ...

مسابقات ملكات الجمال عادت الى أمسياتنا .. أي جمال في وجه أفراد شعب
مهزوم ؟ ؟ ... أليست الهزيمة هزيمة للجمال والحب والشمس والخير ، وهزيمة للقيم
كلها التي تخلق في النفس الفرح والحس بالاسترخاء وبالتالي القدرة على اللهو ؟ .
ألسنا شعوباً فقدت حقها في الفرح يوم فقدت كرامتها ؟ ..

حتى كلمات الحب الفارغة الهلامية مع الموسيقى الحاملة التي تذيبها بعض إذاعاتنا
العربية (مشكورة) بعد منتصف الليل لتنام كالأطفال ونحلم كالعشاق .. حتى هذه
صارت ممجوجة .

لا ... هذه الكلمات كلها ، هذه اللغة المطبوخة الجوفاء صارت تثير أعصاب
الفرد العربي ... في أفيونها شيء يذكرنا بخدر عشرين عاماً من الهزيمة المستمرة ...
ثم ، ما الداعي الى هدهدة شعوب مهزومة ، في حالة حرب مع عدو قريب ،
عينه لا تنام ويمارس أفراد الحب وهم في ثياب الميدان، وتحت سيارات الجيب ...
أقول ، كل شيء يجب أن يتبدل : مناهجنا الاعلامية وحتى مناهجنا الدراسية كان
يجب أن تتبدل ، والجرح المتدفق المجنون يجب أن يظل حاراً وجديداً كما كان ليلة
الهزيمة ، ويجب أن يخطط لثأره ...

أقول ، التخدير جريمة . كل من يشارك في التخدير بصورة مباشرة أو غير
مباشرة مسؤول عن الهزيمة المقبلة ، وكل من لا يرفض طبق التخدير الذي يقدم له
بصورة رسمية أو غير رسمية يخون عروبه وصدقه وإخلاصه لتاريخه ويخون جدران
بيته وقوت أطفاله . أقول ، أهم بند في (بروتوكولات حكماء صهيون) للسيطرة
على العالم ، يسعى الى نشر الفساد والتمزق في العالم لإضعاف أفراد وبالتالي السيطرة
عليه بعد تخدير شعوبه عبر صيدليات الجنس والجريمة والتفاهة .

أليس من المفجع أننا بعد هزيمتنا ، نتجه دون أن ندري الى تطبيق هذا البند
مجاناً ، ونبتلع الطعام الصهيوني الذي يتمنون زرعته في حياتنا الاجتماعية والقومية
ونساعدهم على ذلك متطوعين منساقين ، بجهلنا ، بعقدنا الفكرية ، بكتبنا ، وبدوار
مئات من سنوات الانحطاط التي ما تزال رواستها في الدم العربي ...

وبعد ،

ثاروا يوم أسميت نكسة حزيران هزيمةً ... ثاروا لأنني رفضت التخدير البياني
والتمويه الأدبي ... واليوم أقول ، بفضل صيدليات التخدير بأنواعها كلها ، يبدو
أن تكريس الهزيمة ماضٍ قدماً ...

أقول ، للذين ما يزال جرحهم جديداً وينتف ، ولما تنقطع أعصابهم المهترئة
بالقرف والدهول ، لهم أقول : لتمامك ضد صفوف (الأفينة) وحشيش الجهل ..
ولننبش في آبار وعينا الذي يرفض التخدير عن أجدية جديدة ...
ورصاصة لما تبتل بالعرق البارد للانهزامية .

عن الناس « الي فوق » !

في كل مساء منذ أسابيع ، يتكرر المشهد نفسه على مسرح دار فخمة للسينما في بيروت .

اسم السينما تلك – التي تتوسط شارع الحمراء في بيروت – لا يهم (فأنا لست ضد أصحابها ، وإنما ضد مغزى ما يدور فيها) ...

وفي كل مساء ، يتوافد الناس الى صالونها التي تقدم أفلاماً جيدة بلا شك . ويتجهون الى مقاعدهم ذات المخمل الأرجواني الأمبراطوري . مخمل أرجواني على الجدران . على المقاعد . على الأرض . على السنة عاملات الصالة الحسنات . وهذا كله محتمل . فأنا لست ضد بناء سينما فخمة كبلاط أمير ، حتى ولو في مدينة ما تزال تحتل بعض أحيائها بيوت من التلك كبيروت !

نتابع ، تُطفأ أضواء الثريا الكريستال الهائلة ، لكن الفيلم لا يبدأ ...

فدار السينما تلك ليست أرستقراطية المظهر ، أو أرستقراطية الرواد فحسب ، وإنما هي أيضاً أرستقراطية العادات ...

ولذا ، تظهر عربة متحركة تسير حتى تتوسط المسرح وتحمل أفراد فرقة موسيقية غنائية تم استيرادها من أوروبا ...

وأنا لست ضد استيراد (الحضارة) ، إذا كان صنعها متعلداً محلياً ...

ولما كنا قد اعتدنا على استيراد الغسالات والمكانس الكهربائية والأدوية والويسكي ، فإن استيراد (فرقة موسيقية هزيلة) ليس أيضاً موضع النقد ...

ثم إن تلك الفرقة التي تُرغم على الاستماع اليها ، هي فرقة قل أن يجود الزمن بمثلها .. فرقة ثمينة جداً من ناحية واحدة : من الناحية الأثرية ...

فرقة معجزة .. معجزة من معجزات التحنيط ، وصناعة المومياء المتحركة ...

فرقة من إلغازين المتقاعدین ، فرقة أهل الكهف على مسرح شارع الزيف البيروتي ...

فرقة ذات عزف مهلهل ، يثير الشفقة قبل الغضب ... ولكنها فرقة ذكية ، إذ يعزف أفرادها أحياناً مألوفة محبوبة مثل: « رجل وامرأة » و « العيون السود » وبضعة الحان للرحابنة مثل « عبدو حابب غندورة » وذلك احتياطاً للطوارئ ، ورشوة للجمهور الذي سيحب (اللحن) حتماً إذا لم يعجبه (العزف) ... حتى هنا والأمر مسل ...

وهذه الفرقة ، ربما كانت ناجحة جداً يوم عزفت في حفل زفاف نابليون ، وربما في حفل تتويج غليوم الأول ... ومن المحتمل أن تكون نجمتها الحيزبون ملكة لجمال أوروبا عام ١٩٣٥ ... ثم إنك لا تلتقي كل يوم بمومياء تعزف وتغني ... وتغني نجمة الفرقة ... أغنية شبه (أوبراتية) من أغاني (الناس اللي فوق) ... أغنية فيها من الزعيق النشاز الفوغائي أكثر مما فيها من الفن ... وتشبه صراخ خرساء أثناء الولادة ! ...

وكل هذا محتمل ... فأنت لا تستمع دوماً الى ما تحب ... أما ما لا يُطاق ، وما يثير الاشمزاز والسخرية ، فهو أن ينصت الناس الى مسرحية التفاهة تلك طيلة عشرين دقيقة بصمت لا تتخلله إلا فترات من المزايدة على التصفيق ، وبصورة خاصة من قبل المجتمع المخملي الذي يحتمل المقاعد السنوب (الفوتوي كلوب) ويتظاهر أفراده بالطرب خوفاً من أن يتهمهم أحد بالجهل ... فهم أبناء طبقة راقية ، وقد ألفوا أغاني (الأوبرا) أكثر من (الميجانا) و (العتابا) ...

وهكذا حينما تصمت الحيزبون من وقت الى آخر (ربما لتبتلع دواء للرشح) أو لتلتقط أنفاسها يظن الناس أن الأغنية انتهت ، ويتفجر التصفيق ... كل منهم يصفق خوفاً من أن يعلن رأيه الحقيقي ويُتهم بعدم المدنية وقلة التجاوب مع الحضارة الأوروبية ...

يصفقون ، وتنحني السيدة وأعضاء الفرقة المهلهلة ، ربما ليخفون ابتسامة الازدراء بذلك الجمهور المسكين الذي تتحكم في ذوقه الفني عقدة النقص أمام أوروبا ، وعقدة الترفع عن شعبه .

ويقبض أفراد الفرقة أجرهم كل ليلة ... فهم يقومون بعمل عظيم مدهش : إنهم يكشفون جبن المستمع العربي ، وعقدة الطبقة الراقية ، وزيف طربها ، وتفاهة ترفعها وتعاليتها ...

فأفراد الفرقة يعرفون أنهم لو وقفوا يغنون هكذا ويعزفون هكذا على أحقر مسرح في أوروبا ، حتى ولو مجاناً ، لقابلهم هناك (الناس اللي تحت) بالصفير والاحتقار... حتام يستغلون عقد النقص لدينا في تصريف بقايا بقاياهم وما تلفظه مسارحهم ؟؟ ...

وأيضاً عن (الناس اللي فوق) أتابع ...
فقد أقيم حفل تنكري كبير ، وكان زي القرن الثامن عشر هو اللباس المختار ...
وتسريحات القرن الثامن عشر ، وماكياجه ، وموسيقاه ... ولا شك في أنه حفل تنكري من نوع خاص جداً ... طليعي جداً .
فالناس عادة يرتدون الأقنعة في الحفلات التنكيرية ..

وأهل هذا الحفل خلعوا أقنعتهم (أقنعة عصرهم) وظهروا على حقيقتهم في هذا الحفل التنكري : بلا تنكر .. وبلا قناع : مواطنين من القرن الثامن عشر سقطت عنهم ثياب عصرهم وأزياؤها وبقيت ثياب فكرهم والعصر الذي تنتمي اليه أساليبهم في التصرف ..

فقد صفعني أن صورهم تلك نشرت في إحدى الصحف جنباً الى جنب مع احصاء عن نسبة الأميين الباهظة في بلادنا ، و (مشروع) الحرب الجديدة على الحدود مع « إسرائيل » ذات الأهداف التوسعية ...
ثم ، أليس الحس بالمسؤولية أهم ما يميز مواطن العصر الحديث ، ويدل على رقيه الإنساني ؟ ..

حتى حس الخطر الأناني لا نجده لديهم رغم انه كان متوافراً لدى إنسان القرن الثامن عشر ، فمثل هذا الحس يدفع بالفرد للانتماء الى مجتمعه دفاعاً عن ممتلكاته أمام الخطر المشترك ... وكلنا مهدد ... ولم ننس بعد ، كم بدت مدننا العربية حزينة أيام التعيم ، وكم حبسنا أنفاسنا نتساءل : سقف من سيتلقى القبلة الأولى ؟ ...
ثم ان الإنسان العايب المخمور يغري قطاع الطرق بالسرقة والاعتصاب ...
وبعد ...

خطأ واحد ارتكبه أهل هذا الحفل من (الناس اللي فوق) ... هو أنهم لم يخلعوا بقية أقنعتهم ، ويظهروا في ملابس القرن الثامن بدلاً من القرن الثامن عشر .

.. والحرب أيضاً عبادة !

صورتان تصادف أن رأيتهما جنباً إلى جنب في جريدة واحدة ..
 صورة الجماهير المحتشدة أمام سماء كنيسة الزيتون في القاهرة ، تنتظر ظهور
 طيف السيدة العذراء ...
 وصورة الجماهير الإسرائيلية المحتشدة ترقب سرباً من الطائرات الحديثة المحلقة
 في سماء القدس أثناء العرض العسكري الاستفزازي الأخير ، وقد بدا في الصورة
 بوضوح جانب من المباني المقدسة ...

* * *

لا

.. وفي هذا الصباح الحزين ، وذكرى أيار المشؤومة تفرع الصدور ، كنت
 أبحث كعادتي عن المعجزة التي انتظر وقوعها ومئة مليون عربي . معجزة وصول
 العرب — بعد انقضاء ما يقرب من عام على الهزيمة — الى حل عربي علمي عسكري
 موحد وإعلان البدء بتنفيذه .

وقرأت أنباء معجزة جديدة على طول الصفحات ... أنباء ظهور القديس مار
 مطانيوس على فتاة في الحدث بضاحية بيروت ، وذلك بعد ظهور العرض العسكري
 الإسرائيلي بأيام .
 أيام وأيام ...

إسرائيل تكس طائراتها ، وتلملم قنابلها ، وتصر على التبجح بأثار عدوانها ،
 وعلى المضي بخططها التوسعية حتى النهاية ...
 والناس هنا ما زالوا يبحثون عن معجزة تهبط عليهم من السماء بلا عناء ،
 وتخدرهم عن واقعهم الأليم ...
 وصحفنا العربية تروج هذه الأنباء .. فنتلهي بمتابعتها عن كل شيء ... والعالم

الغربي ييدي اهتمامه بهذه الظاهرة ويشجع أنبائها ...
(بنحشوع أحنى رأسي أمام مقدسات الناس . بنحشوع أصلي صلاة أي مؤمن بأي شيء في هذا العالم الرحب) .

ولكن ...

هنالك كلمة لا مفر من أن أقولها ..

أعرف ، أن موضوع الدين شائك ، يثير حساسيات الناس ، ويتجنب معظم الكتاب الخوض في حقل الغامه ...

ولكن ،

أحس أن من واجبنا - في هذه المرحلة بالذات - ، نحن الشعوب العاطفية المتدينة ، أن نحدد بوضوح الخط الذي يفصل بين اللجوء الى الدين كمهرب من أية مسؤولية ، والدين كقوة داخلية إضافية تعيننا على حمل المسؤولية ...

تقول اسطورة قديمة إن فلاحاً قال لأبنائه الكسالى الملتفين حوله بينما هو يحتضر : « ليس لدي ما اورثكم اياه سوى هذه الأرض ... وهذه الأرض تضم كنزاً هو معجزة من معجزات الكون ... وعليكم أن تنبشوا الأرض بحثاً عنه ... أن تحفروها شبراً شبراً ... »

ومات . وبدأوا البحث عن المعجزة . حفروا الارض شبراً شبراً ، ولم يجدوا شيئاً مما تخيلوه ..

لكن الارض ذلك العام أتت عليهم بربح وفير لا يحلمون بمثله ، فالارض التي قتلها كسلهم ، أنعمها عملهم الشاق بحثاً عن الكنز ... واكتشفوا الكنز الحقيقي ، والمعجزة الحقيقية .

* * *

اعقلها وتوكل .

لم يقل دعها تسرح واقعد كسولاً وتوكل على معجزات السماء . الشرط الاول لعطاء السماء هو أن يعمل الإنسان ليكون جديراً بالعطاء السماوي .. أن يكون انساناً ، أي مسؤولاً .

* * *

الاعرابي الذي جلس أمام ناقته المريضة بالحرب يبكي ويصلي لشفائها ، تلقى تلك النصيحة المليئة بحكمة السماء : إطلها بالقار ثم صل ! .

أكرر ..

بخشوع أخي رأسي أمام مقدسات الناس .
ولكي تظل مقدساتنا مقدسة ، يجب أن نحفظ لها قداستها بالمعنى الحقيقي لهذه
الكلمة ...

باختصار اقول للراكعين في ساحات المدن العربية من المحيط الى الخليج لأكثر
من طيف ووثن ... انهضوا ...

فالسيدة العذراء لن تأتي لتبارك تشنتنا وضياعنا ... انظروا الى طيفها جيداً ...
تحمل سوطاً من التقرير . من آمن بالرؤيا فليحارب من أجل الشيء الذي تمثله ،
الشيء المهدور : السلام ، والمحبة ، والحرية .

* * *

أكرر ..

بخشوع أخي رأسي أمام كل رأس زاخر بالتدين الصادق .. لكن الدين كان
ابداً حرباً من أجل الكرامة الإنسانية ، والصمود . كان وعياً ، وصحواً ، ورفضاً
للذل والخور .

ولا يجوز أبداً تحويل كفاح الدين لحفظ الكرامة الإنسانية الى تظاهرة دعائية .
قد لا أشك بصدق المعجزات لانني أو من بقوى ما وراء الطبيعة .. لكنني ضد
نتائجها ...

بملء صوتي أصرخ : من رأى طيف العذراء فليذهب ويحارب بدلاً من أن
يغنى عليه .. أو فليسكت . تلك هي العبادة الحقيقية الايجابية في مرحلتنا الراهنة ...

* * *

ما زال للايمان ولله محل في عصرنا وفي مرحلتنا ...
بل ربما لم نكن قط أشد حاجة الى الايمان بقدر ما نحن في هذه المرحلة .. ولكن ...
الايمان الايجابي الواعي .

الحضارة ليست ضد الدين ، ولا الرقي العلمي والآلي ... فأنا مثلاً لا أجد ضرراً
في أن يكون أول شيء يفعله أول انسان يصل بفضل رقينا المادي الى القمر ، أن يركع
فوق سهول القمر لحظة هبوطه الاولى ويصلي ...
ولكنني أيضاً أو من ان الصلاة وحدها لا تكفي ليصل الانسان الى القمر ...

* * *

سادتي ، باختصار ..
المآذن ليست قواعد للصواريخ ...
والكنائس ليست مصانع للدخيرة ..
والسيدة العذراء ليست طائرة ميراج ..
و « الله ليس حداداً يصنع السيوف » ..
العمائم ليست حزم ديناميت ..
القديسون ليسوا فدائيين ..
ومن أجل حماية مقدساتنا ، كنائسنا ومآذنا وعمامتنا وقديسينا ، نتمنح بحاجة الى
الطائرة وقاعدة الصواريخ والديناميت والفدائيين الذين يحملون البنادق لا المسايح ...
فالحرب أيضاً عبادة .. بل انها العبادة الأمثل في مرحلتنا الراهنة ..
وتصبحون على حرب .

مطلوب فداء فكري

سيداتي سادتي ..

اعتدنا على اقامة مهرجان تأبيني في كل ذكرى سنوية لفجيرة من فواجعنا القومية — وما أكثرها — . ومقالي هذا ليس من باب الوقوف على الاطلاق في سوق عكاظنا السياسية بمناسبة الذكرى السنوية الاولى للخامس من حزيران ، ولا ألعب فيه دور (التواحة) التي تقدم الخطباء والرثائين على المسرح وتعقب على أقوالهم ... لا .

اولاً ليست هنالك ذكرى سنوية للخامس من حزيران ، لسبب بسيط ، هو اننا ما زلنا في الخامس من حزيران . لم يتحرك الزمن الحضاري عسكرياً وفكرياً ، عقارب الساعة وحدها هي التي تحركت . وهذا أمر ضدنا وليس معنا .

فالخامس من حزيران ليس يوماً مضى ، وانما هو « حالة هزيمة » عسكرية وفكرية ما تزال قائمة وكانت قائمة قبل ذلك بأجيال . لذا ، فاليوم سادتي هو هـ حزيران ١٩٦٧ .. يوم طويل قاحل صار عمره عاماً ، ولا ندري متى ينقضي .. فكيف تكون هنالك ذكرى لواقع ما يزال قائماً ؟ واقع من المهازل المتكررة والمستمرة ، ابتداءً بمسرحيات مؤتمرات القمة وانتهاءً بمتعهدي الاعلام العربي الرسمي ومروراً بحصيلة عامنا الفكري ... لولا ...

لولا « الفداء » على الصعيدين العسكري والفكري « أدب المقاومة داخل الارض المحتلة » (بالمناسبة الارض المحتلة تمثل في نظري الارض العربية من المحيط الى الخليج . ما ليس محتلاً من قبل إسرائيل العدو هو محتل من قبل سلطات ، تكررنا للجهل والتخلف — بقصد أو بدون قصد — ، وليس « هـ حزيران الهزيمة » امام إسرائيل سوى ارتسام واقعنا على شاشة ذلك الصدام ، وليست هزيمتنا سوى نتيجة لهزيمة سابقة دامت عصوراً : التخلف) ...

هذا الامل وحده ، يجعلني قادرة على الحوار مع بعض جنود الساح العربي
الفكري دون أن أهزأ من نفسي ومن جدوى أن يقال أي شيء ..
أقول الساح الفكري ، فالهزيمة لم تكن هزيمة مدفع أمام مدفع ، وإنما كانت
هزيمة انسان (هو الإنسان العربي ، المنجّم البكر) أمام أداة (الفرد الإسرائيلي العدائي
وبالتالي اللانساني ، وبلهجة اعلامنا ، الاستعماري الامبريالي) .. وكانت أيضاً هزيمة
الحقيقة – (المجردة من القوة والعمل) – امام الخطأ (المدعوم بقوة الآلة والكومبيوتر) .
ومن هنا كانت مسؤولية الفكر العربي عن النكسة ... نكسة عصور ...
ولإلا ما معنى هذه الظاهرة ، ان أديباً واحداً أو ناقداً واحداً من الذين قابلتهم وأقابلهم ،
لم يرشح اثرأ اديباً واحداً لرد التهمة عن الفكر العربي ؟ ... وكيف يحدث
هذا ؟

في بلادنا ظاهرة عجيبة :

لدينا (أدباء) ، وليس لدينا (أدب) !

لدينا (عباقرة) ، وليست لدينا آثار (عبقرية) .

لماذا ؟ ...

يقول الدكتور محمد نجم : « لا يوجد كاتب عربي له منبر عام يجرؤ على ان
يقول الحقيقة » . وهو بذلك يلخص موقفاً يعترف به حتى كبار أدبائنا .
المفكر العربي جبان وانتهازي ومستسلم ، وإلا فما هو سر عدم وقوفه في وجه
أية سلطة مستبدة ؟ على هذا السؤال الصريح رد الدكتور عبد السلام العجيلي من ادباء
سوريا بقوله : « قد يؤثر المفكر السلامة فينأى بنفسه عن مواضع التهم ومواطن الخطر ،
مبتعداً عن ساح المعركة ، فلنلتمس له العذر » – ٤ نيسان ١٩٦٦ .
فلنلتمس له العذر ؟ .

ربما كان ذلك ممكناً قبل الخامس من حزيران .. لكن الخامس من حزيران
كشف مسؤولية الأديب العربي عن الهزيمة ، بحيث صار الصمت ، حتى الصمت ،
حياداً سلبياً ، وبالتالي كف عن العطاء الأدبي المبدع ...
والمدهل أن يظل بعض كبار أدبائنا يصرون على هذا المنطق حتى فيما بعد
الهزيمة ، إذ يقول الشاعر عمر أبو ريشة – وهو في نظري من كبار شعرائنا العرب
وهذا بالذات ما يجعلني أحمل عليه – ، يقول في حديث نشر له بتاريخ ٣٠ أيار
١٩٦٨ : « أولى قصائدي في الفدائي العربي قتلها منذ سنوات قليلة ، وهي ليست من
العنف الذي طبعت بها قصائدي الجديدة ، التي يحول دون نشرها الآن وضعي

الديبلوماسي « ...

مادح الفدائي .. والفدائي !

انه حر في أن يختار موقف (مادح الفدائي) بدلاً من أن يكون (فدائياً فكرياً) ،
أي أن يكون الديبلوماسي قبل الشاعر ... لكن الذي أثارني حقاً هو تصريحه أنه يتهم
« الأعمال الشعرية » التي صدرت بعد الهزيمة بأنها (بعيدة عن الجراءة ، وعن وضع
النقاط على الحروف) ...

يا سيدي الشاعر الكبير ... حسناً لن أكون بعيدة عن الجراءة ، وسأضع النقاط
على الحروف . ما دمت تخفي أعمالك الجريئة والتي تضع النقاط على الحروف في
أدراجك ، (لأسبابك الديبلوماسية) وانت الشاعر الأصيل ، وسواك يفعل الشيء ذاته
لأسباب قد تكون أشد إلزاماً وإيلاً من أسبابك ، من يغني مرحلتنا المفجعة تلك ؟ ...
شعراء الأرض المحتلة . لأنهم فدائيون ولأنهم صادقون . وانت قد وصفت داء أدبنا
العربي ، واعترفت في الوقت نفسه بأنك مصاب به ... هذا كله ما كان ليؤلمني ، لو
لم أقرأ قصيدتك المنشورة الى جانب الحديث عن « الفدائي » ويروعي ما فيها من
جذب ... فيها مهارة (صناعية) كبير ، وليس فيها الروح ، الروح الشعرية . فيها
وصف لموقف الفدائي كما يراه من الخارج شاعر محترف ، احترف صنعة الشعر ،
ولم يحترف الحياة ويسكب عبرها الشعر ... أين روح عمر أبو ريشة من هذا النظم
والكلام التقليدي ؟

امضي ويذهلني طلابي عني وعن دنيا شبابي
امضي ويسألني الريع ولا اجيب متى ايابي
امضي وما وردت فمي كفي ولا اثنت شرابي
يني وبين الموت ميعاد احث له ركابي

قارنت هذا الكلام ، بكلام شاعر ليس ديبلوماسياً وإنما هو فدائي فكري وليس
لديه ما يفقده - حتى الآن ! - سوى قيوده ... يقول محمود درويش في قصيدة
(من القصائد التي سجن بسببها) في الموضوع نفسه :

علقوني على جدائل نخلة
واشتقوني

فلن أخون النخلة !

هذه الأرض لي
وكنت قديماً
أحلب النوق راضياً وموله
وطني ليس حزمة من حكايا
ليس ذكرى .
وليس حقل أهله
وطني ليس قصة أو نشيداً
ليس ضوءاً على سوائف فله
وطني غضبة الغريب على الحزن
وطفل يريد عيداً وقبلة
ورياح ضاقت بحجرة سجن
وعجوز يبكي بنيه وحقله
هذه الأرض جلد عظمي
وقلبي ..
فوق أعشابها يطير كمنحلة
علقوني على جدائل نخلة
واشقوقوني
فلن اطيع المذلة !

المقارنة فجعتني ... عمر أبو ريشة شاعر كبير ، وقد يكون أكبر دراية وتجربة
واطلاعاً من محمود درويش الشاب الصغير ، وقد تكون قصائده السجينة في أدراجه
أعذب وأصدق من شعر محمود درويش وقد لا تكون .. ولكن أينها ؟ ... اني
أتهم ادباءنا الكبار بالقصور عن مواكبة واقع الفرد العربي وبالعيش على هامش
مأساته .

* * *

ما الحل ؟ .
يبدو انه لم يعد أمام الأديب أي خيار ... الحل الوحيد هو التخلي عن
(الازدواجية) الفكرية مهما كان الثمن .
بعبارة أخرى :

الفداء الفكري .

يبدو انه في مرحلتنا الراهنة ، لا مفر للأديب من أن يكون فدائياً . أن يقول الحقيقة مهما كان الثمن ، كشعراء الأرض المحتلة . صرت مؤمنة بان الحل الوحيد الذي تبقى للمفكر العربي هو نفسه الحل الذي اهتدى اليه المقاتل العربي : الفداء .
الفداء الفكري هو الحل ، وهو أيضاً حل ضروري لمواكبة الفداء العسكري
والجسدي ...

ترى من سيكون أول شهدائنا ؟ ...

موضوع ... ممنوع الكتابة عنه !

أكره الاجتماعات .

طيلة حياتي العملية وأنا أهرب من حفل « الستربتيز الفكري » و « استعراض العضلات الثقافي » لأفراد مؤسسة ما ، المتعارف على تسميته بـ « اجتماع » ... وحتى حينما يتم اقناعي بجدوى التقاء افراد مؤسسة ما في موعد معين - من أجل تنظيم العمل وتنسيقه - كنت أقنع ، ولكن أهرب !

في الصحافة اكتشفت ان الهرب غير ممكن خوفاً من ازدواج الموضوع .. كأن أجري تحقيقاً ما ، والتقي صباحاً بزميل لي وقد قام بتحقيق حول الموضوع نفسه .. ويصاب قارئنا بحول فكري لو نشر موضوعانا (أم تكتمل الصورة ؟) .. وهكذا سقطت في فخ اجتماعات هيئة تحرير المجلة ، برئاسة صاحب الدار .

وكنت اعتقد انه في اجتماعنا سنقرر ماذا نكتب في العدد المقبل ، ولكن ... وبعد حضوري لأكثر من اجتماع ، اكتشفت اننا في اجتماعات هيئة التحرير نقرر عادة ما لن نكتبه في العدد المقبل ! نقرر ما لا نستطيع ان نكتبه نظراً لاعتبارات وحساسيات وقوانين وأنظمة وظروف وغيرها وغيرها ... هذا بالإضافة إلى توصيات مدير ادارة الدار الذي يقيّم الأعداد وفقاً لجدول ارتفاع المبيعات وبدفتر شيكات الدار التي تضرب بها عرض الحائط غالباً ...

في الاجتماعات نقرر ما الذي لا نستطيع أن نكتبه ... بعبارة اخرى ، نقرر إلى أي مدى نستطيع ان نقول الحقيقة ، وان نحافظ في الوقت نفسه على امكانية توزيع العدد في الاسواق بدون الزج بالعدد ومحرريه في السجن أو المنفى ... وهكذا تُردد مرة اسبوعياً قائمة الممنوعات من الموضوعات الـ (تابو) التي يذكر كل منا الآخر بمراجعاتها .. كالدين والجنس والجيش وارتباطات البلد الرسمية وموقفه الرسمي من الاحداث ..

باختصار ...

في هذه الاجتماعات يكتشف الانسان بوضوح عملي 'أية مأساة يعيشها حامل القلم في مجتمعا العربي ، وفي هذه المرحلة بالذات من تاريخنا المضطرب المتناقض . المميع القيم والمواقف .. وأية رزم (امبالاج) نضطر احيانا لتعليب الكلمات داخلها .. ويوماً بعد يوم ، صرت أحس ان هذه الاجتماعات هي أقرب إلى العيادة النفسية للمحررين منها إلى اجتماع محنط جاف يتحدث أفراده بالشوكة والسكين ..

فقد لاحظت انه لدى طرح أي من الموضوعات « المستحيلة » ، ينسجم أولاً صاحب المجلة وتنسب أساريه كما لو انه يفرح بأن محرره ليس تقليدياً ولا غيباً ... وهو غالباً ما يؤيده ويضيف إلى الموضوع « المستحيل » جوانب أخرى .. ويدب الحماس .. ونقول جميعاً أشياء لو كُتبت لكانت رائعة وحقيقية ومباشرة ، وكافية لزوجنا جميعاً بالسجن ، ومطاردة أحفادنا ! .

وهكذا يقول كلُّ ما عنده في هذه العيادة النفسية ، نصرخ ، نتألم ، نحزن ، نثور ، نفرغ أحزاننا الفكرية ... حتى اذا ما رن الهاتف ، أو أطل ضيف ملحاح ، كان ذلك تذكيراً لنا بالعالم الخارجي وبمقاييسه ، اذ نعود إلى الملمة الخيوط وإلى الوعي بمقاييس عصرنا ومقاييس سلطاتنا ومقاييس ارتباطاتنا وتبدأ عملية تكيف جنازية حزينة لاواعية .

هنالك ملاحظة لأحد المستشرقين الفرنسيين قرأ نتاج الأدباء العرب والتقى بعضهم .. يقول : الأدباء العرب يتحدثون خيراً مما يكتبون !

لماذا ؟ ...

لان صاحب (القلم العربي) صحافياً كان أو أديباً يكتب وهو مقيد بشبكة من آلاف القيود الواعية وغير الواعية .. يحاول ان يوصل صوته رغم مئات من الاعتبارات - حريته وحياته - من بعضها .. إنه يخوض معركتين : معركة للبحث عن الحقيقة ، وهي التي يخوضها أي أديب في أي مكان في العالم ، ومعركة إمكانية نقل هذه الحقيقة كما هي عارية تصفع آلاف الاعتبارات .

كاتبنا ملجوم ، مدجن ، مهدد ، ومستعبد كأفراد المجتمع جميعاً ، لكنه يحس ثقل هذا أكثر من سواه لانه وُجد ليقول الحقيقة ولأن في قمعه ما يسحق وجوده ويدمره نفسياً ، ويجعله تائهاً بين خيارين لا ثالث لهما في النهاية : عميل ، أو شهيد . متجاهل ، أو فدائي صرف .

مفروض على الاديب العربي ان يبحث عن الحقيقة على طريقة « ديوجين » حتى ولو وجدها ! ...

الفيلسوف « ديوجين » كان يحمل مصباحه ويدور في شوارع أثينا والشمس ساطعة ، باحثاً عن حقائق الوجود ومعنياته التي لا تدرك .

وكاتبنا اليوم يرى حقائق مجتمعا ومآسيه السياسية والفكرية والاجتماعية والعسكرية واضحة إلى حد بعيد ، وكل ما عليه هو أن يعرف منها ويرسمها أو يفتح الباب للنقاش حولها ، لكنه في النهاية ، يجد نفسه مرغماً بطريقة ما على ان يحمل مصباحه تحت شمس المأساة الساطعة ، ويردد «أين الحقيقة» ، وإلا ردد الناس بعد ذلك بأيام : «أين الكاتب فلان» ؟ . أو : « رحمه الله » ! ..

في أحد الاجتماعات قلت للزملاء فجأة : اقترح ان نصدر نشرة سرية ، تكتبها هيئة تحريرنا ، وتذكر فيها ما لا يسمح بذكره رسمياً .

— ماذا ؟ .

— نطبعها سراً ! .

— ماذا ؟ .

— نوزعها سراً ! .

— ماذا ؟ .

— نقول . نقول فيها ما ننتهي حقاً كتابته ونصبه عادةً في عيادتنا النفسية :

الاجتماع ! ...

ولعل الفكرة راقية لرئيس التحرير إلى حد انه خشي من اغرائها ، إذ انه أسكتني

يومها ! ..

في هذه النشرة السرية ، أود أن أتحدث مثلاً عن موضوع اللاجئين العرب .

لا أعني بذلك المليون فلسطيني المشردين علناً ... والمعرضين لكثير من الاعتبارات

والأنظمة التي لا يتعرض لها المواطن عادة في بلده فحسب .

وانما اعني ايضاً مئات آلاف من اللاجئين العرب الآخرين .. من الذين غادروا

بلادهم خلال العشرين عاماً الاخيرة المنصرمة لسبب أو لآخر لاعتبارات أهمها عدم

الاستقرار السياسي .

لبنان وحده يضم مئات الآلاف منهم (لبنان . شكراً) . بلدان عربية اخرى

تضم آلافهم أيضاً وهم أحياناً يتقاضون رواتب من دولة عربية أو أخرى .. وهم

أحياناً بلا عمل حقيقي ، بلا انتماء حقيقي ، طاقات مهدورة .
احد الزملاء قال مرة انه يريد أن يكتب عنهم – المكتومين منهم والمعلومين –
في لبنان ، لطرح مشكلتهم انسانياً . وتمت الموافقة على الموضوع . وعاد بعد اسبوع
ليقول انه من المستحيل الكتابة عنه . لماذا ؟ .:

أولاً لأن اصحاب العلاقة يرفضون إثارته .. انهم يخشون من مزيد من التشرذم ،
وقد تعبوا وسئموا ، ولم يتبق لهم سوى انتظار غائم مشوش : قد تتبدل الاحوال ..
وثانياً لأن الوقوف إلى جانبهم امر لا يسمح به تقليد « حسن الحوار » بين الشقيقات
العرييات . وثالثاً لأنه حتى مجرد طرح الموضوع من الناحية الانسانية الواقعية يمكن أن
يعرض المجلة لسوء الفهم والاتهام الخاطيء بتبديل خطتها ..

وكالعادة بعد كل موضوع « مستحيل » . يبدأ النقاش حول المعنى الحقيقي لحياة
الخط : هل هو التحجر على « الخط » حتى ولو اثبتت الاحداث المتبدلة انحرافه ، أم
انه الانحراف عن الخط الذي انحرف ؟ ! .. ثم الانحراف ، ما مقياسه ؟ .. الانحراف
عن ماذا ؟ ونحو ماذا ؟

أود أن أقول في النشرة السرية (التي يجب ان تصدر !) ان أحداً لم يفد من النزف
البشري للعرب من اقطارهم سوى اسرائيل ..

اريد أن اروي تلك النكتة – المأساة التي سمعتها في جنيف حيث آلاف من اللاجئين
العرب الذين يتمنون العودة إلى بيوتهم : « العرب هنا أكثرية حتى ان السويسريين
قرروا انشاء جالية في جنيف ! » .

اريد أن أتحدث عن جيل جديد من الشبان الذين كبروا في اوربا ودرسوا فيها ،
والذين ما تزال روابط خفية تشدهم إلى بلادهم الأم التي غادروها فتياً أو اطفالاً ،
وبلادهم الأم في أمس الحاجة إلى تلقيح جديد بدمهم ، هم الذين عايشوا المدنية
الحديثة الاوروبية وفهموها ، وما زالت أصالة أقوى منهم تربطهم بوطنهم الأم ..
احدهم قال لي : اعود ؟ اتنى .. ولكن .. لا اريد ان ارث تركة ابي من (المواقف)
المعادية للسلطات القائمة .

أساءل : لماذا لا تأخذ حكومة عربية ما المبادرة ، وتدعو مواطنيها للعودة إلى بلادهم؟
لقد أعطت الشعوب العربية سلطاتها فرصة ثانية رغم هزيمة هـ حزيران ، فالهزيمة
لم تطح بأي زعيم أو أي نظام في أي من الاقطار العربية ... فلماذا لا تعطي الأنظمة
المواطن العربي فرصة ثانية ؟

اصنعوا الأخلاق بسكين المطبخ !

بشرى إلى الاخلاق !

في دولة عربية شقيقة، خفضت الاحكام على الذين ارتكبوا جريمة القتل لأسباب اخلاقية تتعلق بالشرف ! .. بشرى إلى القيم ! (او كازيون) للجرائم ، تخفيض كبير في سنوات الحكم كافة . سارعوا قبل ان تفوتكم الفرصة . يا زبائن الأخلاق الكرام ، اخرجوا سريعاً من غرف عشيقاتكم وإلى سكين المطبخ ، وإلى رقية أخت أو بنت ، احفروا فيها « نحن شرفاء » ، وليتفجر دم الجريمة على أيديكم .. اغتتموا الفرصة .. اما سمعتم تعريف الأخلاق الحديد (للفيلسوف) الاجتماعي الكبير يوسف وهبه حين قال : « شرف البنت زي عود الكبريت » ؟ . يا ابناء الجيل الصاعد ، اصنعوا الاخلاق بسكين المطبخ ! ! ..

هذا ما كان يدور في ذهني وانا أستمع إلى النبا (السعيد) الذي زفته إلينا إحدى الصديقات .

هنالك صفة أحب ان تظل في الرجل الشرقي وفي المرأة وفي مجتمعنا (أو بالأحرى اتمنى لو توجد !) : انها احترام القيم ، وتقديس العلاقات بين الرجل والمرأة ، والارتقاء بها عن المستوى البهيمي الذي وصلت اليه في الغرب ، والمحافظة على الكبرياء الانسانية في لقاء رجل بامرأة ليظل هذا اللقاء ذروة في العطاء النفسي والعاطفي وارتباطاً ومسؤولية ، لا مجرد لقاء جراء في عتمة شارع يمضي بعدها كل في طريقه كأن شيئاً لم يكن ...

إذا فأنا مع المتشددين حرصاً على شيء اسمه القيم ... وانا بعد الخيبة التي احسست بها في اوروبا حينما رأيت كيف تلتقي المرأة بالرجل وكيف صار الجنس شيئاً قائماً بذاته ، يمارس لذاته ، لا جزءاً من عاطفة كبيرة وحياة مشتركة شاملة ، بعد هذه الخيبة وجدتي أتطلع إلى بلادنا العربية التي لم يتفش فيها طاعون الاستهتار بالانسان

في ذات المرأة والرجل ، الانسان المتماusk المتكامل الذي يرفض ان يتحسس بيده اليمنى كتفأ عارية بينما يده اليسرى تعمل على آلة حاسبة .. ووجدتني آتمنى ان تثبت من بلادي شمس أخلاقية جديدة نبشر بها في العالم أجمع ، جذورها من شهامة العربي وحرصه الغريزي على القيم ، ونسغها من تفكير حديث بعيد عن صحارى ما زالت تن تحت رمالها فتيات مؤودات .. لو كانت سكين المطبخ تحل المشكلة لكنت أول من نادى بها..ولو كانت الاخلاق التي تقنع عقل المثقف تصنع بهذه الطريقة لكنت أول من هتف لها.. لكن العصبية المتوارثة لم تعد تكفي.. نريد ان يقود العقل والمنطق عواطفنا وأن يلجم هذه العاطفة ويحسن توجيهها وتفجير طاقتها .. اذ لا يكفي ان نقول : نحن شرفاء بقوة السلاح . بل علينا ان نعرف معنى الشرف وان نمارسه بأنفسنا .. فمن السهل جداً ان يقتل الانسان ، ان يستسلم لغضب اللحظة هرباً من مسؤولية عمل بطيء مستمر ، وأن يختار الطريق السهلة إلى الشرف ويقنع نفسه بجداها ، ويدعي لسواه انه حريص على الاخلاق حتى الجريمة .. ولكن من الصعب جداً ان يتبنى منذ مطلع حياته قيماً لا تقوده أو تقود سواه إلى مثل هذه اللحظة ، قيماً يعيشها تصرفاً بتصرف ولحظة بلحظة كأب أو كأخ أو حبيب أو زوج ...

إذا فالذي لا أومن به ليس القيم الأخلاقية والانسانية ، وانما هو أسلوب رعاة البقر في صون الاخلاق ، أسلوب تصحيح الخطأ بخطأ آخر اسمه الجريمة .
ثم انني لا أومن أيضاً بشرف اعرج .. شرف من طرف واحد ، ولن أومن بذلك الا اذا التقيت ذات يوم بطائر يخلق بجناح واحد ! ..

ان كل لقاء غير شرعي (اذا رضينا بالمفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة) ، يشترك فيه رجل وامرأة ، واذا كانت المرأة هي التي (تحمل) آثار الجريمة ، فهذا لا يعني أن (حملها) أمر ذاتي يخصها وحدها ولا دخل للطرف الآخر فيه ، والا ، فلماذا ينتمي الاطفال – في الاحوال العادية – إلى ابائهم ؟ ..
اذا قالوا الدين قلنا ان الدين يساوي بين خطيئة الزاني والزانية وبين عقابهما ، فلماذا نخص المرأة بشرف العقاب ونخص الرجل بعار الاقتصاص ؟ .. ومن كان منهم بلا خطيئة فليسارع إلى سكين المطبخ ! ..

الواقع ان كثيراً من مفاهيمنا بحاجة إلى اعادة النظر وإلى التبلور وتحديد الصيغ النهائية لها لأن جيلنا الحالي يعيش مرحلة ازدواجية فكرية مريرة وتناقض وتشوش في القيم . هنالك مثلاً مفهوم الحرية .. والمسؤولية .. وشرف الأسرة التقليدي ، وهل

كل فرد في الاسرة إنسان قائم بذاته ووجود اخت مستهتره فيها لا يعني بالضرورة ان الاسرة بأكملها مستهتره ، أم ان خطيئة فرد تعمم على الجميع ، وعلى الأخ المغوار مسح العار ؟ .. ومفهوم الاخلاق بحد ذاته ، هل من الاخلاق في شيء أن يغري شاب شقيقة رجل آخر ، ثم يذبح شقيقته لأنها أغريت ؟ . والشرف ، هل من الشرف ان يسرق رجل أو يكذب أو يخون وطنه أو يتآمر على لقمة الناس ، ثم يشجعه القانون بعد ذلك على أن ينصب مقصلته ويقيم محكمته ويتولى بنفسه سلب حياة انسان آخر ؟ .. هل الرجل ، زوجاً كان أو أختاً أو أباً ، إله معصوم مثالي التصرف حتى يتجرأ فيتخذ لنفسه حقاً لا يملكه الانسان على نفسه ولا يملكه إلا الإله .. إنه حق سلب الحياة من إنسان آخر ... لو كان الرجل ذلك الإله لما كانت المأساة لتقع ولما كان هنالك شيء اسمه الخطيئة ولرفض آدم التهام التفاحة ...

والشاب الشرقي ، ذلك العملاق المعزق من الداخل ، ألا يعيش فترة تناقض رهيبه مع ذاته ؟ الا يقضي سهرته مع الاصدقاء مباحياً بأساليبه المبتكرة ، وخططه الجهنمية في إغراء الفتيات وخداعهن ، ثم يعود إلى داره لينصب من نفسه جلاداً على اخته التي لم تستطع بخبرتها المحدودة ان تكشف الاساليب المبتكرة والخطط الجهنمية لرجل آخر مثله ؟ .. إذن فالاخلاقية الإرهائية واهية الجوهر . والقيم التي تفرض على طريقة (الكاوبوي) سطحية ومتناقضة وعديمة الجدوى .. انها أخلاقية الهرب من مواجهة الذات والهرب من المسؤولية إلى تقديم مسرحية ميلودرامية لا تثير الا الاشمزاز والأسف .. إننا بحاجة إلى نظرة أكثر جدية وعمقاً وموضوعية للأخلاق فنحن لم نسمع حتى اليوم ان امأ قتلت ابنتها دفاعاً عن الشرف ، فهل هذا يعني ان الأم أقل حرصاً على القيم من الأب ؟ .. وأنها متهمه بالتواطؤ مع ابنتها على الاخلاق ؟ .. أم انه يعني انها قد سبقت الرجل إلى الايمان بلا جدوى الجريمة لحل المأساة حيث نطمس بالدم خطوط المشكلة عوضاً عن معالجة الأسباب التي تدفع اليها والنتائج التي تخلفها ..

إننا بحاجة إلى حلول اخرى نحافظ بها على كيان الاسرة ونصون بها العلاقات الإنسانية من العبث والانحطاط .. ولكنني لا أعتقد ان هذه الحلول موجودة في علبه كونسروة نفتحها بسكين المطبخ . ان الدرب إلى هذه الحلول يمكن تلخيصه بكلمتين : المسؤولية والكرامة للطرفين .. من هنا يجب ان ننتقل ، ومن هذه الزاوية لنبدأ بطرح الموضوع .

نريد نظرة عربية جديدة لقضايا الجنس !

صارت إعادة النظر لا في واقعنا العسكري والفكري والاجتماعي فحسب، بل في واقعنا «الجنسي» أيضاً أمراً لا مفر منه. وصار تقصي أسباب ضعف الشخصية العربية، وتشتت طاقاتها - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - واجباً تفرضه المرحلة الراهنة . وصار تحاشي المصارحة ، تجنباً لإثارة المتاعب والاقاويل والزوابع ، « خيانة فكرية عظمى » .

ثم ان اية دعوة لإعادة النظر في مفاهيمنا « للجنس » يُساء فهمها عادة كدعوة « للتهتك » لا « للتعقل » ...

فموضوع الجنس موضوع شائك ، أحيط على مر العصور بمختلف أنواع «التابو» والتحریم ، حتى صار الحديث عنه أصعب من لعب التنس بقنبلة يدوية في حقل مزروع بالالغام !! ..

ثم ان الفوضى الاخلاقية في اوروبا ، التي تبعت مرحلة انهيار القيم التقليدية فيها ، أعطت ذريعة قوية للتقليديين عندنا ، وللمتاجرين بعقَد الشعب العربي ، والمتعيشين من دكاكين (تخنيط) الأخلاق تحت شعار (حفظ) الاخلاق .. ولكن الاخلاق أوجدت أصلاً لحماية المجتمع ، ولاستمرار بقائه ككل التشريعات والعقود الاجتماعية .. الاخلاق وليدة العصر والمجتمع ، وليدة التكيف والظروف ... فما يعتبر « أخلاقاً » في مجتمع من المجتمعات قد يكون خطيئة في مجتمع آخر ... وما كان فضيلة في عصر ما قد يتحول إلى خطيئة في عصر آخر ... فالزواج من الأخت كان مشروعاً أيام الفراعنة . وهو في يومنا خطيئة ... والعري لدى بعض القبائل الافريقية أمر عادي كعري الطيور والغزلان ، و« الميني جوب » الذي أقام الدنيا وأقعدها حشمة مفرطة في نظرهم ! ...

من الضروري إذن ملاحظة أمر مهم في موضوع الأخلاق هو ان القواعد الاخلاقية

ليست شيئاً متحجراً جامداً غير قابل لإعادة النظر ، وإنما هي وليدة المجتمع والعصر وجدت لتخدم نموه وتكامله لا لتعيقه ، وهي بالتالي يجب ان تتصف بالحياة كهي تكون باستمرار قادرة على استيعاب تطوره بتطور مماثل مواز وملائم ...

وعلى ضوء هذه النظرة ، وعلى ضوء وعينا الجديد بدورنا القومي التاريخي في المرحلة الراهنة ، تصبح إعادة النظر في أخلاقنا وسلوكنا ، ضرورة لا مفر منها لاستراتيجية المعركة المقبلة ...

اذن ليست هي روح تقليد الغرب التي تفرض فتح « الدفاتر العتيقة » لحياتنا الجنسية ، لا ، ولا الرغبة بالتحدي لمجرد التحدي ، وإنما هي ضرورة حماية الفرد العربي من كل ما يمزق شخصيته ويشوهها ويعيق تكاملها ويحول بينها وبين لعب دورها القومي والأنساني كاملاً ..

أقنعتنا الأخلاقية

في إحدى جزر الباسفيك ، وقف واعظ يخطب في الناس ، يحذرهم من الخطيئة ، من المعاصي والرذيلة ، يصرخ ويتوعد ، ينادي بالفضيلة والعفة . وبعد ان انتهى من خطبته ذهب إلى حيث امرأة يشتبهها سراً ، ليمارس كل ما نهى عنه علناً . تلك هي قصة سومرست موم الرائعة « المطر » ، وهي أيضاً في نظري تلخص موقفاً عربياً عاماً من موضوع الجنس ، صار شبه متعارف عليه ولم يعد يدهشنا أو يفاجئنا ! فمجتمعا العربي ظل طيلة القرون الاخيرة ، قرية واحدة كبيرة كقرية الباسفيك تلك ، مزروعة بفزاعي الطيور الاخلاقيين المزيفين الذين يعتاشون من بيع الأقنعة الاخلاقية ، والذين يشكلون في نظري الشريك غير المباشر للذين يعتاشون على كبت الشعب العربي ... فكل مدافع مزيف عن الأخلاق هو الشريك غير المباشر لتاجر الجنس .. بعبارة أخرى كل كاهن اخلاقي مزيف هو مروج للبضاعات الجنسية الرخيصة ... فدكان « بائع الفضيلة » يواجه دكان « القواد » .. إذ إن المبرر الوحيد لوجود كل منهما هو وجود الآخر ... وبين هذين القطبين تضيق أجيال من الشعب العربي في ازدواجية اخلاقية موجعة .. تذهب من دكان الاول إلى دكان الثاني .. فلا تجد الطمأنينة في الجنس الرخيص ، ولا في الزيف الاخلاقي الرخيص ...

وتسود الازدواجية ... الازدواجية في كل شيء ... صحيح ان حال الغرب الاخلاقية لا تصح نموذجاً أو مثلاً أعلى يحتذى ... لكن

حياتنا الاخلاقية القائمة قد تكون في جوهرها أكثر اهتراء ، وكل ما في الامر ان مجتمعنا ما يزال يرتدي قناعه ... واذا تجاوزنا الأقنعة التي ارتداها الشعب العربي بإحكام طيلة قرون ، فاننا نفاجأ بحكايا عصر الحريم والتهتك ، واستعمال المرأة « نصف المجتمع » كأداة للذة فقط ، وبالحكايا الفاضحة في كتب ادبنا الصغرى ، ومدلولها الخطير الذي يحمل اخلاقنا الاجتماعية بعض مسؤولية تخلفنا وسقوطنا فريسة لأنواع الاستعمار كلها ، والاهتمام « برجوع الشيخ الى صباه » أكثر من الاهتمام برجوع شيخوخة مجدنا التاريخي إلى صباه ... وتروى في عاصمة عربية نكتة لها مدلولها ، وهي ان اهل الاخلاق في المدينة كانوا يخرجون للنزهة والكيف إلى جمال الطبيعة ، وهناك يشربون الويسكي في فناجين الشاي !! وشعوبنا العربية تعبت من فئة شاربي الويسكي في فناجين الشاي ، وتعبت من مبدأ «الازدواجية» الذي قد يحمي الاخلاق كظهر ولا ينقذها كضمون...

في مجتمعنا اليوم مختلف انواع المخازي والتفاهات التي يساعد على وقوعها الكبت ويجعلها أيضاً بمنأى عن العلاج بسبب السرية والتحويل المحيط بكل ما له علاقة بالجنس . وهكذا ، تُعرض الأفلام الجنسية الرخيصة في بعض البيوت . من يستطيع ان يدفع ضريبة « الاختباء » يستأجر ملجأً للذات ، ومن يعجز عن ذلك قد يصبح ذات يوم فريسة لصفحة الجرائم التي تحتل المشاكل الجنسية أكثر سطورها ، أو ينجح في السيطرة على كبتة ويصبح بطريقة ما فريسة لأكثر من مرض نفسي وعقدة مشتتة لطاقاته ... المجلات الجنسية التي تدغدغ حس الكبت ضارت تجارة رابحة ، وأول قرائها للأسف ينتمون إلى الفئة التي تهاجمها ... الكتب الرخيصة تجارة مضمونة ، وأية غانية بار أوروبية منسية تمر بشواطئنا ، تدغدغ لدى بعض شباننا عقد النقص والكبت ، وتصبح موضوعاً للتنافس ، وتاء تأنيثها هدفاً ومغماً يشغلهم عن أية مسؤولية ... وصار صراع جيلنا من أجل الجنس رضياعه بين شتى القيم والتأويلات – بين منطق اللحم والدم ومنطق الآخرين – يشته عن صراعاته الأخرى ... ولكن ، ما الحل ؟ ... هل نُطلق شريعة الغاب ؟ ... هل نُعلن تعبئة جنسية عامة يستنفد خلالها الجميع كبتهم ويلتفتون إلى القضايا المصرية ؟ ...

لا .

لو كان ذلك يجدي ربما لناديت به ... لكنه يزيد الامور سوءاً ... « فالجنس » لدى الانسان ليس قضية « غريزية وفيزيولوجية » كما هي لدى الحيوان ، لكنه قضية انسانية خطيرة ترتبط بمقومات شخصيته كلها من تاريخية واجتماعية وفكرية ونفسية ...

الجنس قبل كل شيء هو الأداة الوحيدة لاستمرار الانسان . انه حاجة اساسية كالاكل والنوم والملبس ... وهكذا مر بمحاولات تنظيمية كتلك التي مرت بها الغرائز الأخرى ... وكما ان المحاولات التنظيمية الأخرى كان الغرض منها الحفاظ على بقاء المجتمع واستمراره وتقويته، كذلك كان الغرض من تنظيم الجنس بالزواج وغيره من أنواع العقود وفقاً لوضع القبيلة الاقتصادي والجغرافي وغيرها ... وركزت التحريمات على موضوع الجنس لأنه قضية تمس في الانسان أكثر من وتر دفعة واحدة ، ولأنه نقطة التقاء وبلورة لأكثر من فعالية حياتية فيه ... وهكذا ظل الجنس على مر التاريخ هو التابو الاول ، وظلت التحريمات تراكم ... وما تزال المتاحف تضم إلى اليوم « زنار العفة » الحديدي الذي يعود تاريخه للعصور الوسطى ، وهو أداة الكبت القسرية لكبح الجوع الجنسي ... ولم يخترع الانسان « حزام عفة » للفم للمحافظة على الصوم وهو من الشعائر الدينية في أكثر الأديان . فقضية الزجر الجنسي والكبح كانت دوماً أهم وأخطر من أي زجر آخر .. ثم هبت موجة سقوط القيم التقليدية التي اعقبت الحروب العالمية في اوروبا ... كان من المستحيل ان تغسل اية حركة فكرية ، ما لحق بذهن الانسان من تصورات وتقاليد متعلقة بالجنس ، كما غسلتها نيران القنابل العمياء ، والحس المتلاحق بالموت ، وبتفاهة كل شيء ... وجاءت الثورة الصناعية والحضارة المادية تخطط هناك لانسان جديد في عالم جديد المفاهيم والقيم ... وغسلت اوروبا عنها عقد القرون الماضية ، وهي اليوم تعيش (أخلاقاً) مستمدة من واقعها التاريخي والحالي .. تعيش أخلاقاً تنسجم مع وضعها الاقتصادي ومع أهدافها القومية .. واستيراد ذلك طبعاً غير ممكن ... ونموذج اوروبا ضروري لا لتطبيقه لدينا ، وإنما ليزيدنا تفهماً لمشكلتنا وليجعلنا أكثر قدرة على تجاوزها وفقاً لتاريخنا نحن وواقعنا نحن ...

اسرائيل تعقم الشبان العرب !

اذن فالجنس ليس خطيئة كما تجعل منه بعض الأديان والمفاهيم فحسب، بل انه أيضاً خطيئة حينما يُساء استعماله وممارسته وبالتالي فان البحث عن تطويره وتفهمه ليس تجديفاً وإنما هو ضرورة .

الجنس حقيقة أساسية ، وحقيقة يمكن ان تكون جميلة ومصدر قوة وطاقة ... الشعب العربي شعب ما يزال يحتفظ بالحرارة لإزاء القضايا الجنسية ولم يصب بعد بالأمراض

الحضارية التي تحوله إلى كومبيوتر في معامل الجنس ...

والجنس لدى الفرد العربي ليس كله انحرافاً وكتباً ، ولدعوة جريدة « حاريف » الاسرائيلية منذ اسابيع (لتعقيم الشبان العرب في اسرائيل) مدلول خطير ! ... فقد كتبت الجريدة في افتتاحيتها متخوفةً من تضاعف عدد العرب في فلسطين المحتلة بشكل كبير ، ومن زواج ٥٠٠٠ فتاة اسرائيلية من شبان عرب ! خافت الجريدة على اسرائيل من بلغمة (احتواء وابتلاع) الخلية العربية الجنسية النشيطة لها . وماذا كان الرد ؟ ... نسف الشبان العرب مبنى الدار في وسط تل ابيب !

للحادثة أكثر من مدلول . فهي تعبر عن (حيوية) العربي ، وعن اعتراضه بذلك . وهذه الطاقة الحية المتجددة هي التي يجب المحافظة عليها من شتى الامراض النفسية : العتيقة والمستحدثة . ولكن حياتنا الجنسية مهزوزة . ثيابنا مستوردة وتصرفاتنا الظاهرية مستوردة وأعماقنا ما تزال تعج بمفاهيم القرون الوسطى ... وأخلاق القرون الوسطى لم تعد تلائم عصرنا لأنها تحول دون تطورنا . والأخلاق المستوردة ليست حلاً . وعلينا ان نعمل لإيجاد نظرة عربية إلى قضية « الجنس » ، اذ ان تجاهل أزمة الجنس لدى الجيل العربي المعاصر يزيد من خطورتها .

إن أول الخيط لإيجاد أخلاقية عربية تلائم عصرنا هو في ايجاد منطلقات علمية جديدة لبحث قضية الجنس بعيداً عن الحرافات والتهويلات والأساطير ... تلك خطوة أولى ، من أجل خلق تربية عامة واعية تهيب الجيل المقبل لتحمل مسؤولياته بشكل أفضل وأكثر وعياً وبعيداً عن أمراضنا وعقدنا ...

المثقفون والغضب !

الدكتور عبد الرحمن اللبان ، الطبيب النفسي ، وعضو المجلس الشرعي الإسلامي الاعلى يقول : «تحديات الحضارة الحديثة تستلزم القدرة على التكيف الدائم، لكن الجهاز العاطفي والنفسي لدينا قد تمت تربيته وتهيئته وفقاً لمفاهيم لا تمت إلى هذا العصر بصلة، لذا فان مواقفنا من الاشياء الحديثة هي مواقف قديمة لا تؤدي للانتصار وانما فقط إلى عدم التورط . انها موقف هرب .. ان شخصية الفرد لدينا تكونها أسنة الناس . هي التي ترسمه . كل واحد منا يحاول ان يكون صورته المرترمة في عيون الناس . لذا فنحن نميل دائماً إلى اتخاذ موقف الدفاع عن النفس ، موقف الاعتذار لا موقف

المبادرة » ... ان شعوبنا تعاني من كبت للمواقف الحقيقية الاصيلة لا حد له ... « ليس بالضرورة كبتا لرغبة في الجنس بل احياناً كبتاً لقرف وإعراض عن الجنس ، كالشباب الذي يضاجع احياناً مومساً خوفاً من سخرية اصدقائه » .. اخطر ما يتعرض له مجتمعنا هو الكبت بمعنى الجبن ، كبت الحقيقة ، كبت الصدق ... والتستر على عقد نفسية أحكم من الحديد ، حديد العصور الوسطى ، وفي ذلك يقول الدكتور اللبان « الكبت لا يعرف تفصيلاً وإنما هو وحدة ... انه جزء من موقف في الحياة ، موقف الهرب ... جزء من الكبت ، أي زجر العطاء » . والحل ؟ هل هو اعادة النظر في التربية الجنسية ؟ « بل انه اعادة النظر في التربية ككل ... تربية الجيل الطالع يجب ان تزود الفرد بالقدرة على الحياة في المجتمع بلا خوف ولا اضطراب ولا احجام فذلك يجعله بمنجاة عن دكاكين الجنس وعقاقير التفاهة والرخص » كما يقول الدكتور اللبان . والواقع ان اعادة النظر بقوانيننا واجب ايضاً . اعتبار القتل من أجل (الشرف) كعذر مخفف لم يعد منطق عصرنا يقبله .

نريد الآن أن يقتل الرجال من أجل (شرف الارض) و (شرف التاريخ) قبل (شرف البنت) . ثم انه لا يمكن ان تحدث جريمة جنسية الا والرجل شريك فيها . وللدكتور اللبان نظرة ثاقبة في ذلك ، يقول « الجرائم الجنسية بلا معنى اذ ان الرجل لا يقتل ابنته للاصلاح وإنما ليبرر نفسه أمام الآخرين » . والواقع ان لبنان الحر مؤهل للعب دور طليعي في هذا المجال ، فلبنان كبيت للحرية والتطور في قرية العالم العربي ، قد سبقها جميعاً إلى تعديل القانون الجائر المبني على مفاهيم تتناقض والمفهوم الحقيقي للعدالة وحرية الانسان .

يقول المحامي فيليب ضرغام: «قررت محاكم التمييز في لبنان عدم الأخذ بالاجتهاد القائل بتخفيف الحكم في موضوع الجرائم – دفاعاً عن الشرف بمفهومه القديم – ، والرئيس القاضي بطرس نجيم قد غير هذا الاجتهاد غير العادل وغير الانساني » .

نحو فهم جديد للأخلاق

وبعد ..

مطلوب منا نفس اسلوبنا العتيق في فهم الاخلاق وايجاد مفاهيم جديدة .
يقول الشاعر العربي :
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم ...

ومطلوب منا ان نفهم ان شرف الامة الرفيع ليس عضواً من أعضاء جسد بناتنا
وانما هو موقع امتنا الحالي من العالم ومن التاريخ ، واغتصاب اسرائيل لجسد امتنا هو
العار الحقيقي الذي يجب ان نجد لصدده طاقاتنا البشرية كلها نساءً ورجالاً . والعار هو
ان تبقى امرأة لا تعمل ولا تؤدي دورها الصحيح وفقاً لظروفها (زوجة –
محاربة – مهندسة – سائقة تراكتور ...) . ومطلوب منا الوقوف بوجه تجار الاخلاق
بلا خوف والحد من سوء تفسير تراثنا ...

وهكذا ... المطلوب فتح حوار مثقف واع ، بعيد عن الزيف والهرب .. فالمشكلة
عميقة ومعقدة .. واذا كانت إثارتها ممكنة في مقال ، فإن حلها سيتطلب أكثر من
جيل ..

غربان البلاط !

غداً ٢٩ تشرين الثاني .
 غداً ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ذكرى قرار تقسيم فلسطين ...
 طبعاً لم يعد هنالك ما يقال .
 لم تبق في لغتنا العربية كلمة حماسية واحدة الا واستهلكناها في مهرجاناتنا الخطائية
 ومقالاتنا الافتتاحية ...
 جثث الكلمات التي تدور حول الثأر وتحرير فلسطين صارت مكدسة تحت منابر
 مسؤولينا وأعتابهم ... تحول بيننا وبين لقاء ثقة جديد بهم .
 طبعاً لم يعد هنالك ما يقال .
 الكلمات كلها صارت هياكل فارغة باردة لألعاب نارية أضاعت سماء الفرد
 العربي لفترة يوم صدقها ... ثم انطفأت وبقيت «اسرائيل» ...
 ومع ذلك ...
 غداً ، وبصورة آلية ، تُفتح (أدراج أرشيف) الاذاعات العربية وصحفها ،
 لتستخرج منها كلمات جاهزة تم تلاوتها كل عام ، باللهجة المسرحية نفسها ، ثم
 تعاد إلى الأدراج بانتظار المناسبة إياها في العام المقبل ...
 كل ما صنعناه طيلة فترة الانتظار كان : أرشيفاً ... ارشيفاً للمناسبات كلها ...
 لذكريات فواجعنا الوطنية بأكملها ... ارشيفاً جاهزاً من جثث الكلمات ومجزرة
 معانيها .. تحول رجالنا وزعماء أحزابنا الذين طالما فرشنا لهم أهدابنا - مجاناً - إلى
 كورس من الندابين في بلاط التعازي بالنكبات العربية ! ...
 لم يعد هنالك ما يقال ، لانه لم يعد هنالك من يصدق ! ...
 لم يعد هنالك ما نخشاه لانه لم يبق لنا ما نفقده .. حتى ولا ادعاء الكرامة ! ..
 نحن ، الطيبين الاغبياء ، نحن الفاشلين في سوق المزایدات ، نتمهم أكثر الرسائل

الاعلامية العربية بتسميم حياتنا ... اذ إنها تلوث بقايا صدقنا ، بالجرائم الفاتحة من
جثث الكلمات التي اهترأت منذ أعوام ... إنها تخدرنا ، تحول بيننا وبين رؤية الحقيقة
المخجلة .

لم يعد هنالك ما يقال ...

صار الموت بالرصاص ، أهون من الموت على أرصفة التجاهل والادعاء الكاذب
والتمزق الخفي ...

لم ن فقد إيماننا بالآخرين فحسب ، بل بدأ كل منا يفقد إيمانه بصدقه هو نفسه ...
فلنعن حداد الصمت ، ولنعاقب غريان بلاط فواجعنا ...

ان عطاء بلا كبرياء ليس كراماً ! ..

« - ماذا أعجبك في لبنان ؟

- طعام لذيذ جداً اظن انه يدعى .. آ .. آ ..

- الكبة ؟

- لا .

- التبولة ؟

- نعم .. نعم .. التبولة .. » .

ما هذا بحوار عابر من آلاف الاحاديث التي يتبادلها أي سائح مع مضيفه اللبناني الكريم ، ثم تنضم همساتها إلى آلاف الهمسات الحلوة في فضاء لبنان ، وانما هو مقطع لا أحمل سوى مسؤولية نقله حرفياً عن احدى الصحف الكبيرة ، وهو جزء من حديث يماثله في (الخطورة) ، دار بين أحد المحررين وأحد الممثلين الاجانب الذين يزورون لبنان ، ونقرأ باستمرار ما يشبهه من حيث « العمق الفكري » .

وكلما زار لبنان فنان أو فنانة من بلاد الغرب ، هبت رياح الكرم - تحمل الصحافيين، والمستقبلين بياقات الورود إلى المطار - على اولئك الفنانين ، وفتحت لهم أبواب المجتمعات الراقية ، وامتلأت أعمدة الصحف بأحاديثهم وصورهم ، وحتى مجلاتنا الرصينة المعروفة بـ «الاتزان» نراها تفرد لهم عدداً كبيراً من الصفحات ... هذا كله رائع وطبيعي في لبنان لأنه كان وسيظل دائماً أخضر النفس والروح ، وحامياً للتراث العربي في الكرم .

ولكن الامر الذي يثير الاستنكار ، هو المبالغة في أمر هذه الدعوات ، والافراط في هذا الكرم ، حتى ليفهم منه الضيوف شعوراً بالنقص ، وضعفاً في شخصية المضيف ، في غمرة التكالب على احتضانهم ، يجب ان لا ننسى انهم فنانون عاديون رغم شهرتهم ، ولعظائمهم أثر محدود على تاريخ الفن ، وان بلادنا العربية تضم عشرات

الموهوبين أمثالهم في الزوايا المعتمة .. وكلما التقينا بفنان عادي محدود المواهب كرمناه لمجرد انه يحمل جواز سفر أجنبياً . ويجب ان لا نجعل من جواز السفر هذا خاتماً سحرياً يفتح أمامه الأبواب الصلدة لمجرد انه صادر عن دوائر لا تنطق بالعربية . اعتقد ان هذه الظاهرة ، إلى جانب تعبيرها عن بعض الكرم ، تعبر ايضاً عن عقلية ما زالت تشعر بالكثير من النقص أمام كل ما هو غربي ، وتحاول تغطية هذا الإحساس بتصرفات كثيرة ، منها تطعيم أحاديثها بجمل غريبة ، وتطعيم أساليب حياتها بتصرفات غريبة لا تنسجم وجذورها ، ولا تتلاءم مع طبيعة مناخنا الشرقي . لقد ولى الزمن الذي كنا نصفق فيه للوالي حينما يخلع على مغنٍ أطربه كيساً من النقود .. صرنا الآن ننتقده ، لأنه ينفق أموال الشعب على من لا يستحق ، كما انه سيفسد الفنان بالمبالغة في إكرامه ، ويدفع به إلى الغرور ، وإلى الاستهتار بعقلية صاحب الدار الذي « يسكر من زبينة » ..

إن أهم ما في العطاء هو ان نعرف كيف نعطي ، ومتى ، ولمن ، وكم .. والذي يُكسب الهدية مدلولها هو اسلوب تقديمها . وان عطاء بلا كبرياء ليس كرمأ .

بصارة لمؤتمرات القمة ! ..

كان ياما كان ..
 كان هنالك أمير ، فراشه وثير ، وتحت وسادته الحرير ، مبلغ من المال كبير ...
 ذات صباح ، تجمع أهل امارته على الصباح ، وكان أميرهم يندب ماله المستباح ،
 ويهدد السارق السفاح ، بالويل والثبور وعظائم الامور ...
 ولم يلجأ الامير ، لكشف السارق المكير ، إلى بصمات الأقدام والاصابع ،
 ولكنه ملم منجمي المراجع ، وصباح بصوت عال ، اكشفوا السارق الضال ...
 وجيء بعدد من المتهمين ، إلى حفرة الدجالين ، وفي فم كل منهم أودعوا
 بلعة ، ووعدوا الامير بفرحة ، لان البلعة المسحورة ، سوف تعلق في حلق السارق
 لحظة البلع المشهورة ، ومن بلع بلعته كان من الناجين ، ومن علق في حلقه كان
 من الضالين السارقين ...
 ونُفخ في الابواق ، وهرع الناس من الاسواق ، فرأوا المتهمين يتلعون البلع
 باشتياق بعد أن عضهم الجوع بنابه ، وأدماهم السجن بعذابه ...
 وثار الامير ، وأمر بطرد كل منجم أجير ، من أرضه السعيدة ، جزاءً وفاقاً
 على تلك المكيدة ...
 وتناهى اليه في حلم جميل ، أن على بعد مئة فرسخ وميل ، مدينة بحرية ،
 تقطنها بصارة اسطورية ، اسمها فاطمة الذهبية ... وأرسل في طلبها ، لعل حجب
 الغيب تطيعها ، ولعل وسادته الحرير تخبرها بمن سرق نقود الامير ...
 لكن فاطمة بنت الحكيم ، أبت الرحيل بإباء عظيم ... كان ياما كان ... لا في
 سالف العصور والازمان ، ولكن في عصر ارتياذ الاقمار والاكوان ! ...
 وهذه الحكاية ليست من ألف ليلة وليلة ، ولا من أحد كتب حكايا الاطفال ...
 ولكنها حدثت منذ اسبوع ، وفي امارة عربية ، وبطلها شيخ الامارة ... والخبر

منشور في الصحف العربية الكبرى ... المفروض ان الامارة مسلمة ، وان شيخها هو المسلم الاول فيها ... والمفروض انه يحكم بوحى من تعاليم الدين ... واذا كان التخلف الذي سببه الاستعمار سبباً في الماضي قد يدفع بحاكمها إلى تجنيد المنجّمين ليكونوا (اسكوتلنديارد) جنائية ، فان في إسلامه ما يسمو به عن منطق الدجالين هذا ...

ان عقلية شيخ هذه الامارة في كشف السارق ، هي كأسلوب كثيرين من المسؤولين العرب في التعامل مع سارقي أراضي الامة العربية ومواردها وثرواتها البشرية والطبيعية ..

واذا كان شيخ هذه الامارة قد دعا فاطمة البصارة اليه للكشف عن الأضرار ، فهل نقرأ ذات يوم عن استدعاء فاطمة إلى أحد مؤتمرات القمة ؟ .

لا نريد .. حفنة من المفاتيح !

خبر ضجت له الصحف والمجلات ...
 ملكة جمال «اسرائيل» ، أمضت في بيروت أحد عشر يوماً تتخطر على شاشتي
 «التروبول» و «سارولا» كمثلة في فيلم تم عرضه في الصاليتين ...
 وطبعاً ، بدأت التحقيقات في الدوائر المختصة لتحديد المسؤول عن الفضيحة .
 وتضاربت الآراء ..

هل هو مكتب المقاطعة ؟ أم موظف الرقابة ؟ أم مكتب شركة فوكس في بيروت ؟
 أم ؟ .. شيء واحد اتفق الجميع عليه ..
 ان الأمر فظيخ ... وفضيحة ... وجريمة ..
 فضيحة ؟ أجل ... ولكن ،

إذا كنا صادقين في ثورتنا على فيلم الممثلة الاسرائيلية الذي يستمر عرضه ساعتين ،
 وعلى شاشتين صغيرتين ، كيف نستطيع ان نتابع حياتنا اليومية ، هكذا ، ببساطة .
 وفيلم اسرائيلي لا حد لفظاعته ، ظل يدور طيلة ثمانية عشر عاماً - وما زال - وعلى
 شاشة كبيرة من أرضنا وبيوتنا وبياراتنا اسمها فلسطين ؟ ...
 فضيحة ؟ .. أجل .. ولكن ..

ماذا عن تلك الفضيحة الاخرى الكبرى ، الفضيحة الأم ، التي تدور منذ ثمانية
 عشر عاماً ، والتي لم نواجهها بغير عد الاعوام ، ودفن رؤوسنا المهترئة بالخزي في
 الرمال ؟ .. المسؤول ؟ .. من المسؤول ؟ ... غداً نرشي ضمائرنا بمعاينة فرد أو اثنين ..
 وكلنا مسؤول عن الفضيحة الكبيرة الاساسية .. حتام نداوي فلسطين بالمخدرات
 الموضوعية ؟ .. لماذا نعي فظاعة الجزء . ونهرب من مواجهة المشكلة ككل ؟ .. ألسنا
 بذلك جميعاً متواطئين على الهرب من مواجهة حقيقة السرطان الكبير ؟ ..
 مقاطعة «اسرائيل» جزء من الحل الكبير . مرحلة ضرورية لكنها غير كافية ،

أن نمنع ملكة جمال «اسرائيل» من التخطر على شاشتنا أمر ممكن ... لكنه للأسف لا يعني اعدامنا لبقية شاشات العالم التي تعرض الفيلم نفسه ..
أن نرمي بتلفزيوناتنا إلى البحر، - بدلاً من ان نرمي بمحطات بث «اسرائيل» إلى البحر - لا يعني انها كفت عن بث برامجها ...
وان تبحت التلفزيونات العربية أمر مواجهة تلفزيون «اسرائيل» على طريقة «رغوة البيرة» ، لا يعني ان حلاً قد نفذ ، وخطراً مدمراً قد سحق ...
شبعنا تخديراً وهرباً ورشوة لضمائنا ..
يوم خرج العرب من الاندلس ، حملوا معهم مفاتيح بيوتهم رمزاً للعودة المرتقبة ... وظلوا طيلة أجيال يحتفظون بها انتظاراً للعودة المرتقبة ، وما زالوا حتى اليوم ..
لا نريد ان يبقى لنا من أرضنا ، فلسطين ، مجرد حفنة من المفاتيح ! ..

« الجيمسبوندية » في امتحانات البكالوريا !.

لا ، ليسوا مجرمين ..
 بتهمة الغش في الامتحان قبض عليهم ...
 طبعاً لا جديد في ذلك .. انه أمر كان وما زال وسوف يظل يقع ...
 ومع ذلك نُشرت أخبارهم في صفحات الصحف الاولى ، فقد أذهلت « أداة
 الغش » الناس جميعاً بمن فيهم مراقبو الامتحانات ...
 اللاسلكي ... هكذا بكل بساطة اتخذوا من اللاسلكي وسيلة لالتقاط (الأجوبة
 الطائرة) ...
 لا ليسوا مجرمين ...
 النص القانوني لا يدينهم بتهمة الغش ، وانما بالاسلوب : استعمال لاسلكي بلا
 ترخيص ...
 ومع ذلك فقد روعت الناس الحادثة ، وأثارت قلق الاوساط كلها أكثر مما قد
 تثيره أية جنحة لا ينص القانون على سجن صاحبها أكثر من عامين ...
 لماذا ؟ ..
 لان هذه الحادثة تدق ناقوس الخطر ... لأنها تديننا جميعاً ...
 ذلك الطالب ، الذي جلس في قاعة الامتحان وتحت الضمادات المزيفة التي تلف
 رأسه خبأ سماعته « الجيمسبوندية » ، ليس في نظري تلميذاً سيئاً ...
 إنه في نظري تلميذ مثالي مخلص لما علمناه إياه خارج الكتب ...
 إنه حصيلة صادقة التعبير لما غُرس فيه ... إنه واحد من ذلك الجيل الذي شب في
 عالم مهزوز .. وكبر بينما كل ما حوله يعلمه درساً واحداً : ان التجاح يعسني
 القرصنة ...
 ان كهارب الجوع العام الذي (يلتقط) شحنتها منذ طفولته لا تحمل له الا حكايا

القرصنات السياسية والفكرية والاجتماعية والمساومات بالقيم والتقاليد وحتى الأديان...
ثم جاءت الموجة الجيمسبوندية تنسكب من شاشات التلفزيون كتعبير عملي (طريف)
عن تجاوز (غير طريف) لتراث أخلاقي ضائع ...
هذا التلميذ ليس مجرماً ...
إنه التلميذ العربي الاول ... إنه أصدق تلميذ لأنه مارس ما تعلمه ببراءة لا حدًا
لها ... الدليل ، أجوبته بعد القبض عليه ... إنه لا يستطيع ان يستوعب لماذا يكون
فيما قام به خطأ ما .. ثم إنه ليس غيباً .. بل ربما كانت في رأسه بذور مخترع كبير
زرعت في تربة مريضة في عصر مريض ، فكان منه (ما نسميه باللغة التي لا نمارسها
في الحياة الواقعية) غشاش كبير ...
وهكذا ، بدلاً من أن نقول للعالم عندنا أول مخترع بلهاز ما ، نقول لهم عندنا
أول مخترع (للامتحانات اللاسلكية) ! .. الدليل ؟ ...
إنه استطاع ان يصنع اللاسلكي بنفسه ... ويضبط موجة البث .. ببساطة وبذكاء
عملي كبير ، لو لم نسيء نحن توجيهه لاستطاع أن يقدم لبلاده شيئاً آخر ...
لا ، ليسوا مجرمين ...
كانوا أوفياء لما تعلموه ! ... وقد حرمناهم من قيم آباءنا ، واستوردنا لهم
المخدرات الجيمسبوندية .. ليسوا مجرمين ... إنهم أول حصاد الهشيم ! ...

لمن تقزع أجراس السجن ؟

عن رصيف (بنك انترا) المفلس في بيروت التقطوها . امرأة تنزف خريفاً وشيئاً وفجيعة . تصرخ في جموع المارة نادبةً ما جمعت طيلة أيامها السود الماضية ، لأيامها السود المقبلة . والمرض يقزع أبواب صدرها والمصير المجهول ، وغداً يأكلها الجوع . هكذا ، وبلا أي سبب تستطيع فهمه ، قالوا لها : لا سيولة . أزمة ، أي تقودك ضاعت . (ربما كانت تقودها هذه لا تساوي ثمن أحد معاطف الفراء المنسية في خزانة إحداهن .. ولكن ...)

وتم لمتها بسرعة عن الرصيف ، حيث كانت تنزف احتجاجاً وصراخاً ممسكة برأسها وهي تحس بأنياب قطيع من الكلاب الوحشية تنغرس فيه ، وتم إيداعها في مستشفى المجانين – أضيف إلى المستشفى المذكور جناح جديد بعد إفلاس بنك انترا .-

وما كاد صدى صراخها ينطفئ على الرصيف حتى عادت الأقدام تمضي في طريقها كأن شيئاً لم يكن ... تماماً كما عاد الناس إلى متابعة حياتهم المعتادة بعد أيام من هزة بنك انترا ، وكما عاد بعض المسؤولين عن الازمة يحملون وجوههم إلى الحفلات إياها وشوارع اللهو دون أن ينجلوا بها أو يشعروا بالمسؤولية . وظهر انعدام المشاركة بين الناس حينما لم تخلف الأزمة جرحاً الا على صدور الذين فقدوا ما ادخروه ... (من دلائل عدم المشاركة وعدم رهاقة الحس بالمسؤولية حفلة انتخاب « ملكة جمال المال » عقب « حفلة الافلاس الجماعية » التي أصابت عدداً كبيراً من المواطنين) وهكذا لم يبق من هذه المرأة سوى خبر صغير نُشر في زاوية إحدى الصحف .

وبينما كانت المنكوبة تقاد إلى مستشفى المجانين بعيداً عن المدينة وأنياب قطيع الكلاب تعمل في رأسها ، كانت هنالك مدينة في اليابان تدعى « كيتاكيوشو » تتضمن معلنة الحرب على أنياب الكلاب التي تهاجم أمن سكانها وطمأنيتتهم ...
فقد هاجم قطيع من الكلاب إحدى نساؤها ، وتسبب في موتها وبالتالي موت أمن

أهل المدينة ... وهكذا لم يكتف أهل الموتى فقط بالندب ، وإنما اتخذت الخطوات العملية لمواجهة الكارثة ... وحتى المواطنين الذين لم تصب أنياب الكلاب أجسادهم مباشرة ، لم يكتفوا بالمراقبة السلبية . ولم تبدر منهم أية إشارة (قلة حس وذوق) ولم يقيموا حفلة لانتخاب « أجمل كلب » بينما الناس يدفنون أمواتهم ويداوون (عضاتهم) : وإنما انضموا إلى أهل المدينة المتضررين ومسؤوليها (الواعين لمسؤوليتهم) وقرروا إعلان الحرب على الكلاب والقاء قطع اللحم المسموم في شوارعها ... هذا ما حدث هناك ...

نحن لا نطالب أهل المدينة « مبكى انترا » بوضع قطع اللحم المسموم أمام أبواب مسبي الكارثة، إذ ما زال وعينا بالمسؤولية وحسنا الإنساني الجماعي أضعف من أن يدعم موقف تضامن شامل كبير كهذا ...

ولكننا لا نملك الا التساؤل : من فقد وعيه ؟ تلك المرأة التي تبكي عمرها الضائع ، أم أولئك الذين يقيمون الاحتفالات لانتخاب « ملكة المال » وشبح « الفقر » يفتك بعقول أهلها ، مَثَلُهُمْ في ذلك مَثَلُ أهل مدينة أصابها وباء الطاعون، وفي غمرة دفن الموتى ومداواة من تبقى يجتمع بعض « عقلاؤها » الذين لم يمرضوا بعد لانتخاب « ملكة جمال الصحة » ! ...

ماذا نقول لو سمعنا أنهم في الهند حيث يعانون من « المجاعة » أقاموا حفلة لانتخاب « ملكة التخمة » ؟ ! ...

ترى من يستحق التهديد بقضبان السجن ؟ ... أولئك الذين عجزوا عن إسكات أصوات ضمائرهم ، فكتبوا محتجين ضد مؤامرة النسيان التي تدفع مأساة انترا إلى بئرها ، أم كورس المصنفين لقطيع الكلاب - الذئاب ؟ ..

(ملاحظة : لا أملك قرشاً واحداً في بنك انترا) .

« يه يه يه »

يقال - على ذمة الرواة ناشري الخبر - ان البيتلز يستعدون لزيارة بيروت (سيتصادف ذلك بعد ابحار شباب الاسطول الأميركي السادس عن منطقة الكاباريهات البيروتية في الزيتونة) .

وجيلنا الذي خرج منذ أسابيع متظاهراً ليكون في استقبال مغنييه (ادامو) ، لن يتخلف طبعاً هنن (زعيق) عواطفه وهز أردافه إعجاباً .. وقد يحج الى بيروت كل قادر من أبناء بعض الأقطار العربية المجاورة لينضم الى رتل الضائعين الممزقين في مظاهرة الاستقبال .

وسيهز الشيوخ رؤوسهم احتقاراً وحنناً .. وربما ستمدع أعين بعضهم وهم يذكرون المظاهرات التي طالما واجهوا فيها الرصاص من أجل الاستقلال ، ومن أجل قضايا أخرى تتعلق بالخبز والكرامة ..

والصيحات التي تتعالى من وقت الى آخر مقررة - بحسن نية أو بسوء نية - ان جيلنا « جيل فاسد » ستجد تأكيداً جديداً لهذه (الحقيقة) . وستتهم الجيل باستيراد قلقه وضياعه ، وسيرد بعض المسترزين اللؤماء مدافعين : عصر حديث يتطلب ذلك . نعم جيلنا ضائع وقلق لأنه بلا يقين ، ولأنه لا شيء حوله يمنحه الطمأنينة من حكام أو ساسة . ماذا يمكن أن يمنحه اليقين ؟ من قال إن الكتب المدرسية وحدها تكفي ؟ .

ماذا حوله ؟ ..

الصحف مرآة ؟ لنقرأ معه ما يقرأ من تناقضات . ولنلتقطها من الصحف العربية المختلفة .

هذا خبر اجتماعي أنقله حرفياً .

« السيدة س . سافرت الى أوروبا للاستجمام من ... من عناء الحفلات !!! ... »

في صفحة الجرائم من العدد نفسه خبر (أقل أهمية) : نساء احدى القرى تظاهرن مطالبات ببناء مدرسة لأطفالهن ! ..

ريورتاج مصور عن السيدة التي امتهنت قص شعر الكلاب المدللة – الكلاب تشكل اليوم طبقة مهمة في المجتمع (المودرن) لم يخطر لابن خلدون ذكرها .

وهذا خبر آخر مكرر : عامل بناء سقط من الطابق الخامس اثناء عمله وانظفاً على الرصيف بقعةً من حبر أحمر مهدور .. العدالة الاجتماعية لم تبخسه حقه ، فقد نشرت الصحف نبأ موته وتحت عنوان « قضاء وقدرآ » ، كأننا لم نسمع بأساليب البناء الجديدة التي تحمي إنسانية العامل وتحول دون تعرضه للسقوط (قضاء وقدرآ) أو (دواراً من الجوع أو نتأجه كفقير الدم) ، .. « مصلحة » رب العمل « المادية » تغريه بالأ يسمع بها ، وسيظل الناس يتناثرون على الأرصفة بقعاً محطمة من الحبر الأحمر المهدور ..

وعلى ذكر الحبر ، مطلوب من أدبائنا التغريد دوماً ، فالتعبير عن أي قلق أو تمرد ، متهم سلفاً بالاستيراد من أوروبا ، وعلينا جميعاً أن نستسلم لرومانتيكية القرن التاسع عشر. ومع انه لم يتبق في ضمير كل منا موضع (إلا وفيه طعنة سيف) ومع ذلك مطلوب منا – باسم التراث – أن نفرد ، وأن نتحدث عن تحرير المياه ووشوشات العبير .. وإذا نقلنا صورة حقيقية لما يدور ، رمادية وقائمة – لأن هذا ما يدور – اتهمونا بعمى الالوان، الألوان التي يتم اغتيالها على المستويات كافة .. واتهمونا بإفساد الجليل الصاعد .

لنعد الى الصحف : مرآة ما يدور ... ولنتقل الى صفحات السياسة ...

في عدن ما زال الرجال يعذبون في اسطبلات الاعتقال ، ونحن (الأمة العربية الواحدة) آخر من يعلم ، وقد تم الاهتمام بنشر أخبار أولئك المناضلين مؤخراً، عن طريق نقل الخبر في صحف أجنبية الصحف الأجنبية هي التي نقلت احتجاج الضمير الإنساني لفئات كثيرة هناك ، ضمت صوتها الى صوت منظمات الصليب الأحمر الدولية المستنكرة للمعاملة الوحشية التي يلقاها ثوارنا في عدن ...

غردوا أيها الادباء . لا تقلقوا أيها الشباب . النضال بخير ، والاتكال على همة الصليب الأحمر والشعوب الأخرى .. مشكلة فيتنام مثلاً ، ألم يتم حلها على يد مظاهرات الأمريكيين المحتجين على سياسة دولتهم ؟ .. ملعقة أخرى من غسل التخدير .. أسلوب مبتكر للمناورة ، كله حب ومشاركة ، يضرب على وترنا العربي :

حسن النية ...

كل عام والعالم الحر يجير .

منظمة السلام (الأمم المتحدة) بلغت سن الرشد (بالهوية فقط) واحتفلت منذ أيام بعيد ميلادها باطفاء ٢١ شمعة (ومع ذلك ما تزال الشمس تشرق بالضياء نفسه) ...

وتصادفت ذكرى مولدها المجيد مع ذكرى مرور ٤٩ سنة على وعد بلفور الذي أساء التقدير (فلو عرف مدى تخاذلنا لأقطع إسرائيل أقطاراً أخرى من بلادنا ولما اكتفى بحس نبضنا في فلسطين وترك الباقي على خلفائه) ...

أحداث وأحداث ... وفي مثل هذا الجو يترعرع جيلنا .. جيلنا القلق الذي يصرون على أنه يستورد قلقه ، حياة جيلنا الرافض .

جيلنا أصيل ، لأنه رغم الجو الفاسد الذي يحيطونه به — بحسن نية أو بسوء نية — ما زال مصراً على التمرد بحثاً عن مصير أفضل ...

وأهلاً بالبيتلز ... ولينضم رتل الكتاب الى المراهقين ، ولتردد معهم (به به به) بملء حناجرنا المخنوقة بألاف الكلمات ، ولنغنر معهم (به به به) كي لا (نبق البحصنة) ونقول المزيد .

مطلوب أيضاً .. قبعات

سترة مضادة للرصاص ...

صحف أوروبا تتحدث عنها ، وعن المؤسسة التي تصنعها (مؤسسة ولكنسون سوردي) واسمها لا يهم كثيراً ، فالمهم أسماء زبائنها (السريين) الذين يرفض صاحب المؤسسة ذكر أسماء الأحياء منهم ، ويكتفي بالإشارة إلى أنهم من كبار رجال السياسة وحكام بعض الدول ... وأنهم يتزايدون يوماً بعد يوم ! ..

سترة مضادة للرصاص ، يرتديها (الرجل) الذي يخشى على نفسه من الاغتيال تحت ثيابه ، وهي مصنوعة من معدن لا يخترقه الرصاص فيما لو أُطلق عليه (من الخارج) ... وهي تحول أي زعيم سياسي إلى (جيمس بوند) فعلي غير قابل للاغتيال ..

اعتقد أن الفكرة على قدر مدهش من السطحية ، ..

فإما أن يكون الزعيم تعبيراً حقيقياً عن رغبات الشعب وأمانه ، وإما أن لا يكون .

في الحالة الأولى يرفض الرجل العظيم أن يتحول إلى سلحفاة (حديدية القوقعة) ، لأن له من يقينه الكبير بإخلاص عطائه ، وامتداد أفكاره داخل رؤوس الآخرين ما يجعله يشعر بنوع من الطمأنينة الداخلية العميقة ، تلك التي عبر عنها القائل لعمر ابن الخطاب « حكمتَ فعدلتَ ، فأمنتَ فتمتَ » (*) ... وعمر بن الخطاب حينما كان يرفض أية (سترة مضادة للقتل) من حراس أو خيام مصفحة بالمعدن ، لم يكن ساذجاً ...

فقد كان يعرف أنه مهما كان الحاكم عادلاً ، فقد يظل من زحام المواطنين العقلاء مريض أو موتور ويغمد سكينه في القلب الذي « عدل فأمن فنام » ... لكنه

(*) قالها رسول كسرى ، ملك فارس في ذلك العهد .

أيضاً كان يعرف إن قتل الزعيم الحقيقي أمر مستحيل .. فهو ، بأفكاره الممتدة داخل ملايين الرؤوس أشبه بذلك المخلوق الاسطوري الذي كلما قطع له رأس نبت في موضعه الف رأس ... وهو بتعبيره عن رغبات الشعب وتجسيدها في (نظام) يستمر في ذلك (النظام) وفي قلوب ابنائه حتى بعد إغماد السكين في قلبه ...
فالاغتيال السياسي إذن أمر مستحيل إذا كان الزعيم حقيقياً ، وهو بالتالي لا يخشاه ...

والسكين التي كانت قد اخترقت لحم عمر لم تخترق لحم (فكره) ،
بعده ...

والرصاصة قد تصرع جسد الزعيم ، وقد يُختطف جسده وتحول اجزائه الى (هدايا تذكارية) و (بورت بونور) ، ولكن إعدام ما كانت تمثله شخصيته ، هو أمر يعجز أمامه الاغتيال السياسي المحدود الأثر .. فالرصاص يمزق جسد السياسي لا جسد الافكار ، ولا جسد النظام .
أما في الحالة الثانية ، حينما يكون الحاكم متسلطاً وبعيداً عن رغبات شعبه ، فان فكرة حمايته ، بارتدائه للسترة المضادة للرصاص تحت (السموكن) ، تبدو أكثر تفاهة ...

فالسترة المضادة للرصاص تحمي الحاكم المستبد من الرصاص الذي قد يُطلق من الخارج .. ولكن الرصاص في هذه الحالة ينطلق من (داخله) ، من داخله هو نفسه ... من عيني محتضر قتله ظلماً وعجز عن سلخهما من داخله . من ملايين العيون الحاقدة التي فقأها ، وصرخات الألسنة التي قطعها ..
تلك اللحظات ، لحظات اغتيال المغتصب لنفسه ، لحظات انطلاق الرصاصات من داخله ، أية مؤسسة تستطيع أن تبتكر لداخله درعاً ما ؟ ..
وبعد ،

أولئك الساترون أجسادهم بالسترات المضادة للرصاص ، أين يهربون برؤوسهم ، والأزياء المعاصرة لا تتضمن ارتداء القبعات ؟ ..
مطلوب مؤسسة إضافية لصنع القبعات ، التي تحول دون اختراق الرصاص القادم من الخارج ... وذلك المنطلق من الداخل !
... الى أين يهرب الحاكم الظالم حين ينفجر غضب شعبه؟ وهل من مظلة تقي من السيل ؟ .

هنيئاً لـ (بوبي) سيدة المجتمع !

كهل ، تسلل مع الكلاب الجائعة الى كومة من القاذورات بحثاً عن شيء يأكله ، عندما وصلت سيارة البلدية وألقت بحملها فوقه دون أن يلمحه سائقها ، فمات مطموراً بالنفايات ، وبالدم النازف من رأسه ...

هذا خبر من عندنا ، من محلة المسلخ في بيروت . القتل عربي ، واسمه لا يهم أحداً : جمعه شناوي . وربما كان يفضل أن يستبدله باسم (بوبي) لو وجد سيدة مجتمع تستعرض دلال صوتها حينما تناديه لتطعمه ..

والخبر الثاني من عندهم . من شتوتغارت في ألمانيا الغربية : تقرر اتخاذ اجراء سريع من أجل صحة أسماك البحيرات والأنهار ، وهو بث الأوكسيجين في المياه (عن طريق خرطوم من النايلون لها مسام دقيقة يرسل بداخلها غاز الأوكسيجين بقوة ضغط عالية وذلك للحيلولة دون اختناق الاسماك) ، وربما للحيلولة دون انحراف مزاجها أو اصابتها بحالات نفسية من جراء ضيق التنفس ! ! ..

والخبران تصادف أن نُشرا في جريدة واحدة ، وتصدرت الصفحة صورة الرأس الدامي لذلك العربي الباحث عن اللقمة ، ولم تنشر أية صورة للاسماك السعيدة ربما حرصاً على مزاجها من أضواء لمبات التصوير ...

وهكذا مات الجائع المجهول عندنا ببساطة .. ففي هذه المرحلة الحاسمة من الزخم الثوري والتطور الاجتماعي لأمتنا العربية ، الكل في شغل شاغل عنه بالقضايا الكبيرة ... الجميع مشغولون بقضايا أكثر أهمية ..

هنالك زواج الأخبار عن المؤتمرات والمصالحات والمخاصمات ، وهنالك بعض الثوار في بدلاتهم السموكن) ، والمتقفون المتخمون بالنظريات التقدمية والرجعية (والكوكتيلية) ييثونها في مجالسهم ، وفي مقاهي الأرصفة بينما على الأرصفة أمامهم يُطمر الجياع تحت النفايات ، أو يتلونونها في مقالاتهم ليقرأوها وحدهم ويغازلوا

بها نرجسيتهم .. وهناك جموع الزاحفين خلف صياح مؤذن وجرس كنيسة ، كل يتمم على طريقته بعبارات لم يكن المقصود منها أكثر من أن لا يدفن إنسان آخر جائعاً تحت النفايات بينما هم يتمنون بصلاة الشكر بورعٍ على موالدهم ويحنون المَعَد الممتلئة تحت محراب أو أيقونة ..

أولئك المشغولون بقضاياهم الذين لا وقت لديهم للذهول – على الأقل – أمام مقتل إنسان .. أليست قضيتهم الإنسان ؟ .. ألا ينطلقون جميعاً من نقطة واحدة هي ان كل انسان قضية ؟ ؟ .. ألم يحتر بعضهم درباً ما كي يحققوا للفرد العربي غاية واحدة هي الخبز مع الكرامة ؟ ..
كلهم يقول انه صادق ..

ومن أجل هذا الصدق ، فليكن كل شيء لبرهة عن الحركة والصجيج .
ولتجمد الأيدي الممتدة بالشموع نذوراً للقديسين والاولياء ، وليجف الخبز ولتسح الألوان على اللوحات ، ولتصمت الأدمغة التي استحالت مجرد السنة مشلولة إلا عن أزيز نحل بلا خلية ، وليكنف العالم العربي لثانية عن الزيف ، لنمنح ملايين البائسين في شخصه مآتماً ، بعد ان فشلنا في منحهم لقمة ..

ولنعترف باننا مزيفون ، أو أننا اخطأنا الدرب ، أو اننا نعمل لتبجح بأننا نعمل ، أو لننداري بقية من ضمير عربي لن تقوى على تهجينه ، أو اننا ما زلنا اطفالاً ليس لنا من شرف القضية إلا النية الطيبة ...

وهنيئاً للأسماك عندهم ، وا (بوبي) سيدة المجتمع عندنا .

تواييت ، و«بيروت ترحب بكم» !

أسرةً بالمدن السياحية، والعواصم الشهيرة ، تم تزيين شوارع بيروت بطريقة (هتشوكوية) مبتكرة فعلاً ..

فقد استيقظ أهل بيروت ، وإذا بالتواييت تزين ساحاتها وتقاطعات شوارعها الرئيسية ..

تواييت معدنية كان قد تم استيرادها تحت اسم « سيارات » . ثم تولت (الصناعة المحلية) مهمة تحويلها الى تواييت في (مناسبات) مختلفة أهمها حوادث الاصطدام بسيارة أخرى أو يجدار (جانح !) أو جرافة أو في غمرة مغازلة صخور قاع أحد الوديان .

وقد تم توزيع هذه (التواييت) بالعدل على مختلف مداخل بيروت ، وتوافر لهذا (المشروع) من الدقة في التوزيع وعدم حرمان أية منطقة من (بركته) ما لم يتوافر لأي مشروع آخر ..

وهكذا ، فلن يفوت أي سائح - وبيروت مدينة سياحية ! - هذا المشهد الذي لن يجد له شبيهاً في أية عاصمة أوروبية أخرى مهما تفنن مهندسوها في تزيينها .. وإذا أسعفه الحظ بالافلات من طريق المطار ، فسوف يجد في مدخل طريق الشام أو طرابلس (تابوتاً) ، بالضبط الى يمين لافتة « بيروت ترحب بكم » ! ! ..

الذين زرعو انصاب السيارات المعجونة بالدم والصدأ لهم وجهة نظرهم : تذكير الناس بعاقبة السرعة بطريقة واقعية حسية .

ولما تصادف ان سكان بيروت يتضمنون الى جانب السائقين مجموعة ضخمة من الاطفال ومن المواطنين الذين لا (يتعاطون) السيارات وقيادتها ، هذا الى جانب السياح والضيوف الرسميين والفرق الفنية العالمية ، لذا كان لا مفر من أن ينال الجميع قسطاً إجبارياً من هذا العقاب النفسي ..

فالطفل الذي يلتقي بحطام السيارة وهو في طريقه الى المدرسة أو التزهة – ان كان لاطفالنا تزهة – سوف يكبر والصورة البشعة مدموغة فوق عينيه بكآبتها .. والأخطر من ذلك هو أن يعتادها حتى تفقد قدرتها على إثارة استنكاره وتصبح مشهداً عادياً ، جزءاً من المشاهد التي تربي عليها ، والتي لن يضايقه أن يلتقي بها فيما بعد ، أو يشارك في (صنعها) ..

أما السائح الاجنبي ، فسيحاول أن يستجمع في ذاكرته مثيلاً لهذه (البادرة التريينية) .. واذا كان فرنسياً فقد يظن انها غنائم خلفها العدو في ارض المعركة اسوة بالمدافع التي تزين مدخل أحد قصور باريس والتي غنمتها فرنسا في احدى حروبها .. وربما سيفهم القصد منها ، حينما (يطير) به سائق التاكسي (المرسيدس) الى فندقه ، وهنا لن يفوته أن يلتقط صورة ذلك المشهد المميز (لباريس الشرق) ، ويضيفها الى ألبوم صور التخلف التي يهوى بعض الذين ضللتهم الدعايات التقاطها : كصورة امرأة مكفنة بالسواد تتلصص من خلف حجابها على العالم . صورة جائع عاري القدمين خرقة الممزقة تكاد لا تستر هيكله العظمي . حي مدينة التنك – شاهدت صوراً لها التقطها مصور فرنسي وتم عرضها كخلفية لمسرحية قدمت في مناسبة دولية – حيث البشر يحسدون كلاب التاننات ونجمات المجتمع (بالمناسبة تم افتتاح مدرسة للكلاب في بيروت ، وقسط الكلب فيها أكبر من قسط طالب جامعي) . ذلك كله يهون لو كان في هذا التدبير ما يحل تلك المشكلة المأساة: ضحايا حوادث السيارات ..

ولكن ، ترى هل يكفي زرع التواييت في الشوارع ، وفي الحدائق العامة أيضاً لتهدئة جنون السائقين ، وبالتالي لهبوط الخط البياني لحوادث السيارات ؟ .. أقول لا .

مشهد التواييت لن يداوي جنونهم ، قد ينسيهم جنونهم للحظات ، يستيقظ فيها « الخوف من الموت » ومن الجنون الذي يقودهم الى الموت ، لكنه لن يشفيهم منه . ما يداوي جنونهم هو البحث عن أسباب هذا الجنون أولاً ثم العمل على ازالتها .. السائق اللبناني ، لماذا يبدو كأنه مجنون متهور ، قاتل ومنتحر ؟ .. هل هو هكذا حقاً ؟ ..

أقول لا . ذلك السائق اللبناني (سائق الجحيم) ، لا أجد ما يدعوني الى الاعتقاد بانه مجرم

مستهتر ، (ولد) هكذا من دون سائقي الارض جميعاً ..
أقول لا .

أقول : ربما كان السائق اللبناني يقرع ناقوس الخطر .. والأمر أعمق من مجرد
رعونة .. فهو أحد أفراد هذا المجتمع .. وهو أحد افراد جيلنا العربي يعاني من
أمراض التخلف الفتاكة ، والتي قد تتفاوت مظاهرها من قطر الى آخر وفقاً لظروفه
السياسية ..

ماذا في لبنان اليوم الى جانب ارتفاع نسبة حوادث السير والعنف والسراقات
التي لا يمكن أن تكون (أفلام جيمس بوند واغاني البيتلز) وحدها مسؤولة عنها ؟ ..
هنالك ما في أكثرية البلاد العربية الأخرى من امراض مشتركة : غلاء .
اضرابات . تملل . عدم تفاهم بين الحاكم والمحكوم . ازمة ثقة . لعبة شد حبل ،
وتطور اجتماعي كبير مفاجيء باتجاه غامض يتعرض له لبنان بالذات أكثر من أي
بلد عربي آخر بوصفه (ميناء) كبيراً وبلداً سياحياً يعج بنقود الغرباء ومفاهيمهم
الاخلاقية المختلفة ..

ذلك كله ينعكس على حياة افراد المجتمع جميعاً ، وهكذا تتوتر أعصاب
السائق مع أعصاب الجميع بسبب الغلاء والقهر الطبقي ومشاكل الاولاد والمدارس
وعدم التفاهم مع البنت التي تكاد (تفلت) والابن الذي بدأ يتهرب من الصلاة
ويطيل شعره ، وربما هنالك فرد مريض في الاسرة ، ونفقات العلاج حيث الطب
في بلادنا من الكماليات ، والخوف من العجز والشيخوخة وعدم الاحساس بالطمأنينة
للغد .. والماء والكهرباء ربما لم يبلغا داره بعد ، وابنة الجيران (الساقطة) التي هربت
منذ أعوام التقى بها ضيفة مكرمة لدى أسياده لأنها هي أيضاً تمتلك سائقاً مثله ،
والنائب الذي زاره أيام الانتخابات وكرمه ، له اليوم خادم يطرده كلما حاول مقابلة
نائبه الوهمي ..

عدا عن المدياع الذي يتوج هذا كله بشعور من عدم التفاهم والانسجام في العالم
العربي بأكمله ..

وبهذا المزيج المحتقن المكهرب من الاحساسيس المضغوطة ، ينطلق الفرد
عامة واللبناني خاصة الى عمله - بمن فيهم السائق - ..

بعضهم يفقد أعصابه كما يفقد بعض السائقين أعصابهم . ولكن طبيعة قيادة
السيارة بالذات تجعل من فقد الإنسان لأعصابه (أو توترها خلال العمل) كارثة علنية

تتخذ صورة هيكل سيارة معجون بالدم والصراخ .. لذا يلحظها الناس وتشملها الاحصاءات الرسمية لأحداث العنف الامر الذي لا يمكن أن يشمل الآف حوادث الدمار الفردية الصميعة لدى بقية افراد المجتمع .

وهكذا فحكاية ارتفاع نسبة حوادث السير والعنف والسراقات لا يمكن فصلها عن ازدياد موجة (الاضرابات والغلاء والقلق) .

ولكن لماذا يحدث هذا في بيروت بالذات من دون بقية البلاد العربية ما دام نتيجة لأمراض مشتركة ؟ ..

على أية حال ،

يبدو زرع (التواييت) في الشوارع علاجاً موضعياً سطحياً ، وبالتالي علاجاً (عربياً) يمكن تصنيفه في جدول (العلاجات العربية) للأمراض أمتنا في هذه الفترة .

ذلك السائق المسكين – غالباً – ، وهو يعاني ما يعاني ، أخشى من أن تحمل له التواييت المبتوثة حوله (رسالة) هي تماماً عكس ما أقيمت من أجله .. ربما يتصور أنها اقتراح رسمي لحل ممتاز ونهائي لجميع مشاكله .. فيأخذ به ..

غادة السمان قد ادركت - بذكاء وعمق - ان هناك خدعة اسمها التعرّفه بين عالم الرجل وعالم المرأة . وكان هذه الخدعة كان مقصودا بها ان تتحدث المرأة عندما تكتب عن نساء خاصة بها وحدها والا فلن تكون اذية ولا كاتبة . وهذا وهم خاطيء . فالنساء المستقره بين الرجل والمرأة في الحياة . اكثر من النساء الخاصة بكل واحد منهما . ولذلك فقد تحطمت غادة السمان تلك الخدعة او هذا الوهم وتركت - الحریم الابي - بحكي بريراته واسماء الخاصة . ودخلت بقلمتها وموهبتها في عمل الفضائيا الانسانية الحية وشاركت بعينها ومقالاتها وتحقيقاتها المتيرة في قضايا العصر والمجتمع . ولذلك كتب لغادة السمان النجاح والنجاح

- رجاء النحاس -

٢٠١٤

نصوص صفارة اذار داخل راسي تؤكد ان غادة السمان كانت ومد يداتها في الستينات تتامل وتكتب بحسن قومي انساني وتعمل عبر الحرف والكلمة على نقل معانيه الانسان العربي واحزانه وتطلعاته على امتداد هذا الوطن العربي الكبير

- جريدة البعث السورية -

٢٠١٤



لقد نقلت غادة السمان الكتابة الصحفية من تصوير الواقع تصويرا خارجيا فحسب الى كتابة الابعاد الاربعة في المادة المطروحة . ونصوصها هذه تمتلك حرارتها حقا وتتابع قارئها قبل ان يتابع هو سطورها بعينه وهو يلهث . فاذا بالانتمى كمن يطارد احدهما الآخر . تلك المطاردة التي لا يملكها الا الفن الرفيع الشديد الخصوصية والاتصاف بماسى السبر وهميم

صفارة اذار داخل راسي مجموعة من اندماجات غادة بالعالم الخارجى و الانحلال بها . كحبة القمح بين حجري الرحي - مجلة الكفاح العربي -

٢٠١٤

مشهورات غادة السمان

